على باب اللّٰه

محمود السعدني

على باب الله

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

على باب الله

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٤٧٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

مقدمة	٧
شخصية القرن العشرين	٩
شعاره ... غُرِّي غيري!	١٣
شوف بتعمل إيه؟!	١٧
مرحبًا بالمواطن زاهر!	٢١
شكرًا ... دكتور الجنزوري!	٢٥
أرجوكم ... فضوها سيرة!	٢٩
المحترمون ... من النواب!	٣٣
دعوة للاحتفال بهزيمة	٣٧
عفوًا ... عمدة الأرض!	٤١
بن لادن والحاج شكري!	٤٥
الكورة والتصريحات الخنفشارية!	٤٩
يا عيني على شنقيط!	٥٣
سعادة الوزير وأنبوبة البوتاجاز!	٥٧
زحمة يا مصر زحمة	٦١
٢٣ يوليو والشجعان ...!	٦٥
المستشار ولعبة باراك!	٦٩
الانتخابات وميتة الأبطال	٧٣
والنصيحة ... ضبط النفس!	٧٧
يا عيني على الأكراد!	٨١

شكرًا لعمدة البنوك!	٨٥
نصبة القرن الجديد!	٨٩
الأوحد في تونس!	٩٣
العين على المحافِظين	٩٧
باي باي نتنياهو!	١٠١
أعياد ولكن فباسكو!	١٠٥
وزير الداخلية ... برافو!	١٠٩
الطريق إلى البرلمان	١١٣
السادة بتوع الفريكيكو	١١٧
أبو الهنود سلمت يداك	١٢١
ورطة كوفي عنان	١٢٥
بينوشيه ... الجريمة والعقاب!	١٢٩
انتبِهوا أيها السادة!	١٣٣
الدجاجة وشعار جدِّي!	١٣٧
يا مهلبية ... يا!	١٤١
حواديت شركة بوينج	١٤٥
المركزية والشاويش عطية!	١٤٩
عفوًا ... حضرة المحافظ!	١٥٣
والجنسية ... إرهابي!	١٥٧
هذا اللاجئ الصياني!	١٦١
السفينة والكابتن سلامة	١٦٥
شيخ حارة مصر!	١٦٩
حكاية أبو طرطور!	١٧٣
برادة ... ونجيب محفوظ!	١٧٧
السودان إلى أين؟!	١٨١
سنكوح وأبو طرطور	١٨٣
مُرتَّب الخواجا والأبطال	١٨٧

مقدمة

السرور والانشكاح
بقلم: محمود السعدني

«على باب الله» هو أول عنوان اخترتُه ليكون بروازًا على مقالي في الصفحة الأخيرة بـ«المصور»، ولم يكن لي علاقة بـ «المصور»، أو بأي مجلة تصدرها «دار الهلال»، صحيح أنني عملت بـ «دار الهلال»، فترة انقطعَتْ عام ١٩٥٣م، وكانت فترة قصيرة لم تَزِد على ثلاثة أشهر، خلالها اكتشفوا أن العبد لله لا يصلح للمهنة، واكتشفتُ أنا أيضًا أنني لا أصلح للمهنة معهم، وقد تركتُ العمل في صحف «دار الهلال»، وعملتُ فترة في جريدة «القاهرة»، ثم تركتُ «القاهرة»، وانتقلتُ للعمل بجريدة الجمهورية، وعندما تم فصلي من «الجمهورية»، عملتُ بـ «روز اليوسف» عام ١٩٥٨م سكرتيرًا لتحريرها وكان فتحي غانم يعمل مديرًا للتحرير، وإحسان عبد القدوس يعمل رئيسًا للتحرير، ثم تركتُ «روز اليوسف»، بعد خروجي من سجن الواحات وفضَّلتُ العمل في مجلة «صباح الخير» حيث كان فتحي غانم قد أصبح رئيسًا لتحريرها، وبقيتُ في «صباح الخير» حتى تولَّيتُ رئاسة تحريرها لمدة ٤ سنوات، ولم أتركها إلا إلى سجن القلعة، وبعد خروجي من السجن اكتشفتُ أنني مفصول من دار «روز اليوسف» بقرار جمهوري، وممنوع من العمل في مجال الإعلام أنا وأقاربي حتى الدرجة الرابعة باستفتاء شعبي حصل على أغلبية ٩٩,٩٩٩ وأشرف على الاستفتاء نائب رئيس الوزراء النبوي إسماعيل وهو في الوقت نفسه وزير الداخلية الذي أدَّت سياسته الأمنية الرشيدة إلى حادِث المنصة، وهو الحادث الذي كان السبب في حل مشكلتي فعدتُ إلى وطني بعد عشر سنوات في المنفى الاختياري، وكان من الطبيعي أن أعود إلى مؤسَّسة

«روز اليوسف» وإلى مجلة «صباح الخير» بالذات، ولكن رئيس مجلس الإدارة وقتئذٍ تفرَّغ لمراقبة مقالات العبد لله، فاضطررتُ إلى التوقف عن الكتابة بعد أن قام برفع مقال للعبد لله كان يحمل نقدًا لوزير الإعلام، وبعد أن أقام المدعي العام الاشتراكي الأسبق دعوى ضد العبد لله أمام محكمة الجنايات بالإسكندرية، والتي حصلتُ على البراءة أمام المحكمة، ولكن حُكم البراءة لم يُقنع رئيس مجلس الإدارة، فظل مُصِرًّا على أنني مُذنب وأستحقُّ الفصل، ودخلتُ فاصل تَحدٍّ مع رئيس مجلس الإدارة، وقمتُ بزيارة مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور، ولم أكن قد تعرَّفتُ عليه قبل تلك الزيارة، مع أنه من الجيل الذي جاء بعد جيل العبد لله، وعرضتُ عليه المقال الذي انتقدتُ فيه وزير الإعلام، وقلتُ له: سأكتب لـ «المصور»، إذا نشرت هذا المقال، وفي الأسبوع التالي نَشَر مكرم محمد أحمد المقال، وقال لي: لقد خصَّصتُ لك الصفحة الأخيرة فاختر لها عنوانًا ثابتًا، فكان عنوان «على باب الله»، ومنذ أكثر من ١٥ عامًا، وأنا أكتب «على باب الله» في «المصور»، ولم يحدث في أي وقت أن حُذِف لي جملة أو عبارة أو حرف، ولم يُرْفَع لي مقال، وشعرتُ بالطمأنينة فانطلقتُ بجرأة أنقد الحكومات المتعاقبة، والوزراء الهمبكة من أمثال الدكتور حسن خضر وزير التموين، ولم أدخل أي مَحكمة خلال مشواري في مجلة «المصور»، وكانت النتيجة أن الصِّلة توطَّدَت بيني وبين مكرم محمد أحمد.

لقد تعرَّفتُ عليه وأصبح صديقي ... وتَشرَّفت ... وهذا الكتاب يضم لوحات من «على باب الله»، أرجو أن تُنعِش ذاكرتك وأن تُدخِل على قلبك السرور والانشكاح!

شخصية القرن العشرين

في ستين ألف سلامة حضرة جَناب القرن العشرين، قرن الحوادث والكوارث، قرن الحروب والدمار والخراب المستعجل.

في البداية اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، ولم تكد تمضي عشرون عامًا حتى شَبَّت نار الحرب العالمية الثانية. وفي الحربين أكلَت النار من أجساد البشر حتى شَبِعت، وشَربَت من دمائهم حتى ارتوت. مجازر لم يشهد التاريخ لها مثيلًا. عشرات الملايين دُفِنوا تحت الأنقاض، ومثلهم دُفِنوا في الخنادق، وناموا نومتهم الأبدية تحت الثلوج.

وقيل: إن جيشًا ألمانيًّا من ثلاثة ملايين جندي انطلقوا ذات صباح من ألمانيا، ووجِهَتُهم موسكو، ومن بين هؤلاء الملايين الثلاثة لم يُكتَب إلا لعشرين جنديًّا رؤية ألمانيا مرة أخرى!

وبالرغم من الخراب والدمار اللذين أحدثَتْهما الحربان العالميتان، إلا أن الكرة الأرضية لم تهدأ ولم تستقر. جاءت حرب كوريا، ثم حرب فيتنام. واندلعت عدة حروب في الشرق الأوسط، وشَبَّت نار الحرب في جزيرة فوكلاند، وفي أفريقيا أكلَت الحروب الأهلية قبائل بأَسْرها. وشهدت القارة الهندية حربين بين الهند وباكستان، وأخيرًا كانت حرب البوسنة، ثم حرب كوسوفا، ثم حرب الشيشان.

ولم تكن الحرب فقط هي التي أكَلَت أرواح الناس، ولكن هناك عدة جبهات للقتال، أمراض لم يكن للبشر عَهْد بها من قبل، أخطرها مرض نقص المناعة الذي يكاد يمحو كل أثر للحياة على أرض أفريقيا.

وإذا كان القرن العشرون يلملم أذياله الآن ليفسح الطريق أمام القرن الحادي والعشرين، فلا أظن أن أحدًا سيأسف لفراقه أو يَذرف دمعة في وداعه. فما أكثر المصائب والنوائب التي شهدَتْها سنواته. وما أغزَرَ نهر الدموع التي ذرفها البشر تحت أقدامه. لم يبقَ لنا إلا أن نهتف في وداعه. في ستين ألف سلامة يا أيها القرن العشرون، لعل القرن

القادم يكون أفضل، وأسلم، وأكثر أمنًا وأمانًا لصنف البشر الذين ذاقوا الويلات خلال القرن العشرين. وبمناسبة انتهاء القرن العشرين واستقبال قرن جديد، لماذا لا نُجري استفتاء لاختيار شخصية تكون تعويذة للقرن الذي يستعد للانسحاب الآن. وهي لن تكون عملية سهلة ولن تكون بسيطة، ومع ذلك فلنَخُض التجربة ونتوكل على الله.

والسؤال: ما هي الشخصية التي تصلح علامة على القرن العشرين؟ هل هي شخصية القائد الذي قاد الجيوش ودكَّ العروش وهزم الأعداء ورفع رايته وترك بصمته على وجه التاريخ؟

ولكنَّ القادة المنتصِرين كثيرون. هل نختار روميل أوسع قادة الحرب العالمية الثانية شهرة؟ هل يقع اختيارنا على مونتجمري صاحب الفضل في إحراز نصر العلمين؟ هل يكون اختيارنا من نصيب الجنرال أيزنهاور قائد جيوش الحلفاء في معركة تحرير أوروبا من براثن الجيش الألماني؟

إذا كان لا بُدَّ من اختيار قائد عسكري، فالعبد لله يختار الجنرال جياب قائد الجيش الفيتنامي ضد الجيش الفرنسي، ثم ضد الجيش الأمريكي، وأختار القائد الشيشاني شامل باسييف قائد مجاهدي الشيشان ضد جيوش الإمبراطورية الروسية.

وإذا كنا سنختار شخصية القرن من بين القادة الذين قادوا شعوبهم إلى النصر الكامل بدون أسلحة أو جيوش، فاختيار العبد لله سيقع على المهاتما غاندي زعيم القارة الهندية، وسيكون في مُقدِّمة المرشَّحِين لعملية الاختيار الزعيم الأفريقي نِلسون مانديلا. أما إذا كانت شخصية القرن العشرين ستأتي من صفوف العلماء. فسيكون اختياري للعلامَّة العبقري أينشتاين الذي حطَّم الذَّرَّة. ونجح في إخراج المارد من القُمقم. أما إذا كانت شخصية القرن سيجري اختيارها من بين الزعماء الذين أحدَثوا تغييرًا جذريًّا في مسيرة الحياة، فسيكون الاختيار من نصيب السياسي الفيلسوف جورباتشوف الذي قاد أخطر انقلاب في تاريخ البشرية، وكانت نتيجته زوال المعسكر الاشتراكي، وانفراد أمريكا بزعامة المعسكر الرأسمالي وقيادة العالم كله.

وإذا كانت عملية اختيار شخصية القرن العشرين من بين المفكِّرين والأدباء فسيكون اختياري للأديب المصري العالمي نجيب محفوظ، والذي نجح في تقديم حرافيش القاهرة إلى المجتمع الدولي، وجعَلَهم موضع الاحترام والتقدير.

أما إذا كان اختيار شخصية القرن من بين نجوم الفن وأبطال السينما، فسيكون اختياري للفنان شارلي شابلن الذي استخدم السينما كسلاح، والذي استطاع أن يُضحِك العالَم ببدلة مهرولة وعصا ملوية وحذاء ضخم لا يستقر في أقدام صاحبه.

إما إذا كان اختيار الشخصية من بين كباتن كُرة القدم فسيكون اختياري للكابتن محمود الجوهري الذي نجح في الحصول على بطولة أفريقيا بالنجوم والكباتن أنفسهم الذين فشلوا في الحصول على كأس جزيرة بدران، وهي معجزة بكل تأكيد ترشحه ليكون نموذجًا وعلامة على القرن العشرين.

أما إذا كان الاختيار سيكون وقفًا على رجال المال والأعمال والمستثمرين من رجال الاقتصاد فسيكون اختياري للحاج فتحي الريان؛ لأنه استثمر بدون رأسمال، وصار من رجال الأعمال بدون حاجة إلى وجود أية أعمال. وما قام به الحاج فتحي هو معجزة من معجزات هذا القرن يستحق صاحبها مكانًا في الصدارة، ودورًا في قيادة هذا الزمان.

تُرى هل نَسينا طائفة من الطوائف أو مِهنة من المهن فلم نُرشِّحها في هذا الاستفتاء؟

أعتقد أننا نَسينا طائفة مؤلِّفي المُسلسَلات التليفزيونية، وأُرشِّح من بينهم مؤلِّف حارة المحروسة، لأنه كالدنيا يؤلِّف ولا يؤلفان!

شعاره ... غُزِّي غيري!

بعض الناس تموت فور استخراج شهادة الوفاة، وبعضهم تتواصل حياته بعد الموت، وقد يصبح غيابه أكثر حضورًا وأعمق أثرًا من هذا الصِّنف من البشر وعلى رأسهم الزعيم جمال عبد الناصر أحد أعظم حكام مصر في تاريخها الطويل، حقق إنجازات بعضها يعتبر ضربًا من ضروب الخيال، وارتكبَتْ أجهزته هفوات بالرغم من خطورتها لم تستطع تلطيخ الثوب الأبيض بالبُقع السوداء، أنصاره ارتفع بهم العشق إلى مرتبة الدراويش، وأعداؤه تحوَّل بعضهم إلى طلاب ثأر، وجهوا إليه كل التُّهم، ورَمَوه بكل نقيصة، لم ينجح الموت في إخماد النار المتأجِّجة في صدورهم، لدرجة أن بعضهم اتهمه بأنه باع بعض بواكي الدولارات وحصل على عمولته من حصيلة البيع، مع أنه أكثر خلق الله زهدًا في الدنيا، وكان شعاره الذي رفعه في مواجهتها ... غُزِّي غيري ... غُزِّي غيري!

الله يرحمه ويحسن إليه جمال بن عبد الناصر حسين، البطل الذي اصطاده أعداؤه في النهاية وقَتلوه همًّا وغمًّا، الأسلوب نفسه الذي اتبعوه مع محمد علي باشا، ومع علي بك الكبير، ويقول أعداء عبد الناصر، ولماذا لم يأخذ عبد الناصر حذره؟ ولم يَحتَطْ لذلك اليوم الذي كان يخشاه ويتوقعه؟ ورَدِّي عليهم ... وهل أخذ الاتحاد السوفييتي حذره؟ إحدى القوى الأعظم في العالم، مع أنه كان يمتلك أسباب القوة: جيش قوي وشِبه متماسك، وحزب حديدي، وبالرغم من ذلك نجحَت المؤامرة، وتفكَّك الاتحاد السوفييتي، وحل زعماء المافيا مَحل قادة الحزب، وأصبح الفساد هو النظرية، وتُجَّار السوق السوداء هم أعضاء اللجنة المركزية؛ ذلك لأن كيد القوى الشريرة أخطر من كيد النساء، ولأن في طبيعة البشر شيئًا يجعلهم يرفضون القيود مهما كانت أهدافها لخدمة المجموع، ويجعلهم يضيقون بالعدل المُطلَق حتى لو كان الذي يطبقه هو الخليفة عمر بن الخطاب، ولله دَرُّ «الدكتور طه حسين» تَعرَّض لهذه المسألة بشكل عبقري في كتاب «الفتنة الكبرى» قال الدكتور طه

في كتابه: «عندما مات عمر بن الخطاب فرح المسلمون أيَّما فرح وابتهجوا أيَّما ابتهاج.» والسبب طبعًا أن سيدنا عمر لم يكن يرحم مذنبًا أو يعفو عن مخطئ، وفي زمن عمر بن الخطاب تردَّدتْ نكتة تقول إن سيدنا عمر لمح زجاجة خمر مع رجل في الطريق، فتعقَّبَه وألقى القبض عليه، فأخفى الرجل يده المُمسكة بالزجاجة خلف ظهره، فسأله عمر: ماذا في يدك؟ … أجاب الرجل زجاجة خل، فقال عمر بَل زجاجة خمر، فتوسل الرجل إلى عمر أن يتركه؛ لأن محتويات الزجاجة التي معه من الخل ولا علاقة لها بالخمر، ولكن سيدنا عمر أصر على رؤية الزجاجة، فتوسَّل الرجل إلى الله جل جلاله أن ينقذه من العقاب الذي ينتظره على يد عمر، وكانت المفاجأة أن سيدنا عمر عندما انتزع الزجاجة من يد الرجل اكتشف أن الزجاجة بها خل، ولا أثر فيها للخمر … النكتة تقول إن الله — سبحانه وتعالى — كان أرحم بالرجل المخطئ من سيدنا عمر، هذا كان في مجتمع سيدنا عمر بن الخطاب، فما بالك بمجتمع عبد الناصر؟ الذي كان فيه أمثال علي شفيق، وحمزة البسيوني، واللواء إسماعيل همت؟! والآن وقد مضى ثلاثون عامًا على وفاة جمال عبد الناصر، ما الذي بقي منه على أرض مصر؟ بقيت مصر العمال والفلاحين وكانوا كمًّا مُهمَلًا في العهد الملكي، وبَقِيَت مصر بدون الاحتلال الإنجليزي الذي بقي جاثمًا على أرضها سبعين عامًا طويلًا، وبقيت قناة السويس شركة مساهمة مصرية، والتي أصبحتْ أهم مرفق ملاحي على ظهر الأرض، قناة السويس التي يديرها الفريق أحمد فاضل مع نخبة من شباب المصريين، وبقي السد العالي الذي حمى مصر من المجاعة ومن الغرق، وبقيت مصر زعيمة العالم العربي، ودُرَّة العالم الإسلامي، وبَقِيت الجمهورية المصرية التي نعيش فيها ونحيا على أرضها، لقد كانت صفقة عبد الناصر صفقة رابحة لمصر، وكان عبد الناصر هو الخاسر الوحيد فيها، ولو عاش عبد الناصر مجرَّد موظف في دواوين الحكومة لاستمتع بحياته أكثر، وربما عاش أطول وأهنأ، ولو كان عبد الناصر من طلاب الدنيا لكان بمواهبه وحضوره وقوة شخصيته من كبار رجال الأعمال، ولكان الآن يقضي أيامه في منتجَع سويسري هاربًا بأموال عشرة بنوك من بنوك مصر، ولكن كل إنسان يعمل لما هو مُيسَّر له، فقد عمل عبد الناصر لما هو مخلوق له، وكان ميسَّرًا للمجد، وللنضال، ولخدمة بلده وشعبه، وعاش حياته يُقاتِل على كل الجبهات، وعاش ومأكوله الجبن البيضاء، ودواؤه الماء الساخن المخلوط بالملح يغمس فيه قدميه ليشعر بالراحة بعد تعب وعناء، رحم الله الزعيم جمال عبد الناصر وجزاه خيرًا بما قدَّمه لبلده وشعبه الأصيل الذي عاش لمصر ومات من أجْلِها.

كَشْف ميداليات دورة سيدني الأسترالية يعكس مدى التغيير الذي تسبب في شقلبة الدنيا وأعاد توزيع الأدوار والأماكن، الولايات المتحدة في المقدمة، وبعدها روسيا، ثم تأتي الصين بفارق كبير في المركز الثالث ثم تأتي أستراليا صاحبة الأرض في المركز الرابع، وحصلت على نصف ميداليات الولايات المتحدة، ثم ألمانيا ولها نفس ما لدى أستراليا من ميداليات، ثم إيطاليا بعد فرنسا، ثم كوبا، ثم هولندا، ثم بريطانيا التي كانت عظمى ولها ٧ ميداليات لا غير. ونقرأ في ذَيل الكشف أسماء دول نامية مثل كولومبيا، وإيران، وموزمبيق، وجنوب أفريقيا، وجاميكا، ولم نقرأ في الكشف اسم دولة عربية واحدة بالرغم من حصول الكويت على ميدالية برونزية، والأمر الذي لا أجد له تفسيرًا كيف يتمكَّن رجل من إثيوبيا من هزيمة متسابِقِين معه من السويد وسويسرا وأمريكا وكندا، في مسابَقات المسافات الطويلة في العَدْو؟ فاز العداء الأثيوبي هيلاسي على متسابِقِين من هولندا، وسويسرا، والسويد، والولايات المتحدة. كيف يحدث هذا؟ بينما إفطار الرجل السويدي يكفي لإطعام الأثيوبي في عام، وولد كوبي اسمه جارثيا فاز على جميع أبطال العالَم في مسابقة مائة متر عَدْو مع الحواجز، فاز الكوبي الغلبان على بطل العالم الأمريكي وبطل أوروبا البريطاني والبطل الهولندي، مع أن الفَرْق معروف بين كوبا والولايات المتحدة، طيب وإذا كان هذا ممكنًا فلماذا نحن الخيبة ماسكانا؟ واشتراكنا في هذه المهرجانات مثل عدمه، وإذا كانت كينيا، وموزمبيق قد استطاعتا أن تَنقُشَا اسمهما على كَشْف الميداليات، فهل نحن في درجة أقل من موزمبيق، وترينداد، وتوباجو؟ إن هناك دولًا كثيرة، الأكل فيها بمضاربة على رأي بيرم التونسي حصلتْ على ميداليات، وبعض هذه الدول تعاني من المجاعة والبطالة ووقف الحال، فلماذا نحن فقط الذين ينطبق علينا المثل إياه ... «الناس خيبتها السبت والحد واحنا خيبتنا مش على حد!»

والسؤال الآن ... مَن المسئول عن هذه الخيبة؟ الاتحادات الرياضية، اللجنة الأوليمبية، وزارة الشباب، نادي الأسد المرعب، هذا السؤال لا بُدَّ له من جواب، ولا بُدَّ أن تكون هناك مساءلة وتحقيق ... أيًّا كان المسئول؛ لأن فضيحة مصر على المستوى الدولي لا يمكن السكوت عليها، ولا يمكن السماح بمرور هذه التجربة بدون عقاب ... إلا إذا كان هناك من يرى أن الحصول على الميداليات ليس المهم، ولكن المهم هو رضا الوالدين!

شوف بتعمل إيه؟!

الحمد لله لأنني بعد هذا العمر الطويل، عشت وشفت الحكومة تخطئ في حق مواطن ظريف، ثم تقوم بإصلاح الخطأ في صمت وفي هدوء ودون تدخُّل من أحد، وهي علامة على أن حكومة الجنزوري تمضي في الطريق الصحيح، وأصل الحكاية أن أكبر رأس في البلد كان يقوم بافتتاح بعض المشروعات الجديدة كما هي عادته، عندما وقع بصره على خطأ فاحش لا يمكن وقوعه إلا عن طريق الكوسة وتبادُل المنافع والمصالح والإكراميات، وسأل الرجل الكبير السيد المحافظ عن هذا الخطأ الذي لا يمكن أن تتجاهله عين المواطن العادي، فما بالك بالمواطن الخبير، ورد السيد المحافظ على الفور ... إنها مسئولية رئيس الحي وسنتخذ ضده الإجراءات القانونية.

ولم يكن الرجل الكبير قد عاد إلى مكتبه بعد حتى كان المحافظ قد اتخذ قراره بوقف رئيس الحي وإحالته إلى النيابة، والنيابة ليست وكيلة المحافظ ولكنها وكيلة الشعب، ولأنها وكيلة الشعب فهي تبحث عن الحقيقة، واكتشفَت النيابة أن رئيس الحي مظلوم؛ لأنه تولَّى مسئولية الحي بعد عشر سنوات من وقوع الخطأ، وأن ذنبه الوحيد أنه على خلاف مع السيد المحافظ، وأن المحافظ انتهز الفرصة لكي يتخلَّص من غريمه مرة واحدة وإلى الأبد.

وأفرجت النيابة عن رئيس الحي من سراي النيابة وقضى رئيس الحي المخلوع ١٨ شهرًا على القهوة يلعب الطاولة ويُدخِّن الشيشة، ولكن فجأة وبدون مُقدِّمات صدر قرار الحكومة في حركة المحليات الأخيرة بتعيين رئيس الحي المخلوع رئيسًا لمدينة كبرى، دليل على أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ودليل أيضًا على أن الحكومة يمكنها تصحيح أخطائها.

ولكن يبقى سؤال في غاية الأهمية: ما هو جزاء المحافظ الذي كذب على أكبر رأس في الدولة؟ وما هي العقوبة التي يَستحقُّها المحافظ — أي محافظ — عندما يكتب مذكِّرة رسمية مرفوعة لرئيس الدولة يصف فيها مواطنًا صالحًا مشهودًا له بالصلاح والاستقامة من الجميع بأنه بلطجي معروف؟ وما هو غرَض المحافظ من اتهام مُواطن بالبلطجة؟ هل كان يريد ضوءًا أخضر لاعتقال المواطن؟ وماذا يكسب المحافظ من اعتقال مواطن شريف خدَم النظام والشعب بهمة ونشاط وأمانة ليس لها نظير؟ ما هو عقاب مثل هذا المسئول الذي مارَس الكذب بطريقة لا تليق برجل في موقعه؟! وأخطر شيء على الدولة — أي دولة — أن يكون في موقع المسئولية بعض القيادات التي تمارس الكذب من أجل مصالح شخصية، ولكن ما حدث مع رئيس الحي الذي أصبح رئيسًا للمدينة يجعل الأمل يراودنا في عصر جديد، عصر تعود فيه الحقوق لأصحابها دون وساطة، وستُحسَب هذه الواقعة بالتأكيد لحكومة الدكتور كمال الجنزوري، وستُضاف أيضًا إلى حساب الرجل الشريف هتلر طنطاوي رئيس الرقابة الإدارية، وستدخل في رصيد المحافظ الطاهر اليد واللسان الدكتور فاروق التلاوي.

أذكر مرة منذ أكثر من ٢٥ عامًا أنني فوجئتُ باسمي في قائمة تضم عدة أسماء لرجال تتشرف بهم مصر، رجال أمثال: محمد عودة، ولويس عوض، وإحسان عبد القدوس، وكانت المناسبة هي تجريد أهل القائمة من عضوية الاتحاد الاشتراكي، في الوقت الذي كانت فيه العضوية شرطًا ضروريًّا للعمل في الصحافة، أما الجريمة التي نُسِبتْ إلينا فهي انهيار الوحدة بين مصر وسوريا، مع أنني كنتُ مسجونًا في سجن المحاريق بالواحات الخارجة في زمن الوحدة، ولم تطأ قدماي أرض سوريا أثناء الوحدة، صحيح أنني قضيتُ وقتًا طويلًا في دمشق قبل الوحدة، وكنتُ على علاقة صداقة وطيدة برجال أمثال: أكرم الحوراني، وصلاح البيطار، وعفيف البزري، وكاظم زيتونة، وعبد الغني قنوت، وآخرين أمثالهم من الذين أفْنَوا العمر في سبيل الوحدة العربية، لم أَكُن أحد أركان مكتب المشير عامر، ولم أكن أحد مفوَّضي الحكومة في دمشق، ومع ذلك وجدتُ نفسي مفصولًا من الاتحاد الاشتراكي، وسيعقبها بالطبع فصلي من الصحافة بسبب انهيار الوحدة اللي ما يغلبها غلاب! وحفيت قدماي لمدة عام كامل، وأنا أنتقل من مكتب إلى آخر، ومن لقاء مسئول إلى مسئول آخر، وفي النهاية تم إلغاء القرار السابق، ولكن دون رد اعتباري بتعييني في منصب كبير بالاتحاد الاشتراكي، أو تَسلُّمي أمانة عامة عوضًا عمَّا جرى لحضرتنا خلال فترة الوقف تمهيدًا للفصل النهائي، ولم يُنقذني من محنتي في تلك الأيام إلا الدكتور أنور المفتي، أعظم طبيب أنجبته أمة محمد في تاريخها الطويل.

على رأي الكابتن محمد لطيف، تكاد الرأسمالية المصرية تُضيِّع فرصة عمرها، وهي الفرصة التي هيَّأها لها نظام حسني مبارك، أزاح الرجل من طريقها كل العراقيل، وحصَّنها بكل الضمانات، ووفر لها كل الإمكانات، هدفه الوحيد أن يرى مشروعات عملاقة على أرض مصر، مشروعات تستوعب عمالة كثيرة، وتفتح بيوتًا تضم عائلات من شباب مصر، ولكن الرأسمالية المصرية لا تتعلم من أخطائها ولا ترغب في ذلك ... ظهرت طائفة من الهبَّاشين، هبَرت من البنوك، ونصبَت على المصريين، ولكن أمر هؤلاء هَيِّن، فأجهزة الأمن لهم بالمرصاد والقضاء كفيل بهم، وهناك طائفة أخرى من فصيلة دراكولا، هوايتهم الوحيدة مص دماء الناس، على رأس هؤلاء رأسمالي مصري شهير اسمه ساويرس، وفي البداية تَصوَّرتُ أنه مستثمر أجنبي ثم اكتشفتُ أخيرًا أنه مصري من صُلب مصري ... وإذا كانت المصادَفة لم تجمعني بالأخ ساويرس في أي وقت، فقد اعترض طريقي بشدة عندما أصبح ملك التليفون المحمول، الفواتير تنهمر على دماغ العبد لله كما المطر في لندن، آخِر فاتورة دفعتها بمبلغ ٤٥٠ جنيهًا مصريًّا كل جنيه ينطح جنيه، الفاتورة الثانية وصلت العبد لله بعد أسبوعين، الشركة تطلب مائة جنيه فقط لأنني لم أستعمل التليفون خلال هذا الشهر لسفري إلى الخارج. ومع ذلك مرحبًا بالفاتورة الجديدة، ولكن ماذا في الفاتورة الجديدة؟ مائة جنيه حساب الشهر، و٣٥٠ جنيهًا من حساب الشهر الماضي، أي شهر ماضٍ يا عم ساويرس؟ عجايب، لماذا الرأسماليون المصريون وحدهم من فصيلة «حتتك بتتك» لا بُدَّ من مسح جيوب الزباين حتى آخِر مليم أحمر، والأكادة أن العم ساويرس ينطبق عليه قول المتنبئ:

جوعان يأكل من زادي ويطعمني لكي يقال عظيم، القدر مقصود

العم ساويرس بشرني في خطابه بأنه تكرَّم وتفضل وتنازل بمنح العبد لله عدة دقائق مجانًا ولوجه الله تعالى، وسيجري الخصم على الفاتورة بإذن واحد أحد، صاحب المخل راجل طيب وكريم؛ ولذلك فلا بد من الإعلان عن هذا الكرم على الفاتورة نفسها وبخط واضح حتى يعلم الجميع أن الدنيا بخير ولا يزال فيها ناس طيبون! طيب ما رأيك يا عم ساويرس؟ العبد لله يرفض هديتك التي ليس لها مثيل في تاريخ البشر، وأقول لسعادتك من باب العلم فقط: إنني أثناء زيارتي الأخيرة لبريطانيا اتصلت بشركة تليفونات أهلية واشتركت في المكالمات الخارجية بمبلغ ٥٠ جنيهًا فقط، هل تعلم يا عم ساويرس كم أعطتني مجانًا؟ أعطتني ٦٠ دقيقة لبلد واحد على ثلاثة أيام بدون أجر على الإطلاق، ومنحتني هذا الامتياز، وهي تمنحه لكل الناس بدون مِنَّة ولا إعلان.

وأقول لك يا عم ساويرس ... فاتورة تليفونك، وفاتورة الكهرباء، وفاتورة الدروس الخصوصية هي السبب في كساد الأسواق، لا يتبقَّى من فلوس الناس فائض للصرف منه في الأسواق بعد تسديد الفواتير.

وأقول لك في النهاية، إنها فرصة العمر هيأها لكم نظام حسني مبارك، إذا لم تغتنموها بالسلوك الطيب والعادل والرحيم بشعب مصر، فالعاقبة ليست في صالحكم ولا في صالح مصر؛ لأن التجارة ليست شطارة فقط، ولكنها شطارة ورعاية لمصلحة التاجر ومصالح كل المصريين.

اللهم هل بَلَّغتُ. اللهم فاشهد!

مرحبًا بالمواطن زاهر!

من واجب الشعب المصري الآن أن يشكر المنتخب السعودي ... لأنه كان السبب المباشر في خلع السلطان سمير زاهر، بعد أن فشلت كل المحاولات السابقة في زحزحته بعيدًا عن مملكة الجبلاية التي تربع زاهر فوق عرشها زمنًا شهدت خلاله الكرة المصرية نكسات فَشَر نكسة حرب الأيام الستة. ففي زمن السلطان سمير زاهر خرج المنتخب المصري خروجًا مهينًا من تصفيات البطولة الأفريقية، وانهزم المنتخب أمام منتخب ليبيريا وهو المنتخب الغلبان الذي يتكون من لاعب واحد هو «وايا» ومعه عدد من الأفراد.

وبفضل السلطان زاهر انهزم المنتخب المصري للمرة الأولى في تاريخه من المنتخب الكويتي، وبالرغم من ذلك لم يخجل السلطان زاهر ولم يشعر بالذنب. ولأن الطيور على أشكالها تقع؛ فقد استعان السلطان زاهر بالكابتن فاروق جعفر كمدير فني للفريق المصري، مع أن غاية طموحات فاروق جعفر أن يكون مدربًا لفريق المريخ البورسعيدي، أو فريق مزارع دينا. أما لماذا وقع اختيار السلطان سمير على الكابتن جعفر؟ لسبب وجيه للغاية وهو أن علاقة سمير بالكرة تشبه علاقة خالتي نفيسة باللغة الهيروغليفية. صحيح أن السلطان سمير كان يومًا ما لاعبًا في نادي دمياط ثم انتقل إلى النادي الأهلي ولعب له لمدة أسابيع، ثم اعتزل واكتفى بدور المتفرِّج والاكتفاء بالجلوس في المدرَّجات. وهو في واقع الأمر رجل أعمال يجيد عقد الصفقات وقبض العمولات. أما فن الكورة فلا علاقة بالسلطان سمير زاهر به. ولأنه من رواد الدرجة الثالثة فالنجم الذي اختاره سمير زاهر للإشراف على الفريق المصري هو الكابتن فاروق الذي يعتبر نجم جمهور الترسو. والكابتن فاروق في الحقيقة هو لعيب حَواري يجيد اللعب بالكرة الشراب، وأبرز إنجازاته الكروية هو تعمده السقوط في منطقة الجزاء واستغلال طيبة قلب الحكام الأفارقة والحصول لفريقه على ضربة جزاء. وهو سلوك غير رياضي وغير طيب وغير أخلاقي أيضًا. ومع ذلك

كان الكابتن محمد لطيف — سامحه الله — يزف البُشرى لجمهور التليفزيون ويؤكد بأن ضربة الجزاء صحيحة و... برافو يا حكم ... حكم عظيم فعلًا، ولا يسمح بأي خطأ في المباراة. يعني ببساطة كان المرحوم محمد لطيف يقوم بتحويل دجل فاروق جعفر الشخصي إلى دجل عام على المستوى الوطني. وبالطبع كابتن على هذا المستوى ويتمتع بمثل هذه الصفات لا يصلح ليكون قدوة للمنتخب الوطني، ولكن عند السلطان سمير زاهر ... كله عند العرب صابون. وراس فاروق جعفر براس محمود الجوهري، وأي شيء مثل كل شيء ... ولا فرق.

وأكاد أجزم لحضراتكم بأنه لم يكن هناك أي هدف للسلطان سمير زاهر من وراء تربُّعه على عرش اتحاد الكورة سوى المنظرة. أحاديث صحفية وصور على الصفحات الأولى وعلى الصفحات الرياضية، والدليل على ذلك هو سفر السلطان سمير زاهر إلى المكسيك، وفي المكسيك اجتمعت مجموعة منتخبات؛ منها: البرازيل، والمكسيك، وألمانيا، وبوليفيا، والسعودية، والولايات المتحدة، ونيوزيلندا، بالإضافة إلى مصر. فهل سافر إلى المكسيك رئيس اتحاد الكورة الألماني، أو البرازيلي، أو الأمريكي؟ لم يسافر أحد من رؤساء الاتحادات الرياضية سوى رئيس الاتحاد المصري. ليه؟ لأنه تصور أن الفريق سيحرز انتصارًا تاريخيًّا ويصل للمربع الذهبي، وعندما يعود المنتخب إلى القاهرة سيخوض السادة المسئولون عن الكورة بحرًا من جموع الناس، وستحملهم الجماهير على الأعناق. وهات يا أحاديث في التليفزيون وفي الراديو وفي الصحف.

هذا هو السر في سفر سمير زاهر إلى المكسيك. ولكن تقدرون فتضحك الأقدار، ويشاء السميع العليم أن يسقط المنتخب المصري في وكسة لم يقع في مثلها من قبل، خمسة واحد ليس أمام البرازيل، أو ألمانيا، ولكن أمام المنتخب السعودي، الهزيمة واردة مفيش كلام ولكن في حدود معينة باعتبار أن المستوى متقارب، ولكن خمسة في عين العدو، هذه هي إرادة الله ليكون خروج سمير زاهر مأساويًّا ويحتاج إلى مؤلِّف عبقري مثل صلاح جاهين، ومطرب شعبي مثل شفيق جلال، ويا خوخ خانونا الحبايب واحنا لم خونا، ويا برتقان برتقونا الحبايب واحنا لم برتقنا، ويا تَمْر حنا رحلنا وحنت منازلنا! على كل حال في ألف سلامة يا سعادة الباشا سمير زاهر يابو سيجارة مثل ماسورة المدفع. وعزائي الوحيد أنني لم أكتب عنك ولم أكتشف حقيقتك بعد استقالتك، ولكن العبد لله كان هو الوحيد الذي تَعقَّبك من أول لحظة تولَّيتَ فيها منصبك، وقلتُ فيك أكثر مما قاله مالك في الخمر. أما الآن وبعد استقالتك وابتعادك عن اتحاد الكرة ... فصافي يا لبن، وليس بيني وبينك

أي خصومة من أي نوع، ومرحبًا بك كمواطن وكرجل أعمال ... أما كورة واتحاد كورة فاسمح لي؛ لأنك لم تكن الرجل المناسب في المكان إياه. لأنك مُجرَّد مشجع كورة عادي، ومرحبًا بك في مدرج الدرجة الثالثة بإذن الله.

ولكن اسمحوا للعبد لله بكلمة حق ينبغي أن تقال وسط هذا الجو المشحون بالهموم والأحزان. لا تُفرِّطوا في الكابتن الجوهري بحق الله. لا تُكرِّروا الخطأ نفسه الذي وقعتم فيه من قبل، عندما انهزم المنتخب ٦/صفر أمام فريق يوناني في مباراة ودية. وكانت النتيجة أننا وقَعْنا في براثن فاروق جعفر، وبصراحة وبوضوح ... ليس في مصر كلها مدرب يصلح للمنتخب سوى الدكتور محمود الجوهري، وهو دكتور بإنجازاته التي حققها للمنتخب. والعبد لله يناشد الدكتور كمال الجنزوري أن يتجاوز هذا المطب بالنسبة للجوهري؛ فهو مدرب حقيقي، ومدرب عالمي، والكورة مكسب وخسارة. خصوصًا أن أمامنا بطولة أفريقية قادمة ثم تصفيات كأس العالم. وبقاء الجوهري على رأس المنتخب الوطني لا يحقق له أي مصلحة، ولكنها مصلحة مصر في الأساس، صحيح أن الجوهري له أخطاء ولكن أخطاء الجوهري هي عين الصواب بالنسبة لأخطاء الآخَرين. ثم يجب اختيار رئيس لاتحاد الكورة يمكن أن يكون عونًا للجوهري وليس عبئًا عليه، وأقترح ثلاثة أسماء، الكابتن صالح سليم إذا قبل المنصب، والكابتن عبده صالح الوحش، واللواء الدهشوري حرب.

وأقول للشعب المصري: الهزيمة في الكورة ليست مثل الهزيمة في الحرب، والكورة لعبة وينبغي وضعُها في هذا الإطار. وليس في الكورة كبير، فالبرازيل بجلالة قدرها انهزمت أمام الولايات المتحدة، وانهزمت مرة بكامل نجومها أمام ويلز. وهزيمة السعودية للفريق المصري ليست نهاية العالم. وينبغي أن ننهض من بين أطلال الهزيمة، ونستعد للمباراة القادمة. وعندنا والحمد لله فريق ممتاز يلعب كرة حقيقية وكان نِدًّا للمكسيك في أرضها وبين جماهيرها. ولم يتمكن من إحراز النصر على بوليفيا بالرغم من أنه كان قاب قوسين أو أدنى. واذكروا للجوهري فوزنا ببطولة أفريقيا في بوركينا فاسو بعد مرور زمن طويل لم نستطع فيه الصعود إلى دور الأربعة.

وليكن عقد الاتحاد الجديد مع الجوهري لحد البطولة الأفريقية. إن استطاع الاحتفاظ بها فأهلًا وسهلًا، وإذا لم يستطع فيكون لكل حادث حديث.

وهناك ملاحظة أخيرة، هي الأحاديث التي أدلى بها السادة الكباتن لمندوب القناة الفضائية المصرية. كلهم أَلْقَوا باللوم على الحكم. وكلهم عملوا الواجب وكل واحد منهم ولا رونالدو ولا باجيو ولا زيدان. وزمان كنا نلقي اللوم على نقص الأوكسجين في هضبة

الحبشة وعلى هطول الأمطار، ولكن الزمن تَغيَّر والأعذار أيضًا. وهو موقف لا يُطمئِن؛ لأن الإحساس بأن كل شيء على ما يرام، ولكن الهزيمة جاءت بسبب ظروف خارجية، يعني أن مسلسل الهزائم سيستمر. وسنخرج من نُقرة لنقع في دحديرة. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

شكرًا ... دكتور الجنزوري!

العبد لله أحد الناس الذين استبدَّ بهم الفرح لخروج الدكتور كمال الجنزوري من الوزارة، ولكني لسبب يختلف عن أسباب فرح الآخَرين. ففي الشهور الأخيرة كان الدكتور الجنزوري لا يعيش معنا وإن كان حيًّا يُرْزَق. كان يوجد في مكتبه منذ السابعة صباحًا ليغرق في بحر من الأضابير والدوسيهات، ومع أنه يزحف نحو الخامسة والستين إلا أن ذاكرته كانت أشبه بكمبيوتر حديث. يحيط بكل التفاصيل في كل مشروع يشرف عليه. وكانت همومه كثيرة من أول كرة القدم إلى المشروعات الكبرى التي هي حجر الأساس لمستقبل البلاد. ومع ذلك ... ربما أخطأ الجنزوري، وربما حمل على أكتافه من المسئوليات أكثر مما يستطيع، ربما أمسك بين أصابعه خيوطًا ما كان أغناه عن الإمساك بها. ولكن هذا كله لا ينفي أنه كان نظيف اليد شريف القصد، تفرَّغ تمامًا لخدمة مصر أو في محاولة جادَّة لخدمتها. ولذلك كان واجبًا علينا نحن أبناء مصر أن نشكر الدكتور الجنزوري على الجهد الذي بذله أثناء فترة توليه منصبه.

وهو شكر يستحقه؛ لأن نظرة واحدة على ما كان يوم توليه المنصب وما صار عليه الحال يوم تركه، سيجد أن صورة مصر تَغيَّرت بشدة، وأن حجم الإنجازات التي تَمَّت خلال الفترة التي تفصل بين البداية والنهاية، لا بُدَّ أن يكون وراءه جهد يستحق الشكر ويستحق ما هو أكثر. قد تكون حدثت أخطاء أثناء العمل وهو خطأ مغفور؛ لأنه خطأ في الممارَسة؛ لأن الذين يعملون هم الذين يخطئون. ولا داعي لكشف هذه الأخطاء الآن، ولكننا سنعود إليها في مناسبة أخرى لنضع أصبعنا على المُتَّهم الحقيقي الذي أشاع الفُرقة والخلاف بين الوزراء، وهو مع الأسف الشديد أحد أعضاء المجلس نفسه ... ولكن ليس هذا وقته على أية حال.

وأصارحكم القول بأن العبد لله يشعر بقلق شديد على الدكتور كمال الجنزوري بعد أن غادَر مكتبه للمرة الأولى في حياته منذ أن الْتَحق بخدمة الحكومة موظَّفًا على الدرجة الخامسة بالتخطيط، وخلال حياته كلها لم تكن له شلة. ولم يعرف الطريق إلى القعدات الطرية، وليس له هواية في الحياة إلا قراءة الملفَّات وتذوُّق نوع السمك المقلي الذي يحبه، وأقول تَذوُّق ولا أقول التهام. فلم يكن الطعام من بين هواياته، مع خطف سِنَة من النوم ... قصيرة وخاطفة وهو على مائدة الطعام. لعل لسان حاله الآن يتطابق مع لسان حال مرشَّح الرئاسة الأمريكي السيناتور بوب دول، حين وقف يصرخ أمام عشرات الألوف من أنصاره عَشية فشله في انتخابات الرئاسة قائلًا:

«لأول مرة في حياتي أجد نفسي بدون شيء أفعله.» وهي محنة بالنسبة لكل مسئول عندما يغرق في العمل فيُهمِل حياته الاجتماعية تمامًا، ثم يستيقظ ذات صباح ليكتشف أنه «بدون شيء يفعله.»

من ناحية أخرى فنحن أيضًا مَدينون بالشكر للوزير الدكتور أحمد جويلي، الرجل الذي رفع شعار الطهارة والشفافية في كل موقع من المواقع التي شغلها، محافظًا لدمياط، ثم محافظًا للإسماعيلية، ثم وزيرًا للتموين. وإذا كان من واجب غيري أن يشكره، فمن واجب العبد لله أن يفعل ما هو أكثر من الشكر؛ لأنه قبل هذا وبعد هذا هو لسان حال دائرة العبد الله في مجلس الشعب. ولعلَّه الوزير الوحيد الذي نجح في انتخابات الجيزة ولم يقطع الصلة بأبناء الدائرة فهو مُثابِر على أداء صلاة الجمعة في مساجدها، وهو حريص على تقديم واجب العزاء في موتاهم، وعقد الجلسات لحل مشاكلهم.

ويجب تقديم شكرنا أيضًا للوزير المهندس ماهر أباظة، نموذج مُشرِّف للعمل الطيب الطاهر. وقد نجح في إشاعة النور في كل أنحاء مصر بفضل المشروعات الكهربائية التي نفَّذها، وأشرف عليها، وأنفق في سبيلها عشرات المليارات. دون أن يجرؤ أحد من هواة اللَّت والعَجن على أن يهمس باسمه في حدوتة من حواديت الفساد. والسبب أن شعبنا الطيب بطبيعته يستطيع أن يفرق بين الفاسد والشريف. وبين المسئول الذي يحب مصر والآخر الذي يحب الفلوس، تحية للوزير المهندس ماهر أباظة، نموذج يُحتذى وقدوة حسنة للأجيال الجديدة من الوزراء.

وإذا كنا قد تعرضنا للوزراء الذين تركوا مناصبهم، فلا بأس من التعرض لبعض الذين جاء بهم التغيير الوزاري. على رأس هؤلاء الدكتور عَلِي الدين هلال، وهو نموذج

جيد للكادر المثقَّف الواعي الملتزم بقضايا أمته، وفي اعتقادي أن مجال الشباب كان شديد الحاجة إلى هذا الطراز من السياسيين المثقَّفين من جيل الوسط.

هناك أيضًا الوزير سامح سمير فهمي، وكان العبد لله يعرف والده يرحمه الله ... ولكنني لم أتشرَّف بمعرفة الوزير الشاب. ولذلك استفسرتُ عنه، وسألتُ أساتذة صناعة البترول المصري، الوزير السابق علي والي، والمهندس عبد الحميد أبو بكر، وقد اتفق الاثنان على أنه نموذج جيِّد للغاية، كما اتَّفقَا على أنه بالرغم من شبابه إلا أنه يُعتَبر خبير بترول بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف. مع رجاء من العبد لله بأن يتخلَّى الوزير الجديد عن الأسلوب الذي كان متبعًا في عهد الوزير السابق، وهو الإعلان كل صباح عن كشف بترولي جديد، حتى تصوَّر الناس في بلدنا أن حجم البترول المصري صار في حجم بترول السعودية والكويت معًا. وأن يكتفي الوزير الجديد بذكر الحقائق فقط، حتى يدرك شعبنا الطيب أين نحن بالضبط، وما هو حجمنا بالضبط وسط حقل البترول العالمي.

هناك أيضًا بين كتيبة الوزراء الجدد اللواء مصطفى عبد القادر محافظ المنيا، ومصطفى عبد القادر على علاقة وثيقة بالإعلام، على أساس أن والده يرحمه الله كان زميلًا من زملاء المهنة، وكان يعمل معلقًا سياسيًّا للإذاعة المصرية خلال حقبتي الخمسينيات والستينيات. وفي اعتقاد العبد لله أن اللواء مصطفى عبد القادر الذي تَمرَّس في العمل السياسي والتنفيذي لديه ما يقدمه لخدمة مصر من خلال منصبه الجديد.

على كل حال شكرًا لحكومة الدكتور الجنزوري على إطلاقها، شكرًا لها على إنجازاتها، وشكرًا لها على أخطائها أيضًا، فالأعمال الكبرى فقط هي التي تَتعرَّض لصنوف من الخطأ وألوان من الصواب. ودعاء من القلب للدكتور عاطف عبيد بالتوفيق في المهمة الملقاة على عاتقه. ومرحبًا بجميع الوزراء الجدد الذين نعرفهم والذين لم نتشرَّف بمعرفتهم، ولا أقصد معرفتهم معرفة شخصية، ولكني أقصد التعرف عليهم من خلال الممارَسة الصحيحة في خدمة بلادهم وشعبهم، وإن كنتُ أشفق عليهم وعلى كل من يتولى منصب الوزارة في فترة التحولات الكبرى. ولكن الأمر المَطمئِن أننا عَبَرنا معظم الحواجز التي كانت تعترض الطريق، عَبَرناها برجال أمناء مثل الجنزوري، وعاطف صدقي، وكل من اشترك معهما في تمهيد ولو شبر واحد من الطريق.

أرجوكم ... فضوها سيرة!

حضرات المحترَمين من النواب الذين انتهزوا فرصة غياب الدكتور كمال الجنزوري من على مسرح الأحداث، وشمَّروا عن سواعدهم وهات يا تقطيع في لحمه، مع أنهم يعلمون أن الجنزوري أصبح رئيس وزراء سابقًا ... أي إنه صار جزءًا من التاريخ. في الوقت الذي تدور فيه على مسرح الأحداث ممارَسات خاطئة لمسئولين يتربعون على المناصب، وتنشر الصحف اتهامات لهم لو صحَّت لوجب بَتْرُهم على الفور، ومع ذلك لا حس ولا خبر للسادة المحترمين من النواب، وكأنهم اكتفوا بدورهم كفتوات للمقابر وفرسان للجبانات.

أقول قولي هذا وعيناي تلتهمان سطور حديث منشور على صفحات جريدة حزبية هي جريدة «الحقيقة» من صحف حزب الأحرار، الحديث لرجل كان مسئولًا حتى الأمس القريب وهو السيد سمير الشقنقيري نائب رئيس هيئة السلع التموينية والذي استقال من منصبه أخيرًا بعد أن دبَّ الخلاف بينه وبين وزير التموين المستجد الدكتور حسن خضر، ولكن ... ماذا يقول سمير الشقنقيري؟

يقول بالحرف الواحد: «ليس صحيحًا أنني تَقدَّمت باستقالتي بعد إعلانه لوجود مخالَفات في صفقة مُعيَّنة؛ لأن تاريخ الاستقالة التي تقدمتُ بها كانت بتاريخ ٢٦/١/٢٠٠٠م ولكنه عرض أن أبقى بجانبه في منصب مستشار، ولكنني رفضتُ فشعر بالإهانة؛ لأن رفضي كان يعني أنني أرفض العمل معه وأرفض السياسة التي يتبعها والتي يريد مني تغيير نظام شراء صفقات القمح التي وافق عليها جميع الوزراء السابقين. كما أثنى عليها خبراء أمريكا وفرنسا. وكان هذا هو جوهر الخلاف ... لقد رفضتُ الأفكار الغريبة التي طرحها والتي تؤكد عدم درايته، بعد أن تلقَّى عرضًا لأحد مُستورِدي القمح وصاحب شركة خاصة بأن تقوم الشركة المذكورة باستيراد ما تحتاجه الوزارة من القمح تسليم الموانئ المصرية بدلًا من تَسلُّمه في الخارج، إلا أنني رأيتُ أن

هذا العرض يضع الوزارة في موقف الشُّبهات كما أنه يفتح باب الرشاوى والعمولات، بالإضافة إلى أن قبول هذا العرض سيرفع سعر القمح مما يُؤثِّر على سعر رغيف العيش.» وعقد الشقنقيري مقارَنة بين الوزير المستجد حسن خضر والوزير السابق أحمد الجويلي. وقال الرجل بالحرف الواحد: «عيب أن نضع الدكتور جويلي موضع مقارنة مع الوزير الحالي حسن خضر؛ لأن شتَّان الفارق بين رجل عالِم يرفض التدخُّل في اختصاصات من يعملون معه رغم أنه يعلم كل كبيرة وصغيرة عن كل من حوله في العمل، ورجل آخر يسعى للتخلُّص من جميع الكفاءات وذوي الخبرة في الوزارة؛ لأن شبح الوزير السابق يطارده في كل مكان، حيث ساعد ذلك على ظهور الأزمات الواحدة تلو الأخرى والتي كان آخرها أزمة البوتاجاز وكان لها أثرها الضار على المستهلك المصري.»

هذه هي الاتهامات التي وجَّهَها رجل مشهود له بالكفاءة والأمانة لرجل آخَر هو وزير التموين، وهي منشورة بالبنط العريض على صفحات جريدة حزبية. ومع ذلك لم يتحرك واحد من حضرات السادة المحترمين أعضاء مجلس الشعب ويتقدم بسؤال لاستطلاع الأمر ومعرفة الحقيقة، خصوصًا أن الخلاف بين الرجلين حول سلعة استراتيجية وهي القمح وأسلوب استيراده. ولكن يبدو أن حضرات السادة المحترمين من النواب يرون أن غاية مهمتهم ... فتح الدفاتر القديمة ومحاسبة السادة المسئولين السابقين؛ أمثال: الدكتور الجنزوري، وإسماعيل باشا صدقي، وأحمد باشا ماهر. أما محاسبة وزير التموين الحالي المتربع على كرسي الوزارة في الوقت الراهن على هيئة ... مسا التماسي يا ورد قاعد على الكراسي، فمعاذ الله من أن يجرؤ أحدهم على مَس طرفه. ويا خَفِي الألطاف نَجِّنَا مما نخاف، فمهمة النائب المحترم هي البحث في الملفات القديمة، والغوص في أعماق الممارَسات الخاطئة التي حدثت في عهد بني أمية مرورًا بعهد بني العباس، وقوفًا عند أخطاء الحاكم بأمر الله، والواثق بالله، ثم دولة الأيوبيين، ثم المماليك البحرية والبرجية، ثم العثمانيين، ثم محمد علي باشا الكبير، ولا بأس من البحث في دفاتر النحاس باشا وعلي ماهر باشا، ثم إلقاء نظرة على دوسيهات صدقي سليمان، وأخيرًا الدكتور كمال الجنزوري؛ لأن مهمة مجلس الشعب الحقيقية هي محاسبة المسئولين الذين انتقلوا إلى رحمة الله أو الذين انتقلوا من تحت الأضواء إلى الظل. أما المسئولون الحاليون فيَا ألف مرحب ويا ألف سهلا، وهذا الموقف ليس هروبًا من مواجهة الأقوياء ولكن هيروحوا فين من حضرات المحترمين من النواب. سيذهب هؤلاء المسئولون الحاليون في القازوزة يومًا ما، وعندئذٍ سيتم محاسبتهم وستفتح ملفاتهم.

ونعود الآن إلى الاتهامات الخطيرة التي وجَّهَها أحد النواب لرئيس الوزراء السابق الدكتور الجنزوري، قالوا إنه قام بإلغاء ديون السكة الحديد إرضاء لصديقه وزير النقل. طيب وفيها إيه دي؟

هل حصل الجنزوري على رشوة مقابل إسقاط هذا الدَّين؟ هل كان وزير النقل سيدفع هذه الديون من جيبه وإكرامًا لصديقه وزير النقل قام رئيس الوزراء بشطب هذه الديون؟! لم نجد نائبًا محترمًا يسأل عن قضية المحافظ ماهر الجندي وإلى أين مجراها ومرساها؟ بعد أن لفَّها الظلام والغموض ولم يبقَ منها إلا استمرار حبس الولد الغلبان المدعو محمد فودة الذي تعاوَن تعاونًا كاملًا مع جهات التحقيق. وأسأل حضرات المحترمين من السادة نواب الشعب. هل قرأ أحدكم حديث السيد الشقنقيري نائب رئيس هيئة السلع التموينية سابقًا، المنشور على الصفحة الثالثة من جريدة «الحقيقة» عدد ١٥ أبريل الحالي؟ وإذا كان لم يقرأه أحد منكم فالعبد لله يلفت نظركم إليه، وفيه اتهامات مُحدَّدة وخطيرة إلى السيد الوزير الحالي.

وأقول للسادة نواب الشعب ... إن الشعب قد سئم الاستماع إلى الأسطوانة المشروخة التي تتهم الجنزوري بالفساد وتتهمه بالديكتاتورية. والعبد لله كان على استعداد للتصفيق للنائب الذي يواجه الجنزوري بهذه الاتهامات وهو جالس على مقعده في رئاسة مجلس الوزراء، وكنتُ على استعداد لحمل هذا النائب على أكتافي والهتاف بحياته، ولكن ... يا ميت خسارة على اللي حب ولا طالشي.

حضرات المحترمين من النواب لا يهاجمون إلا السابقين ولا يبحثون إلا في الدفاتر القديمة، وأقول للوزير ابن البلد الشهم بلدياتي السيد كمال الشاذلي: ليس من الشهامة تسديد الفواتير القديمة بهذه الطريقة التي سئمها الناس. واستخدام مجلس الشعب في خلافات شخصية، لا يفيد مصر كما أنه يفقد مجلس الشعب مصداقيته. والحمد لله لأن مجلس الشعب على وشك المغيب، ونرجو أن يكون مجلس الشعب القادم مختلفًا تمام الاختلاف عن هذا المجلس الذي يوشك على الرحيل. نريد مجلسًا يحاسب الحكومة الموجودة حاليًّا وليس الحكومة السابقة. ويكشف مخالفات رئيس الوزراء الحالي وليس رئيس الوزراء الذي ترَك منصبه. نريد مجلس شعب يسأل ويستجوب في أمور تهم الناس وتمس حياتهم. نريد مجلسًا تخشاه الحكومة ولا نريد مجلسًا يخاف من الحكومة ويرتعد منها، مجلسًا يشفي غليل الناس، ولا يشفي غليل السيد كمال الشاذلي فقط، خصوصًا والدنيا غدَّارة ويوم فوق ويوم تحت، وهي لا تَدعُ الراكب راكبًا ولا تدع الماشي ماشيًا،

وتاريخنا الحديث حافِل بالعظات والعبر، وكل ما أرجوه أن نطوي صفحة الماضي، وأن نتفرغ للحاضر، وننظر للمستقبل فالدنيا تجري من حولنا والعالم يتغير. بينما نحن ما زلنا مشغولين بالأخطاء التي ارتكبها الجنزوري، والمخالَفات التي وقع فيها الوزير طلعت حماد. إذا كانت هناك مخالَفات تمس أمن الوطن فحاكِموا الذين ارتكبوها وضعوهم خلف جدران السجون لننتهي منها مرة واحدة وإلى الأبد. وإذا كانت المخالَفات من نوع شطب ديون هيئة السكة الحديد، ومضاعفة ميزانية تجديد مقر رئاسة الوزارة، فنصيحة العبد لله لكم أن تفضوها سيرة لنتفرغ لما هو أهم. هذا هو الطريق السليم، ونسأل الله التوفيق لنا ولكم ... حكومة ومعارضة، حكامًا ومحكومين، نوابًا وناخبين، والله من وراء القصد.

المحترمون ... من النواب!

أثار مقال العبد الله في الأسبوع الماضي عدة ردود أفعال. اتصل بالعبد لله الصديق الوزير بلدياتي كمال الشاذلي، مع أنه لم يتصل بالعبد لله منذ خروج الجنزوري من الوزارة، ولم نلتقِ في أي مكان منذ ذلك الحين وحتى الآن، وكمال الشاذلي سياسي جماهيري عملي يُجيد الحديث ولديه قدرة على الحوار. وعلى مدى ساعة كاملة راح يُعاتبني على الإشارة التي وردَتْ في مقالي عن دوره فيما جاء على لسان بعض النواب الذين تَناوَلوا ما أسموه بالمخالفات التي ارتكبتها وزارة الجنزوري، ومن بينها أشياء مُضحكة مثل إعفاء الجنزوري لهيئة السكة الحديد من ديونها مُجاملةً لصديقه وزير المواصلات. وقال الوزير كمال الشاذلي: لقد اتَّهمتَني بما أنا بريء منه. لأنني لست ساذجًا إلى حدٍّ توجيه مثل هذه التُّهم، وموقفي الحقيقي من هذا الموضوع تشهد به مضابط مجلس الشعب. وأنت تعلم أن الدكتور الجنزوري بلدياتي، ومنزله في القرية يقع على مرمى حجر من منزلي في الباجور، كما أنه كان زميل دراسة في المرحلة الابتدائية، ولا شك أنك تعرف أيضًا أنني برلماني قديم وأومن بأن مهمة المجالس النيابية هي مناقشة الحاضر وليس البحث في الدفاتر القديمة، وإيماني هذا جعلني أرفض علنًا أغلب المحاولات التي قام بها بعض أعضاء المجلس للكشف عن بعض الأخطاء التي وقعت في عهد وزارة الدكتور الجنزوري، وهذا هو موقفي الحقيقي وتستطيع أن تتأكد من صدق كلامي لو سألت الدكتور يوسف والي وهو صديقك، وكان بوسعك أن تتأكد من الحقيقة لو سألتني عن حقيقة موقفي من هذا الموضوع، ولكنك لم تُكلِّف نفسك عناء الاتصال بي تليفونيًّا قبل كتابة مقالك، وهكذا ترى أنك ظلمتني واتهمتني بدون وجه حق.

قلتُ للوزير كمال الشاذلي: قد أكون ظلمتُك ولكنني مظلوم أنا الآخر، فكل ما يدور تحت قبة المجلس لا يمكن أن يدور بعيدًا عنك أو من وراء ظهرك. هذه هي فكرتي عن المجلس وعنك وهي فكرة أغلب الناس أيضًا.

قال كمال الشاذلي: وما دخلي بظنونك أو أوهامك؟

قلتُ: صدقني إنها ليست أوهامي وحدي ولكنها أوهام الأغلبية، وإذا كانت مجرَّد أوهام — كما تقول — فهذا قدَرُك ولا حيلة لك في هذا، ولا مَفرَّ من تَحمُّل المسئولية.

وإذا كنتُ قد ظلمتُ كمال الشاذلي فقد ظلمني النائب الشاب دكتور أيمن نور زميلي في المهنة، عندما اتهمني بأنني هاجمتُ المجلس كله وأغفلْتُ دور المعارضة التي لم تشارك في عملية محاسبة الماضي وفتح الدفاتر القديمة. ولا أعتقد أن دكتور أيمن نور يتصور أن العبد لله أهبل وبريالة حتى أتهم المعارضين الذين هم بالرغم من ضعفهم وقلة حيلتهم وهوانهم على الأغلبية الكاسحة للحزب الوطني أدَّوْا واجبهم وقدَّموا الاستجوابات وطلبات الإحاطة، ومئات الأسئلة عن الممارَسات الخاطئة في عمل الحكومة الحالية — أية حكومة حالية — دون الوقوف عند أخطاء الحكومة السابقة — أية حكومة سابقة — وهل أنسى استجواب النائب أيمن نور لوزير الصحة الدكتور إسماعيل سلام؟ هل أنسى وقفة البدري فرغلي في مواجهة وزير الاقتصاد؟ هل أنسى ما حدث لاستجوابك لوزير الاقتصاد الذي تم إجهاضه عندما غاب الوزير عن الجلسة؟ ولكن هكذا هي اللعبة الديمقراطية، وإذا كان حُكم المحكمة هو عنوان الحقيقة، فما تقره الأغلبية هو القول الفصل وعلى الجميع الخضوع لرأي الأغلبية، وقد دافع دكتور أيمن نور عن موقف (بلدياتي) الوزير كمال الشاذلي، وشهد له بأنه كان هدفًا لانتقاد المعارضة بسبب تصديه للانتقادات التي كنا نوجهها لحكومة الجنزوري في وجودها وبعد خروجها من السلطة، والعبد لله لا يستطيع أن يجاري دكتور أيمن نور ... لأن الفضل ما شهدَتْ به المعارَضة. وهكذا ترى يا دكتور أيمن أنك ظلمتَ العبد لله؛ لأنني لم أقصد إلا نواب الحزب الوطني الذين تفرغ بعضهم في الفترة الأخيرة لنقد تصرفات حكومة الجنزوري وتَعقُّب أقطابها، مع أنني لو كنت عضوًا بالمجلس لنذرتُ نفسي لتحقيق هدف واحد هو سحب الثقة من وزير التموين؛ لأن المصلحة العامة تقضي بإبعاد الرجل عن وزارة التموين وبأقصى سرعة لأن وجوده بالوزارة بالرغم من عدم درايته سيسبب لمصر مشاكل كثيرة. ولو كنتُ عضوًا بالمجلس لتفرَّغتُ لمحاسبة وزير الاقتصاد، الذي نسب البعض فشل حكومة الجنزوري إلى عدم استماع الجنزوري إلى نصائحه، وعدم تطبيق نظرياته. طيب الجنزوري راح، وحكومة الجنزوري سقطت،

وسيادة وزير الاقتصاد يقف وحده على المسرح، وأنت الوحيد وكلهم ركش خصوصًا في مجال الاقتصاد، ومع ذلك فالحال أصبح أسوأ من أيام الجنزوري، والسوق في انكماش ووقف الحال هو سيد الموقف. فأين نظرياتك يا دكتور؟ وأين نصائحك يا عالم الاقتصاد ويا خبير سوق المال؟ وأريد أن أهمس في أذن الدكتور عاطف عبيد رئيس الوزراء بأن مصلحة الوزارة ومصلحة مصر تحتم عليه ضرورة الإسراع في التخلص من وزير التموين الحالي، خصوصًا بعد أن خرب الوزارة وقعد على تلها، ولأن وظيفة هذه الوزارة هي طعام المصريين وخبزهم، ولا يصلح لهذه الوزارة وزراء هواة أو وزراء كل طموحهم ينحصر في نشر صورهم على صفحات الجرائد اليومية والظهور أحيانًا على شاشات التليفزيون. ويمكن استيعاب هذا النوع من الوزراء في مسرح التليفزيون أو في حفلات مارينا الصيفية. وأقول للسادة المحترمين من نواب مصر ... أنتم ألسنة الحق وحرام استخدامها في مَعارك شخصية، ويمكنكم وضع مصر على الطريق الصحيح إذا كانت مصر هي همكم الأول وإن كان سلوك المجلس في السنوات القليلة الماضية لا ينفي وجود نواب يستحقون الاحترام بالفعل سلوكًا وأداء.

ويقترح العبد لله على السيد صفوت الشريف وزير الإعلام تخصيص قناة لمجلس الشعب لعرض الجلسات مباشرة على شعب مصر وعدم اختصارها أو تقطيعها أو اختيار لقطات منها تخضع لمزاج الرقيب والتعليمات التي عنده، وليصدقني وزير الإعلام إذا قلت له إن هذه القناة ستكون الإضافة الحقيقية التي تربط الناس بجهاز الإعلام المصري؛ لأنها ستكون خطوة غير مسبوقة في العالم العربي، كما ستكون دليلًا جديدًا على أننا بلغنا مرحلة الرشد وأننا ليس لدينا شيء نخفيه. وعلى العموم وداعًا لمجلس الشعب الحالي ومرحبًا بالمجلس الجديد، وأرجو أن تتسع مقاعده لعدد أكبر من النواب المعارضين ولنماذج جديدة من البرلمانيين الحقيقيين الذين يثرون حياتنا السياسية، ومصر والحمد لله غنية بهذا النوع من الرجال!

لكشة

كلما رأيت وجه الممثل محمود قابيل على شاشة التليفزيون أسرعتُ بقراءة الفاتحة على روح الفنان صلاح قابيل، إيه المناسبة؟ لست أدري!

دعوة للاحتفال بهزيمة

في الوقت الذي مر فيه يوم ٥ يونيو بهدوء، فلا حس ولا خبر ولا إشارة ولا تعليق ولا احتفال من أي نوع، كانت بريطانيا وفرنسا تحتفلان بذكرى هزيمة دنكرك، وكان الاحتفال مهيبًا، شارك فيه ولي عهد بريطانيا، وقادة الجيوش في الدولتين، وحضره عدد كبير من الذين حضروا الهزيمة وشاركوا فيها، بعضهم جاء على مقاعد متحرِّكة، وبعضهم جاء بالزِّي العسكري، وبعضهم جاء بملابسه المدنية محتفظًا بنياشينه وأوسمته العسكرية، والجميع قاموا بزيارة المقابر التي تضم رفات الجنود والضباط الذين سقطوا في معركة دنكرك.

وفي رأي العبد لله أن الاحتفال بالهزيمة أجدى من الاحتفال بالنصر؛ لأن الهزيمة فيها عظات وعِبَر، وفيها دروس مُستفادة، وهزيمة يونيو لم تكن حادثة عابرة في طريقنا، ولكنها كانت أسوأ هزيمة في تاريخنا الحديث كله، لا تساويها إلا هزيمة محمد علي عندما أغرقوا أسطوله في نافارين، وكسَروا ظهر جيشه البري القوي الذي زحف على القسطنطينية ودق أبوابها بشجاعة، ونجحوا في تحويل الجيش القوي إلى فلول ضاعت في بر الشام كله من الموصل إلى غزة، ولا أعرف سببًا واحدًا يَحُول بيننا وبين الاحتفال بذكرى هزيمة ٥ يونيو ... هل نخجل منها؟ وهل يوجد للخجل مكان في تاريخ الأوطان؟ إن هزيمة دنكرك أفدح ألف مرة من هزيمة ٥ يونيو، والجهة التي تجرعت الهزيمة فيها لم تكن دولة نامية، ولكن إمبراطوريتان كبيرتان، فرنسا كان لها مستعمرات مترامية الأطراف في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وبريطانيا التي كانت وقتئذٍ لا تغيب الشمس عنها، ٣٠٠ ألف جندي بريطاني و١٧٠ ألف جندي فرنسي، اضطروا جميعًا إلى خلع ملابسهم وفَرُّوا بأرواحهم وبالفانلة واللباس وعَبَروا بحر المانش في مراكب صيد وبعضهم

في مراكب شحن وجُزء كبير منهم في زوارق صغيرة يملكها هواة، وعدد منهم فضل عبور البحر سباحة، ذهب عدد منهم طعامًا للأسماك.

حوالي نصف مليون جندي مدرَّبون أفضل تدريب، ومُسلَّحون بأحدث الأسلحة، تَحوَّلوا في لحظة واحدة إلى شلة أطفال مذعورين، وكان بوسع الجيش الألماني إبادتهم جميعًا لولا خاطر في نفس هتلر كان يُلِح عليه، أن ينجح في عقد حلف مع بريطانيا ليزحفَا معًا على الاتحاد السوفييتي، ليذبحوا الشيطان الشيوعي من الوريد إلى الوريد.

وقد تَعزَّز هذا الخاطر الساذج في نَفْس هتلر بإرساله نائبه «هيس» في طائرة خاصة قَفَز منها على الأرض البريطانية وطلب مقابلة تشرشل، ولكن الداهية البريطاني رفض مقابلته وأمر بإيداعه السجن، وبقي في السجن البريطاني حتى تم نقله بعد الحرب إلى محكمة نورمبرج التي حاكَمت مُجرِمي الحرب الألمان.

والغريب في الاحتفال بهزيمة دنكرك أن بعض الصيادين الذين اشتركوا في إنقاذ الجنود الهاربين حضروا الاحتفال، وبعض سكان القرى المنتشرة على جانبي بحر المانش في إنجلترا وفرنسا، والذين عاوَنوا في إخفاء العساكر الشاردين حضروا الاحتفال أيضًا، بعضهم جاوز التسعين من العمر وبينهم نساء وشيوخ كانوا أطفالًا وقت وقوع الكارثة.

وأسأل الحكومة الآن: لماذا لم نحتفل بهزيمة ٥ يونيو؟ على الأقل ليعرف الشعب الأسباب الحقيقية التي أدَّت إلى الهزيمة، ولماذا اهتزت أعصاب القيادة العسكرية؟ فتصرَّفَت برعونة وعالجت الأمر بغباء؟ ولماذا وقف الجيش المصري في العراء تحت شمس سيناء فترة طويلة دون أن يعرف شيئًا عن طبيعة خطوته التالية؟ ... ولماذا جثمت الطائرات على الأرض في المطارات مكشوفة وعارية؟ ... ولماذا أنزل الطيارون طائراتهم وذهبوا للإفطار في العاشرة صباحًا استنادًا إلى نظرية قديمة تزعم بأن العدو لا يهاجم إلا مع الخيوط الأولى للفجر؟ ولماذا تم الانسحاب بهذه الطريقة التي هي مزيج من الفوضى والسبهللة، وهل هذا التَّصُّرف هو مسئولية القيادة العامة أم القيادات الوسيطة والقيادات الميدانية، ما كان أحوجَنا إلى إقامة مثل هذا الاحتفال في هذا الوقت بالذات، خصوصًا وبعض كبار القادة لا يزالون أحياء بيننا، وهناك آخَرُون غيرهم كنا نحب الاستماع إليهم، بعض الذين سقطوا في الأسْر وعانوا أهواله، وبعض الذين هربوا في الصحراء وأشرفوا على الموت جوعًا وعطشًا، وبعض أعراب سيناء الذين مدوا يد الغوث للهاربين ودبَّروا لهم الغذاء والمأوى، وعندما انقطع القلب وتوقَّف البحث عنهم صحبوهم إلى شاطئ القناة؛ حيث عَبَروها إلى بيوتهم.

وبالرغم من مرور سنوات طويلة على هزيمة يونيو فالعبد لله يرى أن على رأس واجباتنا تكريم هؤلاء الأعراب الأبطال ومنحهم ما يستحقون من أوسمة ونياشين تقديرًا لبطولاتهم، خصوصًا بعد أن تولَّت أجهزة العدو بعد الهزيمة نَشْر الشائعات والدَّس بين أعراب سيناء وشعب مصر لحاجة في نفس جولدا مائير.

والعبد لله يعرف أحد هؤلاء الذين هاموا في الصحراء حتى صادَف بعض الأعراب، فأخذوه وأخْفَوه وأكرموه عدة أسابيع متصلة، ثم تحمَّلوا الصعب عندما اصْطَحبُوه وعَبَروا به قناة السويس ولم يتركوه إلا في بيته وبين أهله، إنه الكابتن ميمي درويش كابتن النادي الإسماعيلي في عصره الذهبي، وكان أحد ضباط الاحتياط في وقت الحرب.

وأرجو أن تحتفل جهة ما بذكرى الهزيمة في العام القادم، ففي الاحتفال بالهزيمة عظات وعِبَر ودروس مستفادة.

لكشة

لا أعرف لماذا كلما رأيت وجه الممثل أحمد عبد العزيز على شاشة التليفزيون تَذكَّرت الكابتن أحمد كشري بتاع كرة القدم؟ ما هي الصلة بين الاثنين؟ بالتأكيد ... هناك صلة!

عفوًا ... عمدة الأرض!

العبد لله لم يُدرِك السر في تسمية الحكومة الأمريكية بالإدارة الأمريكية إلى اليوم ... والسبب الذي قادني إلى اكتشاف السر هو التقرير الأمريكي الذي صدر بعد التحقيقات المطوَّلة عن السر وراء سقوط الطائرة المصرية في المحيط الأطلنطي قُبالة سواحل نيويورك. التقرير يقول إن مساعد الطيار البطوطي انتحر ونحر معه جميع الركاب ... طيب ... ومساعد الطيار الذي قرر الانتحار، لماذا لم يُؤمِّن على حياته لصالح الورثة خصوصًا وهو صاحب عائلة كبيرة؟ ولماذا اشترى قبل ركوب الطائرة علبة فياجرا؟ هل اشتراها لاستعمال السمك في أعماق المحيط؟

الشيء اللافت للنظر أن التقرير جاء مثل مياه الحنفية ... لا طعم ولا لون ولا رائحة ... ولكنه حاول إبعاد الشبهات عن شركة «بوينج» الأمريكية لأن ثبوت التهمة ضدها يكلفها الكثير، وقد يؤدي إلى انهيار الشركة، خصوصًا بعد أن تفوقت الشركة الأوربية «إيرباص» في المنافسة بينهما، وأصبحت موضع ثقة أغلب شركات الطيران العالمية، ثم ... طائرة البوينج التابعة للشركة الهندية والتي سقطت منذ أسابيع على منطقة سكنية، هل كان يقودها الطيار البطوطي؟ أم يوجد بطوطي آخر في الشركة الهندية؟ ثم ما هذا الغباء المطبق الذي جعل فريق التحقيق الأمريكي يصر على أن عبارة «توكلت على الله» هي دليل أكيد على نية قائلها على الانتحار؟ طيب ما رأي السادة المحققين الأمريكان أنني شخصيًّا هتفتُ بهذه العبارة وأنا أستعد لكتابة هذا المقال دون أن يكون لديَّ أدنى رغبة في الانتحار أو حتى الاعتكاف، ومائة ألف بائع سريح في القاهرة ومثلهم في كل عاصمة عربية يهتفون بالعبارة نفسها قبل أن يدفعوا بعربات اليد نحو الأسواق، وهكذا بفضل جهل السيد المحقق في حادث سقوط الطائرة البوينج في المحيط الأطلنطي أصبحت عبارة «توكلت على الله» هي فاتحة عمليات الانتحار، وبالتالي تكون عبارة «عشا الغلابة

عليك يا رب» هي صيحة الحرب، يطلقها الصناديد قبل البدء في دخول أم المعارك، أما عبارة «ياللي الهوا هزك يا مشمش» فهي كلمة السر لأعضاء تنظيم القاعدة، يرددها رجال بن لادن قبل الانطلاق لتدمير مقر وكالة المخابرات المركزية! ولكن لماذا تحمي الحكومة الأمريكية شركة «بوينج» مع أنها شركة خايبة وسقط من طائراتها عدد لا يستهان به؟ لأن الحكومة الأمريكية — كما قلت — هي في الواقع إدارة، شأنها شأن إدارة الريان، أو شركة السعد، أو شركة الأمن الغذائي بتاعة توفيق عبد الحي، وشركة بوينج واحدة من الشركات، والشركة للشركة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، لقد أثبت هذا التقرير الأمريكي الخاص بحادث سقوط الطائرة المصرية في المحيط، أن سلوك الإدارة الأمريكية الظالم والمنحاز ليس في المجال السياسي فقط ولكنه يمتد إلى مجال «البزنس» والأعمال، والفَرْق الوحيد أنه إذا شعرتْ دولة ما بالظلم من موقف الإدارة الأمريكية، جاز لها أن تشكو للأمم المتحدة أو لمجلس الأمن، ولكن الشركات المظلومة إذا شعرت بانحياز الموقف الأمريكي، فليس أمامها إلا أن تشرب من البحر، وإذا لم يعجبها عليها أن تشرب من المحيط، وتستطيع أن تفعل ذلك في المحيط الأطلنطي أو المحيط الهندي أيهما أقرب إليها. ولكن يبقى بعد ذلك وقبل ذلك سؤال يجب طرحه: ما العمل؟ وكيف يحصل ورثة ضحايا الطائرة على التعويض المناسب؟ العبد لله يعتقد أن السكك كلها مقطوعة، وأن تحقيق هذا الهدف للحصول على تعويض من الشركة الأمريكية هو أمر في حكم المستحيل، وليس أمام المتضررين إلا أن يهتفوا بعبارة «توكلنا على الله» ثم يقفزون في البحر!

أخيرًا ... اكتشفت الإدارة الأمريكية أن القوة عز، ولكن فرط القوة لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق الأمنيات، وها هي الإدارة الأمريكية أقوى قوة على ظهر الأرض، فشلتْ فشلًا ذريعًا في تحقيق السلام بين الفرقاء المُتصارعين في أيرلندا، مع أن المفاوضات جرَت تحت إشراف الإدارة الأمريكية وباسمها، ها هي العبوات الناسفة تعود إلى شوارع أيرلندا، ووصل بعضها إلى محطات المترو في لندن نفسها، وها هي المشكلة الفلسطينية تعود إلى نقطة البدء من جديد، لا سلام على الأرض المُقدَّسة ولا هدوء، مع أن الإدارة الأمريكية هي التي تولَّت عقد المؤتمرات وتولَّت إدارة المفاوضات، وقدَّمت بعض الحلول والمقترحات، ولكن لا شيء تحقق إلا الكلام ثم المزيد من الكلام، ولعل هذا الفشل هو سر الغضب الذي شاب سلوك الإدارة الأمريكية في الأسبوع الذي أعقب فشل مؤتمر «كامب ديفيد»، فأعلن الرئيس الأمريكي عن عزمه نقل السفارة الأمريكية إلى القُدس قبل نهاية هذا العام،

وامتدح الرئيس الأمريكي سلوك باراك رئيس وزراء إسرائيل في الوقت الذي انتقد فيه سلوك ياسر عرفات ... تَصوَّروا ... عمدة الكرة الأرضية يفشل في التوفيق بين عائلتين ضعيفتين في القرية التي يحكمها بفرمان إلهي، لو حدث هذا لعمدة بلدنا الشيخ برغوت لفقد عقله وخرج من هدومه وخد في وشه وانطلق ... بلاد تشيل وبلاد تحط، وربما انتهى أمره في عنبر بمستشفى الخانكة، صحيح ... فرط القوة قد يُؤدِّي إلى التدمير، ولكنه ليس بالضرورة يؤدي إلى تحقيق السلام.

بن لادن والحاج شكري!

الله يرحمه ويحسن إليه عمنا الحاج حامد شكري، كان رجلًا طيبًا وفي حاله، ويقال إن الحاج لم يغادر مصر على الإطلاق ولم يحج إلى بيت الله رغم اللقب الذي اشتهر به، ولكن الشيخ أحمد شتا شيخ جامع الفتح أفتى بأن الأعمال بالنيات، ومن أضمر النية في الحج فقد استحق اللقب، وهكذا صار عمي حامد شكري حاجًّا بالنية، وإن لم يكن حاجًّا بالفعل! وكان من عادته السعي بالصلح بين الناس، والانحياز إلى جانب الضعفاء والمظلومين، كان يتدخل أحيانًا لنصرة خادم اضطهده الأثرياء الذين يعمل في خدمتهم، ويتدخل أحيانًا لنجدة رجل طيب اعتدى عليه بعض الصياع في الشارع، وكان الجميع يحبون الحاج شكري ويُثنون على سلوكه، إلى أن جاء يوم لجأ إلى الحاج شكري ولد صايع اسمه علي الجنايني كان يخدم متطوعًا لدى بعض فتوات الجيزة، يومًا عند الفتوة مرعي، ويومًا عند الفتوة مصطفى لطفي، وذات مساء تطاول الجنايني على مصطفى لطفي ورفع السلاح الأبيض في وجهه، ولم يكن الفتوة مصطفى لطفي من النوع الذي يغفر أو يعذر، خصوصًا إذا كانت الإساءة من صايع هلفوت مثل شكري؛ ولذلك قبض لطفي على الجنايني وعينك ما تشوف إلا النور، وجرجره من قفاه وحبسه في عشة كان يستعملها الفتوة في مثل هذه المناسبات، وذهب الفتوة لطفي إلى الفتوة مرعي يعاتبه لأنه حرَّض «ولد صايع» مثل الجنايني على ضربه، ودليل الفتوة لطفي هو اعتراف الولد الجنايني نفسه، ونفى المعلم مرعي هذا الاتهام، ووصف الولد الجنايني بأنه مُدَّعٍ وكذاب، وعندما أبدى استعداده لمواجهة الجنايني، اصطحبه مصطفى لطفي للعشة المحبوس فيها الجنايني ليتحقق المثل القائل ... آدي الجمل وآدي الجمَّال ... ولكنهُمَا اكتشفَا لحظة الوصول إلى العشة أن الولد الجنايني تمكَّن من الهرب، ثم شاع الخبر بعد يوم واحد أن الجنايني لجأ إلى الحاج شكري الشهم الذي لا يتردَّد عن إغاثة الملهوف ونجده المظلوم،

وكان ذلك اليوم هو آخر عهد الحاج شكري بالشهامة والمروءة، فقد اقتحم منزله الفتوة مرعي وضرب الولد الجنايني علقة موت؛ لأنه أفشى سره للفتوة لطفي، وعندما احتج الحاج شكري ناله من الحب جانب، انكسرت ذراعه وأصيب بعاهة في قدمه، أما الولد الجنايني فقد فرَّ هاربًا من الجيزة، ولم يعرف أحد مكانه حتى الآن.

أذكر هذه القصة الآن بعد مرور ٥٠ عامًا على وقوعها بمناسبة الأخبار التي تناثرت هنا وهناك، حول محاولات لاستقبال أسامة بن لادن لمحاكمته في مصر، صحيح أنها أخبار صحفية وليست رسمية، ولكنهم يقولون في الأمثال ... مفيش دخان بدون نار ... ولذلك أتساءل ... ما لنا نحن ومال أسامة بن لادن؟ أولًا: أسامة ليس مصريًّا، وثانيًا: أسامة لم يتعرض لمصالح مصرية أو لأشخاص مصريين، ومعركة أسامة بن لادن مع الولايات المتحدة، ولذلك ... فالوضع الطبيعي إذا كانت هناك محاكمة لا بُدَّ أن تكون في ولاية نيويورك أو في العاصمة واشنطن. والعبد لله يعتقد أن حكومة أمريكا لن تجرؤ على إجراء مثل هذه المحاكمة، وأغلب الظن أن المخابرات الأمريكية ستعمل على قَتْل أسامة خارج حدودها، لكي يضيع دمه بين القبائل.

أذكر أن حكومة مصر وقفتْ موقفًا «شهمًا» ذات يوم أيام المرحوم أنور السادات فاستقبلَت شاه إيران المطرود بعد أن رفضت أمريكا استقباله في أراضيها كما رفضتْ علاجه في مستشفياتها، وبعد موته نظَّم له الرئيس السادات جنازة فخيمة بعربة مدفع بينما فرقة موسيقات الجيش تعزف في المقدمة ألحانًا جنائزية، والرئيس السادات نفسه على رأس جموع المشيعين بالملابس العسكرية وفي يده «إيد الهون» الذي كان يمسك به السادات في يده تشبهًا بفراعنة مصر في الأسرة الرابعة، هذا الموقف الشهم هو في حقيقته خطأ شنيع لعدة أسباب؛ أولا: لأن مصلحة الدولة يجب أن تكون فوق كل مصلحة، ولم يكن من مصلحة مصر الدولة استقبال حاكم مطرود بعد ثورة شعبية دامية، ولم يكن من الحكمة تحدِّي النظام الجديد في طهران الذي أعدم كل رموز النظام القديم في إيران، وثانيًا: لأن شاه إيران شخصيًّا لم يكن صديقًا لمصر أو للعرب في أي وقت، وفي ذروة الصراع العربي الإسرائيلي كان الشاه الصديق المخلص لإسرائيل، فتح لها أبواب إيران، وأمَدَّها بالبترول الذي تحتاج إليه وبأسعار أقل من أسعار السوق، ولعب دور البلطجي في منطقة الخليج، وعند أي خلاف مع دول المنطقة كان يُهدِّد دولها بالحرب ويسارع بالمناورات البحرية، وكان يتعمَّد انتهاك المياه الإقليمية بالبوارج والقوارب المسلحة، ولم تكسب مصر من وراء هذه الحركة القرعة إلا بعض تصريحات الثناء على موقف حكومة

مصر من بعض صغار المسئولين الأمريكان، بينما ساءت العلاقات بين القاهرة وطهران في ذلك الوقت، ولا تزال يشوبها بعض الفتور حتى الآن.

وسلوك حسني مبارك يؤكد أنه لن يسمح بإجراء محاكمة لأسامة بن لادن أو غيره على أرض مصر، وهو الذي يضع مصلحة الدولة فوق أي مصلحة، ولكن التزام الحكومة المصرية الصمت إزاء هذه الأخبار التي نُشِرت في الصحف المصرية وأذاعتها بعض الفضائيات العربية، هو عمل غير طيِّب، وكان يجب أن يسارع وزير الخارجية عمرو موسى إلى تكذيب هذه الأنباء، أو وزير الإعلام صفوت الشريف، وحتى يكون موقف مصر الرسمي واضحًا للجميع، وحتى يعلم الجميع أن مصر لا تُفرِّط في الحق، ولا تجامل على حساب مصلحة الدولة.

وبعدُ ... فالعبد لله يرجو أن تستجيب إيران للدعوة التي وجَّهَها الشيخ خليفة بن زايد لحل مشكلة الجُزر العربية المحتلَّة بالطُّرق السلمية وعن طريق الأمم المتحدة، وحتى تنتهي الغمة التي تُخيِّم على العلاقات الإيرانية - العربية؛ لأن الوضع الطبيعي أن تسود العلاقات الطيبة بين إيران والعرب؛ لأنه الطريق الوحيد لتحقيق مصلحة العرب ومصلحة إيران، في الوقت نفسه، أما توتُّر العلاقات أو فتورها فهو لا يفيد أحدًا إلا أعداء العرب وإسرائيل على وجه الخصوص، وشكرًا للأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد السعودي الذي مدَّ جسرًا بمبادرته التاريخية للتقارب العربي-الإيراني، ورحم الله الحاج شكري الذي دفع ثمن شهامته ذات يوم منذ أكثر من نصف قرن!

الكورة والتصريحات الخنفشارية!

لا أعرف لماذا أرعش جميع المسئولين عن الكورة في بَر مصر حواجبهم بعد ظهور نتائج قرعة تصفيات أفريقيا في كأس العالم، صحيح أن القرعة أوقعَتْنا في شر أعمالنا، وحشرتنا القرعة وسط منتخبات المغرب والجزائر والسنغال، وهذا يعني أن فُرص وصول منتخبنا إلى نهائيات كأس العالم أصبحتْ صعبة ولكنها ليست مستحيلة ... ثم ماذا كان ينتظر السادة كهنة الكورة في بلدنا؟ أن يكون بين جهاز القرعة موظف بلدياتنا يحفظ العيش والملح، ويحشر فريقنا في قائمة تضم منتخبات رواندا وبوروندي ومالاوي وجزيرة بدران؟! وهل توجد بالفعل مجموعات كروية ضمن فعاليات كأس العالم، تضم منتخبات من هذا النوع؟ إن أحسن ما قيل تعليقًا على نتائج قرعة تصفيات كأس العالم، هو التعليق الذي جاء على لسان المدير الفني لمنتخب المغرب، قال الرجل ... «إن مجموعتنا تضم منتخبات من الوزن الثقيل، ومهمة وصولنا إلى ملاعب كأس العالم أصبحَتْ صعبة جدًّا، ولكنها ليست مستحيلة»، ثم اختتم تصريحه قائلًا: «عمومًا ليس في تصفيات كأس العالم منتخبات ضعيفة وأخرى لقمة سائغة» ... وهو قول حق أكَّدَته تصفيات دول أمريكا اللاتينية حيث تعادلت البرازيل بجلالة قدرها مع كولومبيا، وفازت على أرضها ووسط جمهورها على الأكوادور بنتيجة لا تليق بالبرازيل ملكة الكورة في العالم، ٣ أهداف مقابل هدفين!

وإذا نظرنا خَلْفنا في غضب أو في عبط على تصفيات منتخبنا في كأس العالم السابقة، سنكتشف أن المنتخب الذي كان السبب المباشر في إبعادنا عن ملاعب كأس العالم، هو أضعف منتخب في مجموعتنا، وهو منتخب ليبيريا، وهو الأمر الذي يثبت أنه لا يوجد في تصفيات كأس العالم فريق قوي وفريق ضعيف، وكل المجموعات في كل القارات صعبة ولسان حال كل المنتخبات «عليَّ وعلى المنافسين يا رب».

ثم ... ما هو فضل الجهاز الفني؟ وما هو فضل حضرات كباتن الكورة تبعنا؟ إذا كنا سنخوض تصفيات كأس العالم، مع منتخب بلدية المحلة ومنتخب المريخ البورسعيدي، ومنتخب الأسد المرعب؟

في تصفيات بطولة أوروبا وضعوا الفريق الإنجليزي في مجموعة على رأسها منتخب إيطاليا، وكانت هناك فرصة واحدة أمام منتخبات هذه المجموعة للصعود إلى نهائيات كأس أوروبا، وكان معنى ذلك أن تُحْرَم إيطاليا من الاشتراك في كأس أوروبا، إيطاليا التي حصلت على كأس العالم ثلاث مرات، فإذا وصلت إيطاليا إلى نهائيات الكأس، فمعنى ذلك أن إنجلترا ستحرم من الاشتراك في نهائيات أوروبا، إنجلترا التي اخترعت لعبة الكورة وأهدَتْها إلى العالم ... وهذا يعني ببساطة أنه لا يوجد في مجال الكورة فريق على رأسه ريشة، وليس أمام المنتخبات إلا الخضوع للنظم واللوائح والقوانين، وها هي قرعة تصفيات كأس العالم أوقعتنا في مجموعة لا شك أنها صعبة، ولكن ليس أمامنا إلا اللعب والمنافَسة وحَشْد كل الإمكانات لتحقيق النصر، وقد نفلح وقد نفشل ... ولكن لا شيء يهم على رأي إحسان عبد القدوس؛ لأنه ليس علينا إلا أن نسعى وليس علينا إدراك النجاح، ولكن سيتحقق النجاح وسيكون مكافأة لنا عن دقة تنظيمنا وحسن تدريبنا وقوة التجارب التي شاركنا فيها وذكاء الخطة التي لعبنا بها، ولدى العبد لله حلم أسأل الله أن يتحقق، أن يفوز فريقنا في كل المباريات التي تدور على أرضنا ووسط جمهورنا، وأن نتعادل في كل المباريات التي نلعبها خارج أرضنا، ولو أكرمنا المولى الكريم، بالفوز مرة واحدة في المباريات التي نلعبها على أرض الفرق المنافسة، ولو تحقق الحلم سيفرح شعبنا لرؤية فريقه على ملاعب كأس العالم، وهي فرحة لا تعادلها فرحة؛ لأنها فرحة البسطاء من أفراد شعبنا وهم بالملايين ... وأسأل الله أن يتحقق هذا الحلم ... ولو مرة كل عشر سنوات.

سبق للعبد لله لفْت نظر بعض الوزراء وبعض رؤساء الشركات والهيئات إلى التمهل في نشر البيانات التي تحمل أخبارًا سارة ومُبشِّرة عن الوظائف الجديدة التي وفرتها الحكومة، وعن كميات البترول التي اكتشفوها في الصحراء وفي البحر والتي يقدر الخبراء ثمنها بمليارات الدولارات، وقلتُ إن نَشْر مثل هذه الأخبار وإذاعتها على الناس هي أخطر ألف مرة من كتمانها، خصوصًا أنها غالبًا أخبار غير مؤكدة أو مُبالَغ فيها على الأقل، أو لم تعرض بعد على المستوى الأعلى في السُّلطة، وناس بلدنا أغلبهم طيبون وهم على استعداد للصبر والصمت وربط الأحزمة على البطون بشرط أن تصارحه بالحقيقة.

وزمان أيام الكفاح ضد قوات الاحتلال في منطقة القناة، وخلال النضال الشاقِّ لبناء السد العالي، شرب المصريون ملوخية على أنها شاي هندي فاخر ولم يَتذمَّروا، ولكن شعبنا الطيب يمتاز بالحداقة في الوقت نفسه، وإذا شعر أنك تخدعه فسيكون له موقف آخر، يوم الثلاثاء الماضي قرأت عنوانًا ضخمًا على الصفحة الأولى بجريدة «الأهرام» العنوان يزف للمصريين بشرى العثور على اكتشافات بترولية جديدة قدرها الخبراء بمليار ونصف المليار دولار، والخبر ليس اجتهادًا صحفيًّا، ولكنه تصريح لوزير البترول، والمدهش حقًّا أن الوزير قال في التصريح نفسه: إن هذه الاكتشافات ستُعرَض في اجتماع مجلس الوزراء قريبًا، طيب، فيها إيه لو تمهلتم حتى يصدر مجلس الوزراء قراره بشأنها؟

هل تعلمون ماذا حدث في الشارع؟

قابلني المواطن عبد العزيز على باب نادي الصحفيين النهري وبادرني قائلًا: خلاص هيقبضونا الفلوس؟ قلت: قول يا رب، قال: ما خلاص فُرِجت ... شوف لقوا بترول بالشيء الفلاني، ومد يده بالنسخة التي تحمل الخبر.

يا عيني على شنقيط!

ما الذي جرى في بلاد شنقيط؟ وشنقيط هو الاسم الحقيقي لقُطر عربي أصبح اسمه الآن موريتانيا، وهو قطر رقيق الحال فقير الموارد صحراوي الطبيعة، وهو في الوقت نفسه عضو بالجامعة العربية ورأسه برأس دول الخليج وليبيا والجزائر من دول البترول، ورأسه برأس مصر والمغرب وتونس والعراق من دول الأنهار، وبالرغم من ذلك لم يتحصل القطر الفقير على جزء من خيرات الأشقاء لا مشروع عربي واحد ولا رجل أعمال عربي واحد ولا شيء على الإطلاق سوى عضوية الجامعة العربية.

ولذلك كان من السهل على وزارة الخارجية الأمريكية اختراقه، لقد كانت مَعذورة في تقديم هدية لحكومة نتانياهو بعد توقيع اتفاقية «واي ريفر» وكان هناك وعد من مدام أولبرايت بأنه كلَّما تَقدَّمت حكومة إسرائيل خطوة إلى الأمام، سيتقدم العرب نحوها خطوتين، وفوجئ العالم العربي عقب توقيع اتفاقية «واي ريفر» بوزير خارجية موريتانيا يهبط بطائرته في مطار بن جوريون، وأعلن يومها أنه جاء لتهنئة الحكومة الإسرائيلية على خطوتها المُوفَّقة نحو تحقيق السلام، ولم يكن هناك أي علامة على السلام والوئام، وتصور البعض أنها شطحة من شطحات وزير الخارجية الموريتاني، ولكنهم فوجئوا بعد عدة أيام بتصعيد وزير الخارجية إلى منصب رئيس الوزراء ثم فوجئوا بعد ذلك بالإعلان عن إقامة علاقات دبلوماسية كاملة بين موريتانيا وإسرائيل، وكان الأمين العام لجامعة الدول العربية هو أكثر الناس اندهاشًا، وهو موقف غريب لأن أمين الجامعة العربية كان يجب أن يتوقَّع مثل هذه الخطوة لو كانت الجامعة العربية تقوم بدورها على الوجه الأكمل، ولكن الأمر الواقع يقول إن الجامعة العربية ربما لا تعرف أين تقع موريتانيا على الخريطة، بالضبط. والعبد لله يسأل سيادة الأمين العام: هل قام بزيارة موريتانيا من قبل؟ وكم عدد الزيارات التي قام بها؟ وأسأل مرة أخرى ملوك الدول

العربية وأمراءها ورؤساءها، كم رئيسًا منهم قام بزيارة موريتانيا؟ وكم مرة وجَّهُوا الدعوة لرئيس موريتانيا لزيارة العواصم العربية؟ سواء في زمن ولد دادة أو ولد طايع، وبعد ذلك يُبدي الأمين العام دهشته لما بدر من حكومة موريتانيا صحيح أنها بعيدة عن مشكلة فلسطين، ولكن ما المانع من إثبات وجودها بحركة من هذا النوع، وهو الأمر الذي تحقق فعلًا بعد هذه الحركة القرعة التي قامت بها حكومة موريتانيا، والتي تَسبَّبتْ في اندهاش العالم العربي كله من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر! والأكادة — على رأي عبد العال أفندي مدرس العربي — أن جماعة الخير في أمة العرب لهم كل يوم شهقة اندهاش مما يقع في بلادهم من غرائب وعجائب، مع أنها في الحقيقة ليست من العجائب أو الغرائب، ولكنها أشياء تَمَّت ببطء، ثم أينعت وأزْهَرت، ثم طرحت ثمارها على الأغصان، ولكن لأنَّنا لا ننظر إلا تحت أقدامنا، نُفاجأ بالثمار وقد نزلَت على الأغصان فَنَشهَق من شدة الدهشة، خذ مثلًا حكاية دولة قطر، حدث فيها تغيير للسُّلطة وهي حرة بالطبع لا سلطان لأحد عليها، ولكن العرب لم يحسنوا قراءة ما جرى هناك، وعندما انكشفَت الأوراق أبدي العرب دهشتهم، ولا يزالون في حالة اندهاش إلى هذه اللحظة، خذ عندك مثلًا ما حدث للمصريين في خيطان بالكويت، اندهشْنَا جميعًا وكأن ذلك حدث بالأمس فقط، مع أنه يحدث مثله كل يوم منذ ثلاثين عامًا، في العراق دهسوا المصريين تحت عجلات السيارات أثناء احتفالهم في بغداد بالتعادل مع بطل أوروبا «هولندا» بكأس العالم، وقَتلوا منهم الألوف وأرسلوهم في نعوش طائرة ولم نهتم ... وحدث الشيء نفسه في الأردن، وفي لبنان وفي بعض دول الخليج ولم يهتم أحد، مع أن المصريين كانوا موضع التقدير والاحترام في كل مكان حتى منتصف السبعينيات، ثم بدأت حالة الانهيار والتدهور، تَركْنا للمصريين الحبل على الغارب يخرج متى يشاء ويعود أحيانًا مطرودًا أو مكبلًا بالكلبشات، ولو كنا انتبهنا منذ البداية، لو وضعنا الضوابط وأقمنا الحدود، لما حدث شيء من هذا على الإطلاق.

وكم من جرائم ومآسٍ حدثتْ هنا في مصر نتيجة رواية لا أساس لها من الصحة خلاصتها أن كل من يَعبر الحدود إلى بلاد النفط يعود ومعه الدولارات بالكوم، وكان يجب علينا توعية أبناء وطننا بأن سوق العمل في تلك البلاد أسوأ من سوق العمل في بلدنا؛ لأن المنافَسة هناك على ودنه بين أبناء عشرين جنسية على الأقل؛ الهندي، والصيني، والتايلاندي، والفليبيني، والأندونيسي، والأفغاني، إلى جانب العرب الفقراء، وأضيف إليهم أخيرًا أبناء دول الجمهوريات السوفياتية سابقًا، ولكننا تركنا الأمور تمضي في أعِنَّتها، ثم

عندما تقع كارثة في أي مكان نرعش حواجبنا من شدة الدهشة، وكأننا لم نكن نتوقَّع شيئًا مما وقع بالفعل.

أقول لكم يا جماعة الخير، لا تلوموا أحدًا إلا أنفسكم؛ فـ:

مَن يَهُن يَسهُل الهوان عليه ما لِجرح بميت إيلام

لقد كان يجب علينا أن نتعلم من درس فيتنام، فبالرغم من قلة الموارد وضيق الحال، أتحدَّاك أن تعثر على فيتنامي واحد في سوق عمالة في أي مكان، فإذا كانت فُرص العمل قليلة في فيتنام فليشترك اثنان في عمل واحد، وليقتسم الاثنان أجر الواحد حتى يأتي فرج الله، ومنطق حكومة فيتنام أن المواطن الفيتنامي الذي جرَّع الهزيمة للإنجليزي والفرنسي والأمريكي، لا ينبغي له أن يتجرَّع الذُّل في سوق العمل في الخارج.

سأقول لكم شيئًا خطيرًا للغاية: إن فكرة الوحدة العربية تم القضاء عليها نهائيًّا ولمدة مائة عام على الأقل، والسبب هو المُعامَلة السيئة التي واجهها العمال المصريون في العالَم العربي، في الستينيات عندما رفعت حكومة مصر شعار أمة عربية واحدة، استبَدَّ الفرح بالمصريين إلى حدِّ الرقص في الشوارع، وأنا واقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام، واليوم ... لو رفع أي حزب مصري هذا الشعار فسيكل ضرب ما ياكلوش حرامي في مولد، وإذا حدث ذلك ذات يوم ... فأرجوكم لا تندهشوا ولا تُلقوا باللوم على إسرائيل ... فنحن العرب وراء كل مشكلاتنا ... والله من وراء القصد!

سعادة الوزير وأنبوبة البوتاجاز!

أي مواطن يصلح وزيرًا، وكل مواطن يستطيع أن يملأ مكانه في منصب الوزير. وهو خطأ شائع ولا أساس له من الصحة؛ لأنَّ منصب الوزير منصب قيادي في الدرجة الأولى من الأهمية، وليس عيبًا أو عارًا أن يكون العبد لله لا يصلح لمنصب الوزير، ولكن العيب الحقيقي أن أتقلَّد هذا المنصب وأنا لا أصلح له، ومُسوِّغات تعيين الوزير أن يكون من أصحاب القدرة الإدارية الفائقة، وأن يكون من أتباع سياسة معاوية ... لو كان بيني وبين الناس شَعرة ما انقطعَت ... إذا جَذَبوها أرخيْتُها ... وإذا أرْخَوها جذبتُها، وإذا كان الوزراء وهم في السُّلْطة يبدون جميعًا سواء فهذا الأمر يكون صحيحًا في الصورة فقط، أما في واقع الحال فالأمور تختلف. ولدينا الآن مثل حي وملموس وعلى عينك يا تاجر.

في أيام الدكتور أحمد جويلي وزير التموين السابق لم نسمع عن أزمة في البوتاجاز في أي وقت ... لا في الصيف ولا في الشتاء كانت الأنابيب مُتوفِّرة، والسعر ثابت، والناس مرتاحة، وكل شيء على ما يرام، وفي عهد الوزير الحالي اشتعلَت أزمة البوتاجاز إلى الحد الذي أصبحَت فيه أزمة جماهيرية، وإذا كانت طوابير الجمعيات الاستهلاكية قد اختفَت فقد حلت محلها طوابير البوتاجاز، وهجمَت جحافل البلطجية على منافذ التوزيع تُشرِف على التوزيع وتُحدِّد التسعيرة المناسبة، وبينما المستهلكون يَشتكون من غلاء السعر الذي بلغ في بعض المناطق خمسة عشر جنيهًا للأنبوبة الواحدة، نجد البلطجية يحققون أرباحًا يحسدهم عليها رجال الأعمال. هذا الوضع السيِّئ الذي انتهت إليه أنبوبة البوتاجاز ما هي الأسباب التي أدَّت إليه؟

في رأي العبد لله أنه ليس هناك أي سبب إلا سوء الإدارة، وفي عهد الدكتور الجويلي لم نسمع عن زيادة الثمن في أي سلعة من السلع الضرورية، وفي عهد الوزير الحالي أصيب سوق السكر بالجنون، وقيل في تبرير ذلك إن واحدًا مستثمرًا اسمه علي الصفدي

هو المسئول، وإذا كان هذا الأمر صحيحًا يكون التاجر علي الصفدي أقوى من الوزير ومن وزارته ومن أجهزته، وفي بلد مثل مصر تهون اللخبطة في أي مكان إلا في وزارة التموين، فلا بد من ضبط الموازين في السلع الأساسية التي تعتمد عليها أغلبية الجماهير، فلا يمكن الإهمال أو غض الطرف عن حالة الفول المدمس، والعدس، والسكر، والشاي، والخبز، والأرز، فإذا حدثت اللخبطة في هذا المجال فيا داهية دُقي أعوذ بالله! ولكن السيد وزير التموين يبدو وسط الأزمات وبالرغم من — الأزمات — شديد الانشكاح لا شيء يشغل باله، ولا شيء يُعكِّر مزاجه ولا شيء ينغص عليه حياته، ولماذا يقلق ما دام الجو بديع والدنيا ربيع؟ لعله لا يدرك أن بيتًا بلا أنبوبة بوتاجاز في هذا الشتاء القارس معناه مشكلة ترتفع إلى حد الكارثة.

مرة منذ بضع سنوات حدثت مشكلة في توزيع الأنابيب، وعلَّقتُ على المشكلة في بضعة سطور بمجلة «المصور» وفي الساعة العاشرة صباحًا من اليوم التالي سمعت طرقًا على الباب، ولما فتحتُ اكتشفتُ وجود الوزير عبد الهادي قنديل وزير البترول على الباب ومعه المهندس عبد الحميد أبو بكر رئيس مجلس إدارة شركة بتروجاز، وقضى الوزير مع العبد لله حوالي ساعة ومعه كل الوثائق التي تُثبِت براءته وبراءة وزارته وبراءة أجهزته، ولكن المشكلة كانت وليدة سوء تصرف من بعض أصحاب مراكز التوزيع وأنه جاء إلى منزلي بعد جولة مُبكِّرة فاجأ فيها عددًا من هذه المراكز وأمر بإغلاق مركزين ولم تستمر المشكلة أكثر من أيام قليلة، ثم هدأتْ سوق البوتاجاز وعادت إلى مسيرتها القديمة.

والعبد لله يعتقد أن وزارة البترول يقع عليها جزء من مسئولية الفوضى التي تعربد في سوق البوتاجاز، ولكن وزارة التموين هي المسئولة الأولى، في أيام الدكتور الجويلي مثلًا ابتدعوا نظامًا للتوزيع كان بمثابة ضربة معلم، فاختاروا عددًا من الشباب الحاصلين على شهادات متوسطة وشهادات عليا وأعطوا كُلًّا منهم الحق في توزيع سيارة بوتاجاز بعد دفع التأمين المطلوب، وقد حقَّقتْ هذه السياسة اصطياد عدة عصافير بحجر واحد، سهولة التوزيع ووصول الأنابيب إلى المستهلِك وضمان دخل معقول للألوف من الشباب وإبعاد البلطجية عن سوق البوتاجاز، ولا أعرف ما الذي حدث لهذا النظام بعد التغيير الوزاري الأخير، هل لا يزال معمولًا به حتى الآن؟ أم أن الوزير الجديد ألغاه باعتباره من مُخلَّفات الجويلي، كما فعل مع موظَّفي مكتبه وعمال البوفيه الذين كانوا يعدون القهوة والشاي للوزير السابق؟! وإذا كان بعض السادة من أصدقاء الوزير الذين يلتمسون العذر له على أساس أنه وزير مستجد كما وصفه زميله الدكتور يوسف بطرس غالي وزير الاقتصاد فهو عذر أقبح من ذنب؛ لأن وزير التموين لا بُدَّ أن يكون وزيرًا متمرِّسًا

وخبيرًا ولا يسمح لأي خيط من الخيوط التي يمسك بها بين يديه من الإفلات من بين أصابعه؛ لأن وزارة التموين ليست وزارة هامشية ولكنها وزارة على قَدْر كبير من الأهمية؛ لأنها وزارة تتعامل مباشرة مع الجماهير.

أذكر أنه في العام ١٩٧٠م سألني أحد تجار الحبوب بالجيزة وهو المرحوم الحاج سيد مخيمر أنْ أَلْفِت نظر وزير التموين وكان المرحوم حمدي عاشور بأن الوزارة على وشك الوقوع في أزمة فول مدمس قد يكون لها أبعاد خطيرة، ورفعتُ سماعة التليفون وسألت حمدي عاشور سؤالًا عابرًا ... عامل إيه في الفول؟! وأجابني حمدي عاشور بأن كل شيء على ما يُرام والتقارير كلها تُؤكِّد أن مخازن الوزارة تضم كميات من الفول تكفي مصر لمدة عام كامل، قلتُ له: طيب على خيرة الله ثم سألني حمدي عاشور بتسأل ليه؟ ... أجبتُه بأنه لا شيء هناك سوى أن أحد تجار الجيزة الكبار المعروفين قال لي إن وزارة التموين قد تعاني من أزمة الفول مدمس في القريب، وأجابني حمدي عاشور ضاحكًا ده لازم كان مبسوط شوية ... بعد ثلاثة أيام على وجه التحديد من هذا الحديث اتصل بي الوزير حمدي عاشور وصاح قائلًا ... الراجل اللي قالك على أزمة الفول ده فين؟ ... قلت له ... موجود ... قال حمدي عاشور ... تسمح تجيبه وتيجي ... قلتُ له ... سأبحث عنه وإذا كان موجودًا سأصطحبه إلى مكتبك ... بعد ساعتين من هذا الاتصال التليفوني كنتُ مع المرحوم سيد مخيمر في مكتب الوزير، وكان المكتب يضيق بعشرات من كبار الموظفين، وكلاء وزارة، ومديري عموم، ومعهم مدير مديرية تموين الجيزة، ومدير مديرة تموين القليوبية، وقال الوزير لسيد مخيمر ... أنا يا عم سيد عاوز أشكرك على الكلام اللي أنت قلته لمحمود ... فنحن بالفعل على أبواب أزمة حادَّة في الفول المدمس ونريدك أن تشترك معنا الآن في الحوار وتدلَّنا على أحسن الطرق لعلاجها، وكيفية الخروج منها بسلام ... ولما كان سيد مخيمر من أكبر تجار الحبوب في مصر فقد وعد الوزير بأن يمد الوزارة بخمسين طنًا يوميًّا بالتسعيرة، وأشار على الوزير بتنفيذ عدة مقترَحات تسهل الخروج من الأزمة، وبالفعل طبق الوزير ما أقترحه سيد مخيمر عليه، ونفَّذ سيد مخيمر وعده وقدَّم خمسين طنًا من الفول بالتسعيرة للوزير كل صباح، وانتهت الأزمة بسلام ... وفي أول مجلس وزراء برئاسة أنور السادات قال الوزير حمدي عاشور لرئيس الجمهورية ... يا سيادة الرئيس الأمن الغذائي أهم من الأمن السياسي، ووافقه السادات على ذلك ووجه الشكر لوزارة التموين؛ لأنها عالجت مشكلة الفول بسياسة ناجحة ... وبعض الذين يدافعون عن وزير التموين الحالي يقولون: إنه كان مديرًا لبنك وقد شهد بنجاحه في إدارة البنك الجميع، والعبد لله يعلم أن الوزير الحالي كان مديرًا لبنك، أما

مسألة نجاحه من عدمه في إدارة البنك فهي مسألة فيها قولان كضربات الجزاء، ثم إن إدارة البنك تختلف عن إدارة وزارة، فالبنك كشوف حسابات وأجهزة كمبيوتر وعمليات سحب وإيداع، وهي أمور تحتاج إلى محاسب وإلى مدير يراجع ويراقب ويحاسب، ثم إن المثل الشعبي يقول «إن الميه تكدب الغطاس» ... وها هي مياه وزارة التموين غطس فيها وزير التموين الجديد ولم يظهر له أثر حتى الآن.

والعبد لله يهيب بالدكتور عاطف عبيد رئيس الوزراء أن يخرج قليلًا من دوامة العمل ويلقى نظرة على مشكلة البوتاجاز لعله يقوم بزيارة لبعض مَخازن البوتاجاز في العاصمة والجيزة ليرى بنفسه كم يعاني الناس أمام مراكز التوزيع! وكم يلاقون من صنوف العنت والإرهاق وابتزاز البلطجية للحصول على أنبوبة وبثمن تضاعَف حتى الآن أكثر من خمس مرات! وعلى العموم فشل وزير في وزارته ليس نهاية الكون، ولكن استمرار وزير فاشل في وزارته هو أمر له عواقب وخيمة، وفشل الوزير في وزارة أمر محتمَل في وزارات كثيرة ولكن في وزارة التموين بالذات ... اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه!

زحمة يا مصر زحمة

شاهدت كوبري الإسكندرية الجديد الذي يربط بين عروس البحر الأبيض والطريق الصحراوي والطريق الزراعي في الوقت نفسه.

والحق أقول إنه منذ تولَّى الرئيس مبارك السُّلْطة وحكوماته المتعاقبة لم تقصر في إنشاء شبكة طرق لم يكن لمصر عهد بها من قبل ... طرق ريفية، وطرق علوية في المدن، ومترو أنفاق، وجسور على مجرى النيل أهمها كوبري إمبابة، وكوبري المنيب، وطريق دائري في القاهرة، وآخر في الإسكندرية. وبالرغم من ذلك فالمشكلة لم تحل. الدنيا زحمة والشوارع مزدحمة بالناس، وبعض المناطق لا فرق فيها بين الليل والنهار، مثل شارع الملك فيصل، وشارع الأزهر، في الوقت نفسه نجد مدينة مثل لندن مزدحمة بالسكان، الزحمة فيها تتركز في صرة المدينة، أما خارج هذه الدائرة فليس هناك زحمة ولا يحزنون. منذ أيام خرجتُ في الصباح الباكر في طريقي إلى مطار القاهرة، وكدتُ أتخلَّف عن ركوب الطائرة بسبب الزحمة المجنونة، وفي كل مرة أعود فيها إلى بيتي بعد منتصف الليل، أجد نفسي في يوم الحشر، ليه؟ لا أعرف ولا أعتقد أن أحدًا غيري يعرف. هل هناك نوع من الموظفين عملهم الوحيد هو التجول في الشوارع؟ هل هناك مدارس تقوم بتعليم التلاميذ في الطريق العام؟ هل نحن شعب من الصياع يقضي أغلب وقته هائمًا على وجهه في الطرقات. هذه المسألة في حاجة إلى دراسة حقيقية لمعرفة السبب.

خلال رحلة قصيرة إلى كوبنهاجن عاصمة الدنمارك، تجوَّلْت في شوارعها في الحادية عشرة مساء مع الصديق المهندس علي والي وزير البترول الأسبق، وتَصوَّرت أن هناك أمرًا بحظر التجوال، ولكني عرفتُ من سعادة السفير المصري أن كوبنهاجن تبدو خالية من السكان في مثل هذا الوقت. ولكني عدت إلى التجوال في أنحاء المدينة ظهرًا واعتقدتُ أن حظر التجوال لا يزال مفروضًا على المدينة. لماذا عاصمة مصر هي التي تبدو وكأنها مدينة

هندية، لا أستطيع أن ألوم الحكومة؛ لأنها مَدَّت شبكة طرق وحفرت أنفاقًا في خمسة عشر عامًا أضعاف ما حدث في المدينة لمدة مائة عام سابقة ... صحيح أن هناك أخطاء هندسية في عملية إنشاء القاهرة. الدليل على ذلك أن أحدث شارع في العاصمة هو شارع فيصل بالجيزة، ولكن عرضه لا يزيد كثيرًا على عرض شارع المعز لدين الله الفاطمي الذي تم فتحه منذ ألف عام، إن القاهرة والجيزة في حاجة إلى مجلس أعلى لإعادة تخطيطهما للوصول بهما إلى المستوى الذي تستحقه كعاصمة كبرى ليس في الشرق الأوسط فقط ولكن في العالم كله. وحرام أن نترك أمر القاهرة لمهندس في المحافظة مشغول بالرشاوى وبإصدار تصاريح البناء وملاحَقة المخالفين، ثم هو في النهاية مربوط من قفاه بالسيد رئيس الحي والسيد رئيس المدينة، القاهرة أكبر من ذلك وأكثر أهمية. ولا بُدَّ من إنشاء هذا المجلس الأعلى على أن يضم أكبر المهندسين وبعض أساتذة الجامعات وبعض المفكرين والأدباء، وأن يكون المجلس إياه تحت إشراف مجلس الوزراء مباشرة، وأن تكون علاقته مقطوعة تمامًا بالمحليات. فيكفي ما في المحليات من كوارث وفواجع وجرائم يَشيب لها الولدان. وأن نطلق يد المجلس إياه في فعل ما يراه مناسبًا لكي نظفر في النهاية بعاصمة جميلة وجليلة تتفق مع دور القاهرة ووضعها في التاريخ، حتى ولو أدَّى الأمر إلى ازالة أحياء بأكملها.

إن منظر مدينة الرباط الذي ظهر على شاشة التليفزيون أثناء تشييع جنازة الملك الحسن الثاني جعلني أبكى ألمًا على منظر عاصمة مصر الذي لا يسر عدوًّا أو حبيبًا. وليست الرباط وحدها ولكنَّ هناك مدنًا عربية أخرى؛ أبو ظبي والشارقة في الخليج، وجدة في السعودية، وعَمَّان في الأردن، وهل من المعقول أن تكون أبو ظبي أكثر اخضرارًا من القاهرة؟ القاهرة التي يحتضنها النيل تبدو لمن ينظر إليها من الطائرة كصخرة جامدة. هل هي قلة مياه؟ هل هي قلة طمي؟ هل هو عدم إحساس بالجمال؟ هل هو سلوك موظَّفين، مشي إيدك وقول يا باسط، يا عم دا كده رضا وربنا يديمها نعمة.

العبد لله يؤكد أنه لا بُدَّ من المجلس الأعلى لإعادة تنظيم القاهرة، ولا بُدَّ من إلحاق مدينة الجيزة التي تضم الدقي، والمهندسين، وشارع فيصل، وشارع الهرم، إلى مدينة القاهرة، واختيار عاصمة أخرى للجيزة تضم الحوامدية والبدرشين، ولا خوف من هذا الإجراء؛ لأنه أمر طبيعي وإجراء ضروري للنهوض بالقاهرة كلها بضفتيها الشرقية والغربية على حد سواء. والدليل على أنه أمر طبيعي أن جامعة الجيزة اسمها الرسمي جامعة القاهرة.

أخطر ما حدث في الفترة الأخيرة هو هروب بعض الرياضيين المصريين وانضمامهم إلى الفريق القَطري. الهدف طبعًا هو الفلوس. وكان تمثيل البلد في المحافل الدولية واللعب تحت رايته هو أغلى أمنية يمكن أن يحققها الإنسان في الحياة. ولكن الآية انقلبت الآن، فأصبحت الأمنية ... هي التردد على البنك وتحرير الشيكات والبحث عن شقة أوسع وسيارة أفخر وأكلة أدسم. حتى لو لعب الكابتن للشياطين. إن الهارب أشرف السعد الذي ذقنه ولا المقشة لم يخجل من الظهور على قناة الجزيرة الفضائية، وزمان كان أي إنسان في وضع الأخ المقشاوي يلجأ إلى الظل ويختفي عن الأنظار. حرامي ونصَّاب وهارب من العدالة ولكن هذه الصفات في عصر العولمة وآليات السوق أصبحت نياشين يعلقها البعض على صدره. وزمان كانت السيدة البطلة هي أم صابر، وأصبحت الآن المرأة الحديدية، وعلية العيوطي التي خرجت من مطار القاهرة نهارًا وبالسلامة وفي أمان الله. والسؤال الآن ... كيف خرجَت بتأشيرة من النائب العام؟ وهناك خلاف حول ... هل من حق النائب العام السماح لها بالسفر، أم من حق المحكمة؟ وهي نقطة لا تستحق أن نتوقف عندها، فسلطات النائب العام واسعة وتحتمل كل شيء. ولكن السؤال الذي يجب طرحه. هل كان يسمح بسفر المواطن علي برعي المتهم بسرقة حبل الغسيل من فوق السطوح حتى ولو كان مريضًا بأخطر أنواع السرطان؟ ولكن علية العيوطي يُسْمَح لها بذلك حتى ولو كانت مريضة بالزكام، الذي سمح لها ليس النائب العام ولا المحكمة، ولكن الذي سمح لها هو الجو العام، وأما الذي معه فلوس يسمح له بكل شيء، أما المفلس الجربان فلا يسمح له حتى بالبكاء. إنه الجو العام الذي جعل بعض الكباتن تهرب من الفريق الوطني المصري والانضمام إلى فريق وطني آخر واللعب تحت علم مختلف. ولم لا؟ ما دامت المسألة فيها هبرة محترمة ولقمة طرية، وهي الأشياء التي أصبحت الهدف والمنى والطلب. وأتساءل الآن ... لماذا الحبَّاك وحده هو الذي يعاني في السجن في هذا الحر اللعين؟ أفرِجوا عنه هو الآخر واسمحوا له بالسفر، فيكفيه «شرفا» أنه أعاد لنا ٢٠ مليون دولار من مجموع منهوباته، وهو موقف يفرض علينا أن نشكره عليه!

٢٣ يوليو والشجعان ...!

في ذكرى ثورة يوليو المجيدة نرفع أيدينا إلى السماء ونسأل الله أن يغفر للبطل ويحسن إليه عمنا جمال بن عبد الناصر حسين قائد وزعيم ثورة ٢٣ يوليو، الثورة التي صحَّحت الواقع المصري، فقضتْ على مجتمع الواحد في المائة مجتمع الباشوات وأعيان الريف وأصحاب الطين، وقتلُتْ بضربة واحدة أعداء مصر الثلاثة الفقر والجهل والمرض، وأزالت استعمارًا إنجليزيًّا فشلَتْ كل التنظيمات السياسية التي سبقت الثورة في زحزحته بوصة واحدة.

ما أعظمهم من رجال أبطال الذين ضحوا بأرواحهم من أجل تخليص مصر من كل الأعداء، وما أعظمه من رجل البطل جمال عبد الناصر الذي لم يَستِرح لحظة واحدة خلال ١٨ عامًا طويلة، ولكنه خاض كل المعارك، وحارب على كل الجبهات وانتصر أحيانًا وانهزم أحيانًا، ولكنه استطاع من خلال الهزائم والانتصارات أن يضيف إلى مصر ولا ينقص منها، انتصر على دول كان مجرَّد ذِكْر اسمها يلقي الرعب في قلوب الكثيرين، وانتصر على قوى شريرة ورهيبة ولم يهزمه إلا بعض زملائه وبعض الشجعان من أعدائه الذين مارَسوا الصَّمت طوال عهده ولزموا الصمت بعد موته بعدة سنوات طويلة ثم خرجوا من جحورهم بعد رحيله بربع قرن من الزمان، يلعنون سنسفيل أجداده ويصفونه بالحرامي الذي سرق مجوهرات أسرة محمد علي، وأحدهم اتهمه بصرف عشرة ملايين دولار منحة من الملك فيصل، قال الشجعان: إن عبد الناصر باعها في السوق السوداء وحصل على الفرق، يعني حصل على ١٠ آلاف جنيه تقريبًا يا للتفاهة والحقارة والجبن!

كان باستطاعة جمال عبد الناصر يرحمه الله لو كان يطمع في مال أن يسأل أي شيخ عربي أو أمير عربي أو حاكم عربي من ملوك البترول أن يُحوِّل له عدة ملايين وهو طريق أسهل وأسلم بدلًا من تعرض نفسه لشرطة الأموال العامة أو لمفتشي السوق السوداء!

عبد الناصر الذي شغل الدنيا والناس والذي تحدَّى الدول الكبرى والقوى العظمي، عبد الناصر الذي لم يهدأ لحظة ولم يسترح لحظة، اتهمه واحد من إياهم منذ أسبوع واحد بأنه حرامي وقاتل وخائن، وعرَّض جيش مصر للإبادة لكي يتمكن من عزل عبد الحكيم عامر، وهتك أعراض نصف نساء مصر، المستشار الشجاع الذي أغلق فمه كل هذه السنين الذي لم يهمس بكلمة احتجاج واحدة ولم يصرخ بكلمة استغاثة يومًا، ثم جاء في ذكرى وفاة عبد الناصر التاسعة والعشرين فرماه بكل نقيصة، واتهمه بكل تهمة، وبصق على وجهه ووجه ثورته، وهي شَجاعة منقطعة النظير وهي تعطي الأجيال القادمة درسًا في فن الشجاعة والاحترام، فكل زعيم ميت ملعون أبوه، وكل قائد مدفون في التراب حرامي وابن كلب حتى يثبت العكس، أما كل وكيل وزارة حي يُرزَق فهو الأسد الجسور والسبع المقدام والنسر الجارح، المستشار إياه الذي وصف أحد وزراء العهد الحالي بالأسد الجسور لم يَجِد حرجًا في وصف عبد الناصر بالحرامي واغتصاب «الحرائر» من النساء، عبد الناصر الخائن الذي خان أصدقاءه، وخان وطنه، وخان شعبه وعاش ومات في مستنقع الخيانة والاستسلام، أما سعادة أي وزير حالِي فما أعدَله! وما أعظمه! وما أجمله! وما أروعه من رجل! بل وإن شئت الدِّقة فهو خير الرجال وزين الرجال، يا للشجاعة الرجال عندما تظهر في الوقت المناسب، صحيح أكل العيش مُر ولكن الرجل الكسيب هو الذي يعرف متى يُبدي الشجاعة، ومتى يتمسك بالجبن.

أغرب شيء أن كل هؤلاء الرجال الشجعان لم نشاهد أحدهم يومًا ما في السجن أيام عبد الناصر، هذا الديكتاتور المتعطش للدماء كما وصفوه كان لا يترك رجلًا حرًّا يمشي على قدميه في الأسواق، فكيف عشتم أيها الشجعان الأبطال أيام عبد الناصر آخر نغنغة، وآخر سبهللة، وآخر مزاج؟ بعض هؤلاء الشجعان يُعيدون ويكررون كذبة كبيرة أن حادث إطلاق النار بميدان المنشية هي تمثيلية من أجهزة عبد الناصر، هؤلاء الشجعان الأشاوس هم في الواقع أعضاء في جماعة الإخوان، ولكنهم لشجاعتهم الفائقة يخفون هذه الحقيقة خوفًا مما لا يحمد «كعباه» على رأي المرحوم الفنان محمد رضا يرحمه الله.

عمنا جمال عبد الناصر الذي فجر ثورة ٢٣ يوليو، تأكد يا سيدي أن ذكراك ستبقى حية بيننا وستبقى متوهجة في تاريخ بلادنا إلى ألف عام، اغفر لهم يا أبتاه ... اغفر لهؤلاء الشجعان النشامى الذين يجيدون عملية الارتزاق في كل عصر. حِرْفتهم سبُّ الموتى من الزعماء والأبطال، ومدح أصحاب النفوذ من الأحياء من وكيل وزارة ونازل حتى الفراش، إنهم مجرَّد حشرات وهَوام، وهم لا يستعرضون شجاعتهم إلا في قرافة الإمام الشافعي، إنهم فتوات جَبَّانة البساتين، وقرافة الغفير، ومدافن سيدي النخال.

ويا حضرات السادة الشُّجعان أنتم أتْفَه من نملة تُحاوِل هَدْم الهرم الأكبر، وأنتم أحقر من ذبابة تُحاوِل أن تنال من معبد الكرنك، ويا عمنا عبد الناصر لا تحزن لسفالة بعض هؤلاء الشجعان من ماركة الأسد الهصور، فَهُم مجرَّد أكيلة عيش، وشتيمتك مجرَّد سبوبة ولقمة عيش وأحسن من السرقة والتبكيش وكل شيء يغضب الرحمن.

في أحيان كثيرة أفكر طويلًا في اعتزال العمل الصحفي والاستمتاع بما تبقَّى لنا من الحياة بعيدًا عن الكتابة والقراءة ووجع الدماغ، والسبب أننا نكتب ولكن لا أحد يقرأ، وإن قرأ لا يستفيد، وكأننا نَستعرِض ألعابنا في ساحة الفنا بمراكش، منذ أيام أعلَنوا في التليفزيون عن قرب عرض حلقات «حارة المحروسة» وكتب العبد لله كلمة حذرتهم فيها من عرض هذا المسلسل البشع الذي هو في واقع الأمر عبارة عن بصقة في وجه المجتمع المصري، ومؤلِّفه الذي لم يسعدني الحظ بمعرفته أحد حكماء هذا الزمان، كما أنه فيلسوف شرب فلسفته من المنابع نفسها التي شَربَت منها المرحومة خالتي عديلة فيلسوفة كفر أبو جاموس، والحلقات تعرض نماذج من البشر: واحد مهندس طيب جدًّا وظريف جدًّا وأمين جدًّا، وصديقه مهندس أيضًا ولكنه شِرِّير جدًّا وشرس جدًّا وخائن جدًّا، ورجل أعمال طيب وعلى نِيَّاته وزوجته من طراز هبلاء اليمامة، أضاعت نفسها وأضاعت ثروة زوجها فمات بالذبحة الصدرية، ورجل نجار طيب جدًّا، ومتسامح جدًّا وحلو خالص، وله صديق قهوجي نصاب جدًّا، وحرامي جدًّا وبهلوان جدًّا، وهو يتاجر في كل شيء، أراضٍ منهوبة، ومسروقات من كل نوع، أما المهندس الشرير فقد تمكَّن من خلع صديقه المهندس الطيب، وحل محله في الإدارة، وخطف خطيبته واستولى على ثروتها، أما المهندس الطيب فقد استسلم وقرَّر أن يهاجر من مصر فذهب إلى الخليج وغاب هناك عدة أشهر، ثم عاد ملياردِيرًا ولا محمد الفايد بتاع هارودز عليه رحمة الله، وهي فكرة بعض الناس عن الخليج وثرواته، كانت إحدى قناعات زوج عمتي شفاعات، إذ يكفي أن يهبط الإنسان — أي إنسان — على أرض الخليج ليجد عشرات الملايين في جيبه، وكيف ولماذا؟ ليس من حقك أن تسأل، يكفي أنك في الخليج، لتجد الملايين في انتظارك سواء كنتَ من الصياع أو من العباقرة فكنوز الخليج لا تفرق بين أصناف البشر، المهم «حارة المحروسة» ليست رواية وليست حكاية ولكنها «حكم واتعلمناها من حارة المحروسة»، وطبعًا حارة المحروسة يعني مصر، وهذه النماذج التي عرضَتْها الحلقات هم أهل مصر، أما المنتِج فقد عرفتُ أنه أحد مقاولي أعمال الكهرباء، وما علاقة الكهرباء بالفن، يبدو أن هناك

علاقة وثيقة؛ لأنه نازل إنتاج مسلسلات حَمْري جَمْري، كما يقولون، وهو حُر طبعًا ينتج ما يروق له من السهرات والحلقات، ولكن عرض هذه الأعمال ينبغي أن يخضع لميزان كميزان الذهب، ولكن يبدو أن المسئولين عن التليفزيون من طائفة الكهربائية أيضًا، فأي شيء مثل كل شيء، ونجيب محفوظ مثل سعد برعي، ورمسيس نجيب مثل الكهربائي ... ولا شيء يهم في تليفزيون بلدنا، المهم أن نعرض «حكم واتعلمناها من حارة المحروسة».

المهم أيها السادة أنهم عرضوا الحلقات، ولكن في القناة الفضائية، وعرضوها سرًّا مع أنها عرضت قبل ذلك من خلال قناة «الأوربت»، يعني حلقات بايتة، ولكن فلاسفة ماسبيرو يُؤكِّدون أن الحلقات كالملوخية تؤكل بايتة خصوصًا لو كانت باللحم الضاني، ويبدو أن في الأمر سرًّا وأن هناك لحمة ضاني في الموضوع.

وسبحان الله ... هل تحوَّل تليفزيون مصر إلى مقلب لكل أنواع الأعمال الفنية الزبالة؟

ويا رب ... هَوِّن عليهم واحنا يصبرنا!

المستشار ولعبة باراك!

ها هو شهر الثورة والثوار، وها هي الأقلام إياها بدأتْ فاصل العزف البايخ تلعن الثورة وسنينها، وتُجرِّد الثورة من كل شيء إلا من صلاح نصر وممارساته السيئة، ثم تَتعرَّض لحرب اليمن وتعتبرها نكبة لمصر وكارثة لاقتصادها، وتصف حرب ٦٧ باعتبارها كانت مؤامرة لطرد عبد الحكيم عامر من الجيش، أشياء كثيرة مضحكة وغريبة هي كل ما بقي من ثورة ٢٣ يوليو في رأي السيد «المستشار» أو هكذا أطلق السيد إياه على نفسه، مستشار فين؟ فالمهم أنه مستشار والسلام.

ومنذ سنوات مضت تساءَل عمنا وسيدنا وتاج رأسنا، الكاتب المفكر أحمد بهاء الدين: هل «المستشار» وظيفة أم لقب؟ وكان من رأي عمنا بهاء أنها وظيفة إذا تركها صاحبها فقد صفته كمستشار، ومع ذلك لا حياة لمن تنادي، فسعادة البيه «المستشار» إياه صار كاتبًا، ومن هناك صار مؤرِّخًا، والأكادة أنه يتصور نفسه من الكُتَّاب الساخرين، وهو وضع العبد لله يوافق عليه على أساس أنه كم ذا بمصر من المضحِكات ولكنه ضحك كالبكاء على رأي سيدنا أبو الطيب المتنبي!

أما مجوهرات أسرة محمد علي فقد سرقها الثوار، ودليله الوحيد على كلامه الاتهامات التي كالها «المستشار» للثورة والثوار هو كلام سمعه من حسن «بك» إبراهيم عضو مجلس الثورة، وخد بالك من حكاية «بك» دي، لأنني لم أسمع في أي وقت أن قائد الجناح حسن إبراهيم حمل لقب بك في أي يوم. ولكن سعادة «المستشار» لا يحترم إلا أصحاب الألقاب.

بَكوات أو باشوات، وكل ما يكتبه هو في الحقيقة دفاع عن أصحاب الأراضي وذوي الأملاك، وهذا هو بالضبط سر غيظه الشديد من الثورة ومن الثوار. أما أيام الثورة التي حفلت بالأمجاد والانتصارات فكلها في رأي «المستشار» أيام تطفح بكل سوء وبكل ما

هو سيئ ورديء في هذه الدنيا وسوف يسجلها التاريخ بإذن الله على حقيقتها، ساعتها تعرف الأجيال المقبلة أن مصر عاشت أسوأ العصور ولا الهمج أو الهكسوس!

وهذا يعني أنه في رأي المستشار ببساطة أن القضاء على النظام الملكي كان عملًا رديئًا، وطَرْد الإنجليز من مصر كان عملًا سيئًا، وقانون الإصلاح الزراعي كان عملًا يخجل منه الثوار، وبناء السد العالي وصمة في جبين الثورة، وإلغاء الألقاب كان عملًا غير شريف بالمرة، وتأميم قناة السويس كان عملًا اجراميًّا يستحق مرتكبه عقوبة الإعدام.

وسعادة «المستشار» حُر في رأيه وحُر في اختيار الخندق الذي يتحصن فيه. ولكن المضحك والمؤسف حقًّا أنه في الصفحة نفسها تعرَّض لسيرة أحد الوزراء الحاليين، فوصفه بأنه الأسد الهصور وأنه أقوى زملائه شخصية وأكثرهم ذكاء. وبعد أن استعرض تاريخه في كل المناصب الرفيعة التي تولاها، توقف عند منصبه الأخير في مجلس الوزراء، وكيف استطاع تحويل مقر المجلس من مبنى متهالك ومخازن للزبالة إلى قصر يُشرِّف أي دولة في العالم، ولأن الناس تخاف ولا تختشيش — هذا هو رأي «المستشار» في الناس — فقد كان على موعد مع سيادة الوزير في التاسعة صباحًا، ثم اكتشفت — «المستشار» وهو الذي اكتشف — أن الوزير سبقه إلى مكتبه. وعندما الْتَفَّ حوله الموظفون كان يؤدِّي لهم امتحانًا عسيرًا، يسأل كل واحد منهم عمَّا يفعل، ثم يعطي التعليمات الصارمة وهو لم يجلس على مكتبه بعد. وفي مكتبه يتحدث ويكتب وعلى أذنيه أكثر من سماعة تليفون. ثم يختم سعادة «المستشار» بك سطوره قائلًا: أرجوكم انتظروا منه المزيد وادعُوا له بالتوفيق.

هذه هي السطور التي كتبها السيد «المستشار» عن صديقه السيد الوزير الحالي. والعبد لله لا اعتراض له على الصفات التي خلعها السيد «المستشار» على صديقه الوزير. فربما هو أهل لكل هذه الصفات وربما لما هو أكثر من ذلك. ولكن العبد لله كان يتمنى أن يوفر السيد «المستشار» هذه السطور للوقت المناسب، عندما يأتي الوقت فيصبح الوزير خارج الوزارة. لأنه عيب جدًّا أن نكيل المديح لوزير يجلس الآن على كرسي الوزارة بينما نهيل التراب على ثورة مات زعيمها منذ ثلاثين عامًا، خصوصًا أننا لم نقرأ حرفًا واحدًا للسيد «المستشار» في زمن الثورة السيئة وأيامها السوداء. فهل كان يُؤْثِر السلامة ويأكل العيش بالبطيخ؟ وهل سيحتفظ برأيه في الوزير الحالي عندما يصبح وزيرًا سابقًا؟

وتبقى بعد ذلك نقطة واحدة، فالعبد لله لعظيم جهلي وفرط غبائي كنتُ أتصوَّر أن الفضل في تطوير مقر رئاسة مجلس الوزراء يعود للدكتور كمال الجنزوري رئيس

المجلس، ولكن شكرًا للسيد «المستشار» الذي كشف عن السر الذي غاب عنا جميعًا، وهو أن الفضل كله يعود إلى السيد الوزير ... الأسد الهصور أقوى زملائه شخصية وأكثرهم ذكاء! ثم مَن قال إن مقر مجلس الوزراء كان مبنًى متهالكًا مخازن للزبالة؟ مخازن للزبالة يا سعادة «المستشار» وهل كان ذلك طول الوقت؟ أم أنه كان كذلك في زمن جمال عبد الناصر فقط؟ طيب وماذا عن المبنى في عهد محمود فوزي، وعزيز صدقي، وعبد العزيز حجازي، وفؤاد محيي الدين، وعلي لطفي، وكمال حسن علي، وعاطف صدقي؟

وبعدُ يا سيادة «المستشار» عبارة واحدة وردَت في سطورك أوافقك عليها بشدة ... الناس تخاف ولا تختشيش ... وسطور سيادتك على صفحات الأخبار هي أعظم دليل على ذلك!

منظر وزارة باراك لا يطمئن ولا يسر عدوًّا ولا حبيبًا، وهي في حقيقة الأمر جبهة من جميع الأعداء. تضم أنصار السلام وأنصار الحرب، الحمائم والصقور، والفرائس والصيادين. ويخيل للعبد لله أن هذا التشكيل لم يأتِ من باب ... ليس في الإمكان أبدع مما كان. ولكنه تشكيل مقصود ومتعمَّد، كما أنه مرسوم بعناية ولغرض. فإذا اكتشف باراك أن الجو غير ملائم والحل الذي تقترحه الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة غير ملائم لإسرائيل وليس في صالحها، عندئذٍ سيقع الانشقاق في الوزارة، ويضطر باراك إلى التفرغ عدة أسابيع وربما عدة أشهر لكي يعيد تشكيل الوزارة. إنها ليست وزارة ولكنها لعبة حلوة؛ لأن باراك يحب أن يبدو في صورة الرجل الطيب داعية السلام الباحث عن طريق ليعيش في سلام مع جيرانه العرب، والإدارة الأمريكية سعيدة أيضًا بهذا التشكيل؛ لأن إدارة كلينتون لم يَبقَ لها في السُّلْطة إلا عدة أشهر. وهي حريصة على الاحتفاظ بوُدِّ العرب وصداقتهم، وحريصة أكثر على احتفاظ إسرائيل بالقُدس وبالجولان وجنوب لبنان وبالضفة الغربية. وهذه اللعبة التي رتَّبها باراك ستعطي الإدارة الأمريكية عذرًا يمنحها البراءة أمام العرب. ولكن ... أين العرب؟ العرب الذين كانوا خير أمة بين الناس فصاروا الآن «آخر» أمة بين الناس!

ويا رب ... ارفع مقتك وغضبك عنَّا عشان خاطر حبيبك النبي!

الانتخابات وميتة الأبطال

انتخابات الصحفيين هذه المرة، لم تكن سباقًا بين اتجاهات سياسية أو أيديولوجية، ولكن كانت عملية اختيار بين زملاء بعضهم أقدر على الحركة وباستطاعتهم تقديم خدمة أفضل.

وقد أثبتت النتائج أن الزملاء الذين فازوا في الانتخابات، هم أشبه بمنتخب صحفي، وعلى شكل باقة ورد من كل الألوان، ولكن الجديد فيها أن المجلس الجديد سيكون قادرًا على تقديم خدمة أفضل من المجلس السابق، لسبب بسيط جدًّا هو أن المجلس القديم انقسم إلى قسمين، قسم يضم مكرم محمد أحمد النقيب السابق ويؤيده قلة من الأعضاء، وقسم آخَر يريد أن يفرض رأيه حتى ولو تقطعت كل الحبال وغرقت كل السفن، ومع ذلك كان أداء مكرم محمد أحمد على درجة عالية من الوعي النقابي، وحارَب حتى آخر لحظة ضد المتآمرين الذين اخترعوا المدعو المطعني وأصدَروا جريدة «صاحبة الجلالة» لتكون لسان حال نقابة الصحفيين المستقلين، وهو اسم على غير مُسمًّى؛ لأن النقابة لم تكُن مستقلة، ولكنها كانت قفازًا يرتديه البعض لتحقيق بعض الأغراض.

وإن كانت هذه الانتخابات قد أفرزَت أكثر من اتجاه سياسي واضح، إلا أن جميع من فازوا بثقة زملائهم أو أغلبهم على الأقل، هم من أبناء المهنة ومن الحريصين عليها؛ ولذلك ستكون مهمة النقيب الجديد إبراهيم نافع سهلة، وطريقه سيكون واضحًا، وستشهد هذه الدورة عملًا نقابيًّا نشيطًا، ولكن أبرز ظاهرة في الانتخابات الأخيرة هي فشل بعض الذين كانوا يَحتلُّون مناصب رئيسية في التشكيل القديم، ولكنَّ أداءهم النقابي والمهني لم يكن يَشفَع لهم لكي يعيدهم زملاؤهم إلى المواقع نفسها، وهو درس مفيد ليس لأعضاء المجلس القديم ولكن لأعضاء المجلس الجديد، فثقة الزملاء ليست «أبونيه» يضمن مرور

العضو في كل انتخابات قادمة، وعلى من يحقق النجاح مرة أن يضاعِف من جهده لكي يضمن استمرار الثقة وإلى ما لا نهاية.

في المقابل استطاع بعض الزملاء من أعضاء المجلس القديم العودة على أكتاف زملائهم، وعلى هؤلاء الزملاء الذين أصابهم التوفيق مرة أخرى أن يحرصوا على ثقة زملائهم، والعبد الله واثق من قدرتهم على ذلك، لو اشتغلوا داخل المجلس كفريق وليس من خلال تكتلات ومَحاور، وأود أن أُقرِّر هنا وأنا مرتاح الضمير أنني متفائل بالمجلس الجديد وأرجو خيرًا في عهده، خصوصًا وقد لمستُ ذلك بنفسي، عندما وجه نادي الصحفيين النهري الدعوة لعدد من رموز المهنة وهم في الوقت نفسه من رموز العمل السياسي داخل المهنة، وقد لبَّى الجميع دعوة النادي، كما حضر النقيب السابق الأستاذ مكرم محمد أحمد، والنقيب الحالي الأستاذ إبراهيم نافع، وظهر واضحًا التفاف الجميع حول مبدأ مهم جدًّا، هو أن الاختيار سيكون على أساس من الذي يخدم أكثر وليس من الذي يهتف أكثر، وكشف مكرم محمد أحمد عن سر مهم جدًّا، أنه عندما قرر السفر خارج البلاد أثناء إجراء عملية الانتخاب ذهب إلى الشهر العقاري وكتب توكيلًا لأحد الأصدقاء يفوضه فيه انتخاب الأستاذ إبراهيم نافع كنقيب للصحفيين، وفي ذلك الاجتماع الذي كان نموذجًا على العمل النقابي النموذجي ظهر واضحًا أن المرحلة القادمة ليست مرحلة شعارات، وأن العمل النقابي يجب أن يحمي نفسه من النظرة الضَّيِّقة التي تحبس صاحبها في سجن الحنجوري أو في قفص الدروشة، النظرة التي تَعتَبِر كل مخالِف في الرأي كافرًا أو عميلًا، ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل، هي فوز أسامة الغزالي حرب بأقل مجهود يمكن لمرشح أن يبذله في أي انتخابات، في المقابل بذل إبراهيم حجازي مجهودًا كاد يذهب به إلى قرافة الإمام الشافعي، ولكن مجهوده لم يكن من أجل إدراك النجاح، ولكن من أجل تحقيق المركز الأول على جميع المرشَّحِين، وقد تحقق له ما أراد.

مبروك لنقابة الصحفيين مجلسها الجديد، ومبروك لإبراهيم نافع ثقة زملائه التي فاقت جميع التوقُّعات، وحظ أطيب في المرات القادمة لمن خانهم الحظ هذه المرة، وكنتُ أتمنى أن أراهم في المجلس الجديد، وعلى رأس هؤلاء الزميل الشاب سيد زكي، والزميل محمد نجم، اللذان أثبتا من خلال تجربتي معهما في نادي الصحفيين أنهما جديران بتمثيل جموع الصحفيين، وهارد لك على رأي الخواجات للزملاء المحترمين الذين نالوا احترام زملائهم بأدائهم المهني الطيب، والذين لم يوفقوا في هذه الانتخابات الأخيرة، وعلى رأسهم مجدي مهنا، وحاتم زكريا، ومرحبًا بالشاب الواعد ياسر رزق نجل صديقي الطيب

الصابر المرحوم فتحي رزق الذي نام سنوات في الخنادق في مواجهة العدو الصهيوني في زمن حرب الاستنزاف، وشكرًا لأخي وصديقي وزميلي مكرم محمد أحمد الذي لم يتأخَّر لحظة في تقديم خدمة ضرورية لأي زميل، ودعاء من القلب أن يوفق نقيبنا إبراهيم نافع في مهمته الصعبة، وإن كانت ليست صعبة عليه، فهو معتاد على حمل المصاعب والهموم.

مسكين عمنا الزعيم أوجلان، تمزَّق غشاء قلبه وهو يخطب خطبته الأخيرة أمام المحكمة التركية ظنًّا منه أن العدالة تتحقق بالكلمات الحارة المنتقاة، ولا أعرف كيف غاب على الزعيم أوجلان أنه رجل ميت منذ لحظة القبض عليه في العاصمة الأفريقية إياها، بل هو رجل ميت منذ أن تزعم الثورة الكردية ضد الأتراك، ومن عيوب الأتراك القاتلة أنهم لا يعرفون من الألوان إلا الأبيض والأسود، أما النوع الرمادي والنوع البمبي فليس لهم بها علاقة على الإطلاق، ومحاكمة أوجلان ما هي إلا نوع من المراسم الضرورية قبل تعليقه على حبل المشنقة، وما كان لرجل مثل أوجلان أن ينتظر أو يتوقَّع الإفلات من مصيره المحتوم، فمن يتصدَّى للقيادة خصوصًا في معركة من هذا النوع، عليه أن يتوقَّع أسوأ النتائج؛ ولذلك فدهشة العبد لله بموقف أوجلان ليس لها حدود، وربما كان موقفي هذا بسبب أنني لا زلت حتى الآن وبرغم تقدُّم السن رومانسيًّا ومتأثرًا بأشعار القدماء، وأُردِّد بين الحين والآخر بيت المتنبي ... الخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم ... ومع أنني قرأتُ أيضًا أن المتنبي أطلق ساقيه للريح عندما هاجمه القتلة، لولا أن خادمه صاح فيه ... ألست أنت القائل ... الخيل والليل والبيداء، فصرخ عمنا المتنبي في وجهه، قتلتني لعنك الله، وعاد لمواجهة أعدائه فقتلوه ... وبالرغم من أن حادِث قتل المتنبي تم في هدوء وفي الظلام، ولم يشهد قَتْلَه أحد إلا الذين قتلوه ... وبالطبع لم يتفوه أحد من هؤلاء القتلة بكلمة واحدة، إلا أنني أميل إلى تصديق القصة.

فالبطل ... أي بطل إنسان من لحم ودم ... والموت هو أسوأ حادث يتعرض له الإنسان. فإذا صرخ البطل أو خاف فعذره أنه إنسان، ولو كان البطل من حديد أو من زجاج لما استحق أن يكون بطلًا على الإطلاق ... عمنا البطل أوجلان ... لقد عشتَ بطلًا، وبَقِي أن تموت ميتة الأبطال.

والنصيحة ... ضبط النفس!

يا ميت حلاوة يا ناس على النظام العالمي الجديد، ها هي إسرائيل تطلب من الحكومة اللبنانية إخراج مقاتلي حزب الله من الجنوب، وهي صفاقة لم يشهد العالَم لها مثيلًا في أي عصر، وأفراد ميليشيات حزب الله لبنانيون منذ سيدنا آدم حتى الآن، والجنوب اللبناني أرض لبنانية، يعني بالعربي ... مواطنون يعيشون على أرض بلادهم، ومع ذلك فإسرائيل لا تَتردَّد في مطالبة لبنان بإخراج هؤلاء المواطنين من أرضهم، لكي تتاح الفرصة لعساكر إسرائيل بالإقامة في الجنوب والاستمتاع بمناخه الطيب وإنتاجه الممتاز من الفاكهة وشفط الأنفاس من حشيشه الجيد، إنها عملية تُشبِه إلى حد كبير أن تطلب حكومة السودان من حكومة مصر إخراج الصعايدة من الصعيد ... ولكن ... إذا كان كله عند العرب صابون، فكله عند صنف اليهود مشروع.

وفي ظل النظام العالمي الجديد كل شيء ممكن حتى تهجير جميع اللبنانيين من لبنان لكي ينعم اليهود بهدوء الحال وراحة البال، فلا مقاوَمة، ولا صواريخ كاتيوشا، ولا كمائن على الطريق، في الوقت نفسه ولتوضيح صورة النظام العالمي الجديد، وقف المندوب الأمريكي — شكر الله سعيه — ليدعو لبنان وسوريا وإسرائيل إلى ضبط النفس، يا سبحان الله، وهل كانت نفس لبنان مفلوتة؟ وهل كانت نفس سوريا أمَّارة بالسوء؟ إن الذي حدث يا عمنا المندوب الأمريكي أن بعض الأفراد من جيش إسرائيل كانوا يَتمشَّون أفرنجي على الأرض اللبنانية حين انفجر لغم تحت أقدامهم، فهل سأل المندوب الأمريكي نفسه ... وما الذي جاء بهؤلاء الإسرائيليين إلى لبنان؟ هل كانوا هناك للسياحة؟ هل كانوا في رحلة لنشر السلام والوئام بين أمم الأرض؟ إن الذين قتلهم اللغم الأرضي هم جنرالات إسرائيل وثلاثة جنود، والجميع كانوا يرتدون ملابس الميدان، ولكن المندوب الأمريكي

لم يجد أي غضاضة في دعوة جميع الأطراف إلى ضبط النفس، القاتل والقتيل والجاني والمجني عليه والجَزَّار والضحية.

إن موقف المندوب الأمريكي يشبه إلى حد كبير موقف عم متولي عندما شاهد خناقة حامية بين مصطفى لطفي فتوة الجيزة ومحمود الحكيم المواطن الضعيف المُعاق، وبينما انهال مصطفى لطفي على الحكيم طعنًا بالمطواة، اكتفى الحكيم بالتَّشبُّث بقميص الفتوة، وصاح عم متولي في الرجلين ... يا جماعة عيب وبطلوا ضرب في بعض، ضرب في بعض! يا للعهر! وهل ما يقوم به محمود الحكيم الغلبان نوع من الضرب؟! ولكن نقول إيه للنظام العالمي الجديد، وهذه هي قوانينه وهذه هي أخلاقياته، وهي قوانين تسمح لأي جهة بتوجيه نداء بضبط النفس لكل من الحكومة التركية والمناضل عبد الله أوجلان! وهل لا تزال هناك نفس من أي نوع عند أوجلان؟ ولكن في النظام العالمي الجديد لا خوف ولا خشا، لا عيب ولا أخلاق قرية ... المهم أن يكون لديك القوة وأن تجيد استخدامها، وأن تتولَّى الحوار مع الآخَرِين بعضلاتك، وأن تفرض إرادتك بكل وسيلة وأي وسيلة، وستجد دائمًا من ينصحك أنت وضحاياك بضبط النفس! ولا تقلق ولا تهتم، فضبط النفس هنا يعني ... بقاء الحال على ما هو عليه، يعني أنت تُواصِل الضرب وضحيتك تواصل الصراخ.

وإذا كانت أمريكا بجلالة قدرها تشاهد وتبارك وتدعو إلى ضبط النفس، فلماذا نقف نحن العرب ونكتفي بالمشاهدة على المباراة الدائرة منذ فترة بين دولة إسرائيل وحزب الله اللبناني؟

لماذا لا يسارع العرب بمساندة حزب الله بالسلاح وبالأفراد؟

لماذا لا تكفُّ أجهزة الإعلام العربية عن وصف حزب الله بأنه الموالي لإيران، مع أنه ليس مواليًا لأي جهة إلا للعرب وقضيتهم؟

ثم ... كيف ننفي عن أنفسنا هذا الشرف وننسبه إلى إيران؟ وهل مقاوَمة الاحتلال عيب؟ وهل التصدِّي للعدو الغازي لا يتفق مع أخلاق القرية؟ فهمونا يا خَلْق ... أين الخطأ؟ وأين الصواب؟ هل نستقبل الغزاة بالأحضان؟ أم نقتلهم ونتولَّى دفنهم في الطين والتراب؟ وحتى نتلقَّى جوابًا عن هذا السؤال، العبد لله يعلن بكل صراحة أنني بالرغم من ضعفي وهزالي وهواني على الناس، واستعدادي لخدمة مقاتلي حزب الله، أطبخ لهم طعامهم، أنظف لهم أوكارهم، أُلِّع لهم أحذيتهم، أطبع قبلاتي على أصابع أيديهم كل صباح وكل مساء ... وأعدكم بأن أستمر خادمًا لهم، ولا أتوقف حتى لو دعاني المندوب الأمريكي إلى ضبط النفس.

ومرة أخرى تتأكد صفات النظام العالمي الجديد في المؤتمر الذي انعقد في فرنسا لحل مشكلة كوسوفا، وقد تمخض الجبل في نهاية المؤتمر فولد فأرًا، حِلف الأطلنطي هدَّد وتوعَّد، ثم هز طوله وكشف عن معدنه فإذا به لا يستقوي إلا على الغلابة والذين انكسر جناحهم. وأذكر بالخير عمنا الكبير الدكتور طه حسين؛ وصف ذات مرة بعض مقالات الحنجوري قائلًا: يوناني فلا يفهم، وكنتُ أتصور أن أحدًا لن يستطيع إضحاكنا كما فعل الدكتور طه حسين، ولكن أخيرًا جاءت مدام أولبرايت بعد حوالي نصف قرن لتضحكنا بطريقة، ربما بطريقة أفضل مما فعل طه حسين، فقد خرجت من اجتماع المؤتمر الدولي لتعلن على العالم كله «لن يكون هناك قصف لمواقع عسكرية يوغسلافية إذا رفض ألبان كوسوفا المشروع الغربي للسلام.» وأكاد أقول لحضراتكم ... إن العبد الفقير إلى الله تعالى كان يَتوقَّع هذه النهاية لهذا المؤتمر الدولي؛ لأن يوغسلافيا القديمة أو صربيا الكبرى الجديدة، دولة أوربية على كل حال وفي النظام العالمي الجديد ... الأوربي للأوربي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكما قال أستاذنا وسيدنا الدكتور طه حسين: «يوناني فلا يفهم.» ترجمته السيدة أولبرايت بأسلوبها «أوربي فلا يهان» ولو كان المؤتمر إياه بخصوص إقرار السلام في دولة آسيوية أو أفريقية لانتهى المؤتمر في موعده المحدَّد تمامًا ولَقامَت الطائرات بالتحليق على الفور وبالتأكيد كانت ستنهال القنابل والصواريخ على أهدافها بالتمام والكمال؛ لأنه في النظام العالمي الجديد لا يمكن التسامح مع دول المستعمَرات القديمة، وكل مَن يلعب بذيله هناك، فلا بُدَّ من قطع ذيله على الفور، وكل من يحتج فلا بُدَّ من مواجهته بطريقة غَطَّاس، أما غَطَّاس مبتكر هذه الطريقة فهو عسكري شمروخ في معتقل الفيوم ويبدو أنه كان مؤمنًا بالنظام العالمي الجديد حتى قبل ظهور النظام العالمي الجديد نفسه، حدث عند دخولنا معتقل الفيوم وكان الدكتور عبد الرازق مقيدًا بسلسلة واحدة مع العبد لله، وسألنا الشاويش غطَّاس: اسمك ايه يا وله؟ وقال الدكتور عبد الرازق حسن: أنا مش ولد أنا الدكتور عبد الرازق حسن ... وأنا محتج! ورد الشاويش غَطَّاس: وكمان بتبجح، طب خد وعينك ما تشوف إلا النور، أكلها أجوازًا وأفرادًا ونال العبد لله من الحب جانبًا، وهذا بالضبط هو موقف النظام العالمي الجديد من الدول الغلبانة، أما موقفه من دول أوروبا فحَدِّث ولا حرج ... وأراهن حضراتكم على أي مبلغ ... مهما حدث من الصرب فلن يتحرك أحد لضرب قواعدها العسكرية، حتى لو تم إبادة شعب كوسوفا كله، وكل ما سوف يحدث، هو دعوة حلف الأطلنطي لجيش صربيا الكبرى ولشعب كوسوفا الغلابة بضبط النفس، ضبط النفس هو شعار النظام

العالمي الجديد حتى لو كانت المعركة الناشبة بين بطل العالم تايسون والعبد لله بعد أن وهَن العظم مني، واشتعل الرأس شيبًا.

ويا حضرة النظام العالمي الجديد، العبد لله هو الجهة الوحيدة المنضبطة النفس، والسبب أنني فقدتُ نفسي ومنذ وُلِدتُ وحتى اليوم.

يا عيني على الأكراد!

لم يظلم التاريخ أمة من الأمم كما فعل مع أمة الأكراد، والأكراد للعلم شعب من الآريين شأنه شأن الألمان، حقيقة أثبتتها عظام الجمجمة والملامح، فالشعر سايح ونايح والعيون ملونة، ومجموع الشعب مُوزَّع على أربع دول متجاوِرة؛ هي: العراق، وتركيا، وإيران، وسوريا، وفي سوريا لا حس ولا خبر عن المشكلة الكردية، يبدو أنهم ذابوا في الشعب السوري، ويبدو أن النظام العاقل في سوريا استطاع أن يرتفع إلى مستوى المشكلة، فلم تَعُد مشكلة على الإطلاق، وفي إيران المشكلة الكردية ليست ساخنة، ربما لأن إيران نفسها تضم عددًا من القوميات ... فُرس على تركمان على عرب على بلوشي، ولكن الوضع يختلف في تركيا وفي العراق، الموقف في العراق أفضل، وأكراد العراق يتمتعون بالحكم الذاتي، وفي حكومة العراق على مستوى الجمهورية يوجد نائب لرئيس الجمهورية هو الكردي طه معروف، وهو الذي اشترك في جنازة الملك حسين مندوبًا عن العراق، ومنذ زمن كان يشغل المنصب نفسه كردي آخَر هو محمود عثمان، ولكن أحيانًا وبالرغم من اعتراف العراق بالقومية الكردية كثيرًا ما تنشب الخلافات بين حكومة بغداد ورعاياها من الأكراد، وفي بداية السبعينيات احتدمت المعركة بين حكومة بغداد وأكراد الشمال، ووقفت إيران الشاه إلى جانب الأكراد وأنهكت المعركة حكومة بغداد وأفلست خزانتها، واضطرت حكومة بغداد إلى عقد صلح مع الشاه، وتم الصلح برعاية الجزائر وفي عاصمتها، وعاد الأكراد الهاربون إلى العراق، ولكنهم لم يعودوا إلى قراهم المتناثرة على رءوس الجبال، ولكن تم ترحيلهم وتسكينهم في جنوب العراق في محافظات البصرة والناصرية وذي قار، مع اختلاف المناخ والعادات والتقاليد، ففي جنوب العراق الحرارة صيفًا طاقة من طاقات جهنم، بينما الجو لطيف صيفًا في الشمال، والأرض تغطيها الثلوج شتاء، كما أن الكردي

أوربي في تصرفاته وسلوكه، فلا حجاب للسيدات ولا فصل بين الجنسين، بينما الجنوب تسوده تقاليد البادية وتعاليم الدين وقيود المذهب.

ومع ذلك هدأت الأمور بعد ذلك وعاد الأكراد إلى منطقتهم في العمادية وصلاح الدين وأربيل وسرسنك، ولكن الهدوء لم يستمر على الدوام، فقد هَبَّت عدة انتفاضات كان أخطرها ما حدث في قرية حلابشة، حيث استعمل العراقيون النابالم في ضرب الأطفال والنساء لقمع التمرد الذي حدث هناك، ولا يفوتنا أن نذكر أن إسرائيل لعبت دورًا خطيرًا في ثورة الأكراد ضد العراق، وقد اعترف بذلك الزعيم التاريخي للأكراد مصطفى البرزاني.

نأتي بعد ذلك إلى مربط الفرس ... إلى أكراد تركيا، والسياسة التركية مشهورة بعدم المرونة، وهي كما وصفها الفنان الخالد صلاح جاهين: تركي بجم سكر انسجم لاظ شقلباظ اتغاظ هجم، فلا اعتراف بالقومية الكردية ولا اعتراف بالتمايز بين الكردية والتركية، ولكن حتى الحديث بالكردية يُعتبَر خيانة، وأي حركة من جانب الأكراد هي تمرُّد، وأي اجتماع للأكراد هو مؤامرة، والسجون التركية مكتظَّة بالأكراد على كل لون! ولذلك استمرَّت الحرب بين الفريقين على مدى سنوات طويلة، ولكن أخطرها هي التي نظَّمها وقادها حزب العمال الكردستاني بقيادة الزعيم أوجلان، وعبد الله أوجلان ليس إرهابيًّا فلن يهاجم في حياته سفارة أو يهدم عمارة، ولكنه محارِب قاتَل برجاله في الجبال والوديان، ولكن الذي حدث أن الحدود والسدود انهارت تمامًا بين البطولة والإرهاب في ظل النظام العالمي الجديد، ومن حُسن الحظ أن رجالات من أمثال الخميني، وياسر عرفات لم يتحرَّكا في زمن النظام العالمي الجديد، ولو فَعلَا لمات الخميني في أحد سجون طهران، ولكان عرفات يقضي أيامه الأخيرة الآن في أحد سجون لندن، إن نهاية عبد الله أوجلان هي إحدى مآسي هذا العصر، والطريقة التي تَمَّت بها عملية اختطافه من كينيا هي الدليل الدامغ على أخلاقيات وسلوكيات النظام العالمي الجديد.

لقد كشفَت عملية اختطافه أن الإنسان الفرد سواء كان صعلوكًا أو زعيمًا هو مجرَّد فأر تطارده مئات من القطط السمان. إذا نجح في الهروب من مخابرات أمريكا وجَد خلفه مخابرات بريطانيا، وإذا حالفه الحظ في الإفلات من مخابرات بريطانيا وجد وراءه مخابرات بلجيكا، ومخابرات هولندا، ومخابرات تركيا، ومخابرات ألمانيا، وصولًا إلى مخابرات كينيا، ومخابرات سيراليون، ومخابرات سيريلانكا.

في أيام القوتين العظميين كان شعار الغرب يا أنصار الديمقراطية اتَّحِدوا، ولكن الآن سقطَت كل الشعارات ولم يَعُد هناك سوى شعار واحد ... يا مخابرات الغرب اتَّحِدوا.

في هذا العصر لم تَعُد هناك فرصة لظهور جومو كينياتا جديد، ولا نكروما آخَر، ولا ماندیلَّا صغير أو كبير، ولا أمل حتى في رؤية مثل هذه النماذج مرة أخرى، ففي ظل النظام العالمي الجديد ... الأدب فضلوه على العلم وعلى الثورة وعلى طلب الحرية، والسلوك الأمثل لأحرار العالم الآن هو المشي جنب الحيط، فلا احتجاج ولا اعتراض، ولكن المسموح به هو طلب الرحمة وطلب العفو، ونحمد الله لأننا عشنا فترة طويلة في ظل النظام العالمي القديم، وأسعدَنا الحظ برؤية رجال من أمثال: جمال عبد الناصر، والأسقف مكاريوس، ولومومبا، وسوكارنو، وأحمد بن بللا، وهواري بومدين، وغاندي، والباندیت نهرو، ويا أسفي الشديد؛ لأننا من هنا وإلى زمن طويل قادم لن يرى أحفادنا إلا رجالًا مُهذَّبِين مطيعين متمسكين ومُتشبِّثين بخط النظام العالمي الجديد؛ أمثال: بينوشيه دكتاتور شيلي، ويلتسين مريض الإمبراطورية الروسية، وبلير وريث الإمبراطورية البريطانية.

عصر النضال والقتال من أجل الأوطان. وداعًا للرجال من طراز ... ولله رجال إذا أرادوا أراد، وداعًا لزمن الجُود بالنَّفس أسمى غاية الجود.

أما المناضِل عبد الله أوجلان فقد ضاقت به الدنيا بما رحُبَت، انطبق عليه قول الشاعر البائس عبد الحميد الديب:

... ... فتًى تزيد على أنفاسه المحن
إذا مضى فجميع الأرض قبلته وإن أقام فلا أهل ولا وطن

وحظه أسود من أسفلَت الطريق؛ لأنه رجل واحد في مواجَهة النظام العالمي الجديد، وعلى رأي المطربة خضرة ... والحظ لو مال مين يعدله تاني؟ ... مين؟ إلا رب العباد. وسلام عليك يا أوجلان في سجنك، وطبت حيًّا وميتًا يا رفيق!

الله يرحمه ويحسن إليه أخونا المرحوم طارق المؤيد وزير إعلام البحرين السابق، المثقف العربي الواعي بقضايا قومه صديق مصر في كل المواقف والأحوال، فوجئتُ بوفاته من نعي نَشرتْه الصحف المصرية باسم السيد صفوت الشريف وزير الإعلام، مع أن الرجل كان في أتم صحة وعافية ولم أسمعه يشكو من مرض خطير على الإطلاق، ولكن يا سبحان الله، الموت لا يحتاج إلى أسباب، ولكنه كأس على البني آدمين دوَّار، وقد يموت السليم الصحيح ويعيش السقيم المرضان، حكمته سبحانه وتعالى ولن تَجِدُوا لحكمته تبديلًا، ولكن ذكرى المثقف العربي طارق المؤيد ستبقى إلى الأبد عند أصدقائه ومُحبِّيه

حية ونابضة إلى زمن طويل، فهو لم يكن مثقفًا عروبيًّا له موقف وله وجهة نظر، وكان يرى أن عربًا بدون مصر أشبه بجسد بلا رأس، ولذلك كانت البحرين أول دولة عربية تذيع برامج القناة الفضائية المصرية من خلال التليفزيون البحريني وبدون رقابة من أي نوع. وكان يحلم بيوم يتم فيه توحيد البرامج التليفزيونية العربية، وكان يحلم بامتداد العمر حتى يتسنَّى له رؤية هذا اليوم.

وداعًا أخونا طارق المُؤيد، وعزاء من القلب للسيدة حرمه ولأسرته الصغيرة ولحكومة البحرين.

ووداعًا أخونا طارق المؤيد، وعزاؤنا الوحيد أننا كلنا سنموت.

شكرًا لعمدة البنوك!

ابن حارتنا العزيز محمود السعدني الكاتب اللَّوذعي
تحية طيبة وبعد:

يعلم الكل أن القادرين على مقارعتكم قليل، أما الأسلوب المتمكن بسخرية، فهو تَفرُّدُكم بلا مُنازِع، وأين أنا من كل ذلك ... تعلم يا صديقي وعمدة حارتي ... أنه سبق لنا منذ سنوات قليلة حديث مماثل تم بالمصادَفة في أحد مطاعم لندن بحضور وزير خارجيتنا الألمعي وسفيرنا هناك، عن موضوع قروض البنوك نفسه، والمبالَغة الصحفية في التهويل في تناوُل هذا الأمر حتى ظن القارئ أن أموال البنوك سداح مداح، وحَقٌّ مُباح لكل من يمر على البنك، والهبر أساس العمل المصرفي — وأعتذر عن الاقتباس عنكم — وأصابَنا هذا في الصميم، وانتعش العمل الأدبي والفني على حساب هذا الجهاز السيئ الحظ، ولا أدَّعِي لنفسي أي حق إلا ما دعوتني لتوضيحه، وأصدقكم القول إن ما قام به الجهاز المصرفي من جهد وعمل يَندُر أن تقوم به بنوك دول أخرى بالمنطقة في مرحلة للإصلاح الاقتصادي. بدأت منذ ثماني سنوات فقط من نظام اقتصادي مركزي إلى اقتصاد السوق، بكل تَحدِّيَات التحول ومشاكله، وقطاع خاص أسند إليه غالب النشاط الاقتصادي، وعُمْر هذا القطاع وتاريخه وتكوينه لا يخفى على أحد، إن القرار المصرفي إذا تم بعد أخذ عناصره في الحسبان، وتم بلا غرض أو هوى أو منفعة شخصية فلا تثريب ولا مسئولية على من اتخذه، والبنوك جزء من كيان المجتمع تحمل كل صفاته وأخلاقياته، ولا بُدَّ أن هناك نسبة اختلال أو ضعف أو حتى انحراف ولكن ما هي النسبة؟ وكيف؟ ولماذا؟ ... إلخ.

أسئلة كثيرة إجابتها في اختصار أنَّ الخلل والتَّعثُّر نسبته أكثر من مقبولة أخذًا في الاعتبار ... كيف؟ ... ولماذا؟ أما الانحراف والفساد — ونحن كمصريين نتفق تمامًا مع الجميع على ضرورة التصدي له بحسم وقوة — فبنسبة لا تُقاس بما يحدث في العالم كله أثناء مراحل التحوُّل الاقتصادي. أين نحن مما يحدث في صديقتكم روسيا وغيرها؟! بل قام القطاع الخاص المصري بدور عظيم — رغم حداثته — في هذه المرحلة من تعاظُم دوره حتى بلغ نحو ٦٥٪ من النشاط الاقتصادي.

أخي الكبير العزيز:

إن ما جاء بمقالك من تعميم ظالِم بأن جميع فروع البنوك في كل أنحاء مصر مُتورِّطة في هذا النهب والنزيف، ولا شك أنك لا تقصده يقينًا. بل وإن الشرفاء من رجال بنوك مصر فَخُورون بأعراف وتقاليد مصرفية وُضِعَت بمصر منذ أكثر من قرن من الزمان، وصديقك الإنجليزي إياه مخطئ تمامًا كمصرفي، فالعِبرة بقوة الضمان، وليس بضرورة كونه خارج الحدود ولو من «تشيس مانهاتن».

يا صديقي العزيز ... ارحمونا يرحمكم الله فنحن نحتاج تَفهُّمَكم، ونحن نعمل في ظروف بالِغة الصعوبة، ورياح المنافَسة والتغيير قادِمة من الخارج بلا ريب، ولدينا رقيب قَوي لا يقبل أي خلَل وليس انحرافًا، وقضاؤنا العادل هو أَملُنا في الإنصاف، فالبنوك هي القلب المُحرِّك للنشاط الاقتصادي لمجتمع يطمح إلى كَسْر حلقة الكساد والانتعاش والنمو.

يا ابن حارتي العزيز ... لن يستطيع مثلك أن يحصل على أي قرض بأي مبلغ إلا إذا كان لغرض مُحدَّد مشروع، وقُدرَتك على سداده بادية من التَّدفُّقات أو الجدوى، أو قدرتك على إدارته بدون ضمان من خالتك بهانة.

والمساحة لا تكفي يا عزيزي ... ولو دعوتني إلى فنجان شاي سأوضح لك ما بقي من غموض.

مع تحياتي ومحبتي
محمود عبد العزيز

الأخ والصديق البنكير محمود عبد العزيز، رئيس البنك الأهلي المصري ورئيس اتحاد البنوك العربية، وهو قبل ذلك وبعد ذلك ابن حارتنا، وهو شرف كبير أن يكون عمدة المصارف العربية من أبناء حارتنا. وواجب عليه الدفاع بشدة عن جميع المصارف في العالَم العربي عمومًا، وعن المصارف المصرية على وجه الخصوص، وإذا كان يعتب علينا لأننا نُبالِغ أحيانًا في اتهاماتنا للجهاز المصرفي ... وله حق في هذا العتاب ... فنحن نعتب عليه أيضًا مبالغته في الدفاع عن جميع البنوك المصرية. وإذا كان العبد لله يعترف بأن معلوماتي عن الأعمال المصرفية هي الخالق الناطق كمعلومات خالتي بهانة عن اللغة الكمبودية. إلا أن ما نقرؤُه في صفحة الحوادث عن بنوك نُهِبَت وأموال سُرِقَت تجعل أمثالي من الهواة يَتصوَّرون أن هناك خللًا ما لا نستطيع إدراك حقيقته، وحبذا لو تكرَّم عمنا محمود عبد العزيز وشرح لأمثالنا من الذين لا يعرفون حقيقة المسألة وكيف يسمح بنك ما بإقراض رجل من أمثالنا عدة ملايين بدون ضمانات حقيقية. كيف حصلت السيدة علية العيوطي على هذه القروض؟! وما هي الضمانات التي قدَّمَتها حتى يحتفظ البنك بحقه إذا ضربت السيدة أو غيرها بمبة وهات يا فكيك؟!

بالطبع لا شك في أن هناك شرفاء بين رجال البنوك وهناك كثيرون حريصون على المال العام، ولكن لا شك أيضًا أن هناك أناسًا آخَرين من بتوع الثلاث ورقات، ويصبح الجو بديع والدنيا ربيع لو قَضينا على هذا الصنف من بتوع الفريكيكو. والعبد لله يوافق السيد رئيس البنك الأهلي في أن هناك من بين الذين اقترضوا ولم يُسدِّدوا مواطنين شرفاء عجزوا عن السداد لظروف قهرية، وهؤلاء لا ملام عليهم؛ لأن ظروف السوق تحكم أحيانًا، كما أن غدر الزمان وارد في أمور التجارة وفي مصير التجار. ولكن واضح من الحوادث التي نقرأ تفاصيلها أن بعضهم اقترض وهرب مع سبق الإصرار والترصد وأن بعض الذين ارتكبوا هذه الجرائم استغلوا بعض الثغرات، كما استعلوا بعض ضِعاف النفوس وهذا بالضبط هو ما نطالب بمواجهته بقوة وبحزم حتى نمنع عملية نَهْب مصر من جانب بعض من لا ضمير لهم ولا شرف، وأعتقد أنه لا يوجد أقدر من محمود عبد العزيز لوضع الخطط اللازمة لمواجهة مثل هذه التصرفات التي تصيب مصر في الصميم.

إن قصص بعض الذين نهبوا وهربوا هي مأساة تصيب القلب وتُدميه. فالذي يهبر مائة مليون دولار يترك خلفه مائة ألف عاطل ومائة ألف مُتسوِّل ومائة ألف مريض لا يجد لمرضه علاجًا على الإطلاق، وضَرْب هؤلاء واجب وطني وينبغي أن يشمل الضرب هؤلاء المتواطئين معهم من رجال البنوك ولا يضير الجهاز المصرفي أن يكون من بين رجاله بعض الفاسدين ولكن الذي يضيره حقًّا أن يفلت هؤلاء الفاسدون من العقاب.

والعبد لله شخصيًّا يعرف بعض رجال البنوك معرفة شخصية ويعرف كم عانى هؤلاء الشرفاء من الفَلس وضيق ذات اليد مع أنه كان من السهل عليهم أن يعيشوا عيشة الحباكين وغيرهم من كبار الهابرين. والكورة الآن في مَلعب الأستاذ محمود عبد العزيز ابن حارتي التي تَتشرَّف بانتسابه إليها، ويستطيع بخبرته الطويلة وعلمه الغزير وتجربته الواسعة أن يُقدِّم لنا حلًّا لوقف هذا النزيف الذي تَسبَّب في ضرب اقتصاد مصر حيث تَسرَّبت ملايين الدولارات والجنيهات إلى من لا يستحق بمساعدة بعض الذين لا يملكون.

شكرًا للأخ الكبير محمود عبد العزيز، رئيس اتحاد البنوك العربية على خطابه الرقيق، وشكرًا له مرة أخرى على جهوده القادمة لمنع هذه الجريمة في المستقبل القريب.

نصبة القرن الجديد!

وهكذا انتهى القرن العشرون وبدأ القرن الحادي والعشرون «بنصبة» هي بالتأكيد «نصبة» جميع القرون، فلا حدث مثلها من قبل ولن يحدث مثلها من بعد. إنها مشكلة الصِّفْرَين التي هدَّدُونا بسببها بالويل والثبور وعظائم الأمور، فالطائرات سوف تَتساقَط كالذُّباب، والصواريخ سوف تنطلق وحدها، والأرصدة في البنوك سوف تنكمش، والعالم كله مقبل على خراب ولا خراب مالطة. وفَتحَت الدول الكبرى خزائنها وأنفقت المليارات، ليس بالعشرات ولكن بالمئات لمنع الخراب المستعجل الذي سيلحق بالبشرية، الولايات المتحدة أنفقت مائة مليار تقريبًا، وفعلت أوروبا الشيء نفسه، وكذلك فعلت اليابان، ولم يتضح بالضبط ما الذي فعلته روسيا على وجه التحديد. ولكن كل المؤشرات تُؤكِّد أن كل دول العالم أنفقَت مَبالغ لا بأس بها، وهي مَبالغ ذهبت كلها إلى خزائن شركات الكمبيوتر، وهي شركات لا تُوجد بالطبع في الكونغو، أو في موريتانيا، ولكنها موجودة في الدول الكبرى التي أطلقت إشاعة الصفرين، ونَشرَت معها وفي أعقابها التهديدات بسقوط الطائرات، وانطلاق الصواريخ الحاملة للرءوس النووية. وصدَّق العالَم شائعة الصِّفْرَين وما سوف يتبعها من حوادث وكوارث. وعندما جاء الوقت الذي حددوه لوقوع الكارثة لم يحدث شيء على الإطلاق، لا الطائرات هَوَت من السماء، ولا الصواريخ انطلقت على هواها، ولا حسابات البنوك أصابها التلف. مر اليوم الموعود كما مر غيره من الأيام، وتَبيَّن للناس أن حكاية الصِّفْرَين هي مجرَّد شائعة، وأنها مجرَّد «نصبة» ثقيلة، تتضاءل إلى جانبها نصبة شركات توظيف الأموال. ولكن إذا كانت الحكومات قد وقفت بحزم في وجه أصحاب شركات توظيف الأموال، فمن يجرؤ على الوقوف في وجه الذين أطلقوا شائعة الصِّفْرَين؟ ومن يتصدَّى لمحاسبة الذين أشاعوا الخوف في نفوس البشر، وأجلسهم على سطح صفيح ساخن عدة أشهر قبل أن يحل الموعد الذي حددوه؟ وهو اليوم الذي ثبت للجميع أنه يوم

مثل كل الأيام، وأن حكاية الصِّفْرَين هي نتيجة لقعدة مزاج استعملوا فيها كميات ضخمة من مسحوق وارد دولة كولومبيا، وأن العملية كلها لا تخرج عن نطاق المثل الشعبي ... رزق الهبل على المجانين. أما الهبل فهم شركات الكمبيوتر، أما المجانين فهي حكومات الدول القوية الغنية المفترية، التي منحَتْها الأقدار كل شيء ... الثروة والقوة، ولكنها في الوقت نفسه سَلبَتْها راحة البال ونعمة الاطمئنان والشعور بالأمن والأمان.

للمرة الأولى شاهدتُ بيوتًا شعبية تحيط بها حدائق غَنَّاء، متناثرة في حدائقها مقاعد ليجلس عليها المتنزهون. والمساكن الشعبية نفسها حماماتها مبطنة بالرخام، وأرضياتها مكسوة بقيشاني فاخر، ونوافذ الشقق تطل كلها على الحديقة، والتكلفة بالنسبة للشقة ٢٨ ألف جنيه لا غير.

بعد جولة في المساكن الشعبية إياها قلت لرجل الأعمال ابراهيم كامل ... هذا المشروع هو فتح جديد في مجال المساكن الشعبية؛ لأن المساكن الشعبية كانت حتى قيام هذه المساكن التي نتجول فيها اليوم، كانت حوائط أسمنتية تحيط بها مستنقعات وكهوف وحفر تسكنها زواحف. ولكن هذه أول مرة يعامل فيها سكان هذه المساكن معاملة آدمية. أجاب إبراهيم كامل ... هذا هو هدف الذين شاركوا في إقامة هذا المشروع.

قلت ... يبقى هناك خطوة لتحديد الوصف الذي يمكن أن نطلقه على هذا المشروع.

هذه الخطوة هي لمن سيجري تأجير هذه الوحدات السكنية؟

وأجابني إبراهيم كامل ... من رأى الذين ساهموا في إقامة المشروع أن تكون الأفضلية للناس الذين كانوا يقيمون في أكواخ على أرض المشروع نفسه. لو سلمنا الشقق لهم فسيكون المشروع خطوة مهمة جدًّا لرفع مستوى هذه الطبقة التي تحالفت ضدها كل الظروف وكم من مساكن أقيمت باسمها، ولكن بعد انتهائها تم تَسليمُها إلى فئات أخرى لا علاقة لها بالناس الذين أُقيمَت المساكن باسمهم.

سألتُه ... ولماذا لا تَقومون بتسليم الشقق للناس الذين كانوا يُقيمون على أرض المشروع قبل بنائه، أجاب بأن الرأي استقرَّ على تسليم المشروع للمحافظة، وهي التي تتولَّى توزيع المساكن على المُستحقِّين.

قلتُ: لا بأس من الانتظار حتى يتم التوزيع على المستحقِّين، ثم نطلق الوصف المناسب على هذه المساكن، وهل هي مساكن شعبية بالفعل؟ أم هي مساكن شلبية؟ سألني ... ومن هي شلبية؟

قلتُ ... امرأة من بلدنا كانت تبيع الفول والطعمية عند الجسر الذي يؤدي إلى قريتنا. ولما كانت خالة شلبية ست طيبة ومؤمنة بالله، فكانت تخصص من الطعام الذي تبيعه كمية للفقراء وأبناء السبيل. ولكن هذه الكمية من الطعام التي كانت خالة شلبية تخصصها كل يوم للفقراء وأبناء السبيل، لم يذهب منها شيء في أي وقت لهؤلاء الذين كان من المفروض أن تذهب إليهم، فقد كان الخفير النظامي عبد الصبور يحضر كل صباح لتناول فطوره، وكانت خالة شلبية تضطر لإخراج إفطاره من نصيب الفقراء. وكان الولد البلطجي أبو ليلة الأقرع يطلب إفطاره من خالة شلبية، وكانت تعطيه ما يطلبه من نصيب الفقراء والمحتاجين. وبالرغم من عدم وصول شيء من طعام خالة شلبية إلى الفقراء والمحتاجين، فقد ظلت النية متوفِّرة لديها، وهي مأجورة على ذلك باعتبار ... أن الأعمال بالنيات!

الأوحد في تونس!

لحسن الحظ أن العبد لله كان الصحفي العربي الوحيد الذي وضع قدميه على أرض تونس بعد جلوس بورقيبة على دِكَّة الحكم، وكان بورقيبة قد مَهَّد لهذا الحدث التاريخي بعزل باي تونس وإعلان الجمهورية. والحق أقول إن بورقيبة كان أحق الناس بمنصب رئيس الجمهورية، فهو الوحيد من بين زعماء تونس الذي بدَّد شَبابه كله في المنفى وفي المراقبة والمطاردة والسجن، وكان قبل ذلك قد عاد إلى المنفى ومعه وثيقة استقلال تونس، ولكنه فوجئ بمعارضة شديدة من بعض الزعماء الذين اعتبروا الاستقلال الذي جاء به بورقيبة إنما هو استقلال منقوص، وأنه مُجرَّد لعبة فرنسية لتنفرد فرنسا بثورة الجزائر لتقضي عليها. ولكن بورقيبة دافَع بشدة عن الاستقلال الذي جاء به وتَعهَّد بأنه سيحقق الاستقلال التام، ولكن بأسلوب الخطوة خطوة. وأكَّد أن تونس في ظل هذا الاستقلال المنقوص ستكون مَقرًّا ومَمرًّا للثورة الجزائرية. وكان صالح بن يوسف هو أخطر الزعماء المعارِضين لبورقيبة وكان يتميز بثقافة واسعة وموقف مبدئي، كما كان يجيد الحديث في القاعات المُغلَقة والصالونات المخملية، بعكس بورقيبة الذي كان يجيد الحديث مع رجل الشارع وكان يسيطر بشدة على قواعد الحزب وكوادره، وكان باستطاعته اشعال النار في الشارع بإشارة وباستطاعته أيضًا إطفاء النار بإشارة، وفجَّر بورقيبة قنبلة حين دعا لعقد مؤتمر سياسي حضرته عدة وفود عربية، ودعا إليه صالح بن يوسف وجماعته لعرض وجهه نظره علنًا على الجماهير والدخول مع بورقيبة في مناقشة علنية، ثم الاحتكام إلى الجماهير، ولكن صالح بن يوسف رفض عرض بورقيبة وغادر تونس في اليوم السابق على انعقاد المؤتمر ولجأ إلى القاهرة. وانعقد المؤتمر في صفاقس، وشرح بورقيبة وجهة نظره للجماهير، كما شرح وجهة نظر صالح بن يوسف، واحتكم إلى الحزب فَصوَّت الحزب إلى جانب بورقيبة.

وكان مؤتمر صفاقس هو الحد الفاصل في حياة بورقيبة وفي حياة تونس، فقد حصل بورقيبة من المؤتمر على تفويض كامل يفعل في تونس ويفعل بها ما يشاء، وقد نفذ بورقيبة رغبة مؤتمر صفاقس وحكم تونس على هواه، واستكمالًا للشكل رَتَّب لنفسه جولة شاملة في أنحاء تونس ومن حدود ليبيا إلى حدود الجزائر، وكان من حُسن حظ العبد لله مرافقة الحبيب بورقيبة في هذه الجولة التي مسح فيها تونس شبرًا شبرًا، وخاطَب فيها كل فرد من أفراد الشعب التونسي. كان بورقيبة الذي عاش فترة في مصر أثناء كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي قد تأثَّر تأثرًا شديدًا بالزعيم مصطفى النحاس. وقد لاحظتُ هذا التأثر في حركاته، وفي أسلوب خَطابَته، وفي تعامُله مع الجماهير خصوصًا في المؤتمرات الشعبية التي عقدها أثناء الجولة.

ولكن بعد استماعي إلى عدد من خطبه التي ألقاها على أسماع الجماهير اكتشفتُ أن تأثره بالنحاس كان من ناحية الشكل وليس من ناحية الموضوع، وأن بورقيبة يُشبه النحاس باشا في الشكل ولكن هناك فرق. لقد كان النحاس فوق كونه زعيمًا جماهيريًّا، زعيمًا وطنيًّا من أعلى طراز، وكلنا نذكر أن النحاس باشا رفض قبول النقطة الرابعة الأمريكية ورفض إرسال فرقة من الجيش المصري للاشتراك مع القوات الأمريكية في حربها ضد كوريا الشمالية، وبحسه الوطني الرفيع عقد معاهدة ١٩٣٦م مع الإنجليز ثم قام بإلغائها عام ١٩٥١م، ودعا الشعب إلى الكفاح المُسلَّح ضد قوات الاحتلال في منطقة القناة.

ولكن الزعيم بورقيبة كان على عكس ذلك تمامًا، كان أمريكيًّا مخلصًا حتى قبل أن يتفتت الاتحاد السوفييتي وتنفرد أمريكا بحكم العالم، وكان يهزأ بكل القيم الوطنية من أول الوحدة إلى العروبة إلى الحياد الإيجابي. وبعد أزمة السويس وإعلان مبدأ أيزنهاور ورفض مصر لهذا المبدأ أعلن بورقيبة قبوله لمبدأ أيزنهاور حتى قبل أن ينتهي أيزنهاور من عرض برنامجه في أجهزة الإعلام. ووصف فرنسا بأنها الوطن الأم ولكن تونس كَبرت وتريد أن تستقل بشئونها مع الاحتفاظ بطاعة الأم والاستماع إلى نصائحها دائمًا.

ما أبعد الفارق بين بورقيبة وبين مصطفى النحاس، الشبه الوحيد بينهما كان في الخطابة وطريقة إجراء الحوار مع الجماهير. في أحد المؤتمرات الشعبية وبينما كنا نسير في الشارع وبورقيبة مُحاط بالألوف من الناس، توقَّف بورقيبة فجأة وجذب نحوه سيدة عجوزًا واحتضنها وقبَّلها وصاح بأعلى صوته مناديًا على عامل المدينة وهو منصب يشبه رئيس المدينة، وجاء عامل المدينة فجذبه بورقيبة إلى جانبه ووقف يخاطب الجماهير قائلًا

... هذه المرأة لها فضل على الزعيم «ديالكم» هي التي أخفت الزعيم «ديالكم» في دارها عندما كنتُ مُطاردًا ومطلوبًا وهي التي أطعمَت الزعيم «ديالكم» عندما كنتُ جوعان ولا أجد ما أسد به رمقي، وكانت شُجاعة عندما خانت الشجاعة الرجال. ثم نظر إلى عامل المدينة قائلًا ... هذه المرأة المناضلة العظيمة ... أنا أطلب إليك أن تعمر لها بيتًا وأن تُجري عليها راتبًا مناسبًا حتى الممات ... مفهوم ... وانحنى العامل عدة مرات وظل منحنيًا حتى غادر بورقيبة المكان وصار بعيدًا عن المرأة ... وبالطبع كانت هذه الحركة هي إحدى الحركات البورقيبية الشهيرة، فكان يتوقف في كل شارع ويصدر عدة أوامر للمسئولين في المدينة برفع المَظالم ورَد الحقوق ومراعاة العدل، ولم يكن يتحقق أي شيء من هذه الأوامر على الإطلاق ولكنها كانت تترك أثرًا عظيمًا في الشارع التونسي، وفي أثناء تلك الجولة التي استغرقَت شهرًا لم يكفَّ في أي مرة اجتمع فيها بالجماهير عن سبِّ جمال عبد الناصر واصفًا إياه بأنه تلميذ صغير في مدرسة الديكتاتورية. وأنه ليس من صنف المناضلين؛ لأن أحدًا لم يسمع به في الشارع قبل وصوله إلى السُّلطة، وقال في أحد الاجتماعات ... لقد أردتُ أن أنصحه ولكنه لم ينتصح، ولذلك توقفتُ عن نصحه. إنني لن أخسر شيئًا ولكنه هو الخاسر.

ووصف حركة عدم الانحياز بأنها حركة لا معنى لها؛ لأن سر الحياة في الانحياز، حركة عدم الانحياز التي كانت تضم نهرو، وتيتو، وعبد الناصر لم تكن تعجب بورقيبة؛ لأن الانحياز في رأيه هو سر الحياة، وتولَّى هو شرح هذا المعنى قائلًا ... هل تستطيع أن تستمتع بمباراة كرة قدم دون أن تكون منحازًا لفريق؟! وكان بورقيبة يتصور بأنه بهذه العبارات الإنشائية الساذجة أحد عباقرة العالم في دنيا السياسة. وفي آخر يوم في جولتنا جلسنا بعد انتهاء الجولة في أحد المقاهي الشعبية وكنا مجموعة من الصحفيين كلهم من تونس والعبد لله هو الغريب الوحيد. وكان معنا مسئول صغير في الحزب الحر الدستوري التونسي وكان مستواه كمستوى أمين مكتب الاتحاد الاشتراكي في مركز العياط ولكنه كان يجلس وسطنا كأنه المارشال مونتجمري بعد حركة العلمين، وراح يشرح لنا الحكمة وراء كلمات بورقيبة. ثم ختم حديثه قائلًا: لو أراد الله خيرًا للأمة العربية فسيتحد العالم العربي كله تحت رئاسة الزعيم بورقيبة؛ لأنه هو وحده الذي سيقود العرب إلى قمة المجد.

أذكر أنني علَّقتُ بكلمات ساخرة قبل أن نقوم من مجلسنا ونرجع عائدين إلى العاصمة تونس. وفي الصباح الباكر كان سفيرنا في تونس على الخط الآخر في التليفون يُعاتبني بشدة على الكلام الذي قُلته في القهوة ليلة الأمس. نفيتُ له أن أكون قد قُلتُ ما

سمعه وأن ما قُلتُه في القهوة لم يكن أكثر من مداعبة وسخرية في مواجهة سبٍّ مباشر لحكومة بلدي ورئيسها ونظامها دون أن يكون هناك داعٍ على الإطلاق.

قال لي السفير استعد وسأَمُرُّ عليك بعد دقائق. وارتديتُ ملابسي وانتظرت السفير على باب الفندق وعندما وصل ركبتُ معه في سيارته وبعد دقائق كنا في قصر الرئاسة، وفي حضرة الرئيس بورقيبة وقف السفير يشرح للرئيس أنني ما جئتُ لتونس إلا لكي أنشر قصة كفاحه وجهاده ونضاله على صفحات الصحف المصرية، وأنني من أشد أنصار بورقيبة ومن أشد المُتحمِّسين له. وقال له ... سترى سيادتك بعد عودته إلى القاهرة الصفحات الطوال التي سيكتبها عن نضال وكفاح سيادتكم.

وقال بورقيبة كأنه يخاطب الجماهير في الشارع ... أنا زعيم باعتراف العالم كله ولا أحتاج إلى اعتراف من أي جهة كانت ... وطَيَّب السفير خاطره بكلمات كثيرة حتى هدأ روعه ... فنظر إلى العبد لله ومد يده نحوي وصافحني بشدة وقال ... سأضمك للحزب الدستوري لتكون على مَقرُبة مني ولكي تتعلم في مدرستي السياسية ... وعندما خرجنا من مكتب بورقيبة قال لي السفير ... عاوزك تَبيَّض وِشي بقى. ووعدتُه خيرًا وانطلقتُ عائدًا إلى القاهرة.

كنتُ قد كتبتُ سلسلة مقالات عن الرحلة بعنوان الرجل الأوحد في تونس، وقلت في مقدمة السلسلة ... إن بورقيبة هو الرجل الذي لم يترك أحدًا إلى جواره واقفًا على قدميه والحريص على سد كل الثغرات التي حوله حتى لا تكون هناك فرصة لمرور أحد من الجيل الجديد حتى لا يكون خطرًا عليه في المستقبل. وهذا الوصف الذي صكه العبد لله وانتحله عبد الكريم قاسم بعد ذلك بعدة سنوات. وبعد نشر السلسلة على صفحات جريدة الجمهورية صدر قرار بمنع دخول العبد لله إلى تونس، وكان ذلك في عام ١٩٥٦م، ولا يزال هذا القرار معمولًا به حتى هذه اللحظة.

رحم الله الحبيب بورقيبة الرجل الأوحد الذي حكم تونس لمدة ٣٢ عامًا أصاب وأخطأ خلالها كثيرًا، ولكنه وفَّى بوعده فحقق استقلال تونس بأسلوب الخطوة خطوة، وحقَّق مكاسب كثيرة للمرأة في تونس وكان لا يؤمن بالوحدة ولا بالقومية، ويؤمن بأن فرنسا هي الوطن الأم، ولكن تونس كبرتْ وتريد أن تستقل بأمورها مع الطاعة والاستماع إلى النصيحة.

العين على المحافِظين

في حُمَّى البحث عن ملامح التغيير الوزاري القادم، كان العبد لله مهتمًّا بحركة تغيير المحافظين، والسبب أن العبد لله يؤمن بأن منصب المحافظ أصبح أكثر أهمية من منصب الوزير؛ لأنه الجهة المكلَّفة بوضع القرارات موضع التنفيذ. وقد اتضح أخيرًا أن أحد المحافظين ضرب عرض الحائط بقرار مجلس الوزراء أعلى سلطة تنفيذية في البلاد، بأن يكون قرار تخصيص الأرض الحكومية من سُلطة مجلس الوزراء وليس من سُلطة المُحافِظين. وذهب السيد المحافظ الحدق بعيدًا، فأصدر قرارات عديدة بتخصيص مساحات واسعة من أراضي الدولة للمحاسيب وأصحاب النصيب، ومر الأمر في هدوء وفي كتمان وعندما انكشف الأمر قرَّر المحافظ أنه لم يكن يعلم بأن هناك قرارًا من مجلس الوزراء بهذا الشأن، واتهم كبار معاونيه بأنهم أَخفَوا عنه قرار مجلس الوزراء، ولأنه محافظ دوغري وحِمش فقد أصدر قرارًا بوقف عدد كبير من الموظَّفين الكبار عن العمل وأحالهم إلى التحقيق. وأيًّا كانت النهاية التي ستنتهي بها هذه الحكاية، فالأكيد أن السادة الذين حصلوا على الأراضي الحكومية بالمخالفة لقرار مجلس الوزراء، قد ظفروا بالغنيمة وخرجوا بها في أمان الله، وإذا كان لهذه الحكاية دلالة، فهي تؤكد نظرية العبد لله وهي أن منصب المحافظ أكثر أهمية من منصب الوزير، وأكاد أقول أكثر أهمية من مجلس الوزراء كله؟ ولكن يبقى في يد الحكومة للحفاظ على هيبتها أن تقوم بإجراء تحقيق بإشراف النائب العمومي لمعرفة مصير هذه الأراضي التي ذهبت لأصحابها بتأشيرة من المحافظ «الجاهل» كما وصفه الأستاذ صلاح قبضايا في أحد أعداد جريدة الأحرار منذ أيام، والذي يجب أن يعرفه الناس لمن ذهبت هذه الأراضي؟ وما الثمن الذي دفع فيها؟ وما المصير الذي انتهت إليه؟ هل استخدمت في الأغراض التي بيعت من أجلها؟ أم جرى تقسيمها وبيعها لبناء مساكن فاخرة؟ وهنا مربط الفرس كما يقولون. إذا كانت الأرض

قد بِيعَت بالثمن الحقيقي، وإذا كانت قد استخدمت في الأغراض التي بيعت من أجلها لخدمة الشعب وتحقيق أهداف الخطة المنشودة، فيا دار ما دخلك شر وليس عليَّ حرج ... أما إذا كانت الأرض ذهبت بتراب الفلوس، وجرى التربُّح فيها، فمعنى ذلك أن العملية في النملية وأن المتسببين يجب أن يمثلوا أمام القضاء ليحكم عليهم بما جَنت أيديهم، وليكونوا عبرة لغيرهم من حضرات المستحفظانات وكبار الموظفين.

وأرجو من الله ولا يكتر على الله أن يأتي اليوم الذي يكون فيه شغل وظائف المحافظين بالانتخاب. وحتى لو أخطأ الناخبون واختاروا أسوأ الناس فلن يلوموا إلا أنفسهم، وستكون تجربة مرة وسيُجبرون على تصحيح الوضع في الانتخابات التالية! ولا أنكر أن تعيين المحافظين أسفر عن ظهور. كوادر عظيمة قدمت خدمات عظيمة وجليلة للشعب وللإدارة المحلية. نماذج رائعة من أمثال وجيه أباظة، وشعراوي جمعة، وحمدي عاشور في الماضي، وعبد الرحيم، وعبد السلام المحجوب، وعبد الحليم موسى، وعمر عبد الآخر في السنوات الأخيرة. وهناك غير هؤلاء بالطبع أنجزوا أعمالهم في صمت وفي طهارة واستحقوا الحمد والشكر على ما أنجزوه ابتغاء وجه الله ... لا يريدون جزاء ولا شُكورًا. ولا أريد أن أذكر أسماء. حتى لا أذكر أحدًا لا يستحق أو أغفل ذكر أحد يستحق أن يكون على رأس القائمة.

أنت محروسة بالمشايخ من أهل الله. ومن أراد لك سوءا كبه الله على وجهه!

لكيلَا نُحلِّق في الفضاء ونذهب بعيدًا في الأحلام، لا بُدَّ أن نعترف بأن الكورة المصرية في ورطة. لأنها في أزمة والزمالك يعاني من المشاكل، والإسماعيلي في حالة انعدام وزن، والمصري في حالة توهان، والمنصورة في حالة ضياع. ولقد أتيح للعبد لله مشاهدة مباراتين هذا الأسبوع بين الزمالك والمصري قمة الكورة المصرية، والمباراة الأخرى بين التَّرجي التونسي وزميله فريق النجم الساحلي ... قمة الكورة التونسية، الفرق كبير ورهيب بين الكورة هنا والكورة هناك. المباراة التونسية كانت تشبه مباراة في الدوري الألماني، أو الدوري الإنجليزي سرعة ولياقة عالية ومهارات فردية ممتازة. في المقابل كانت مباراة الزمالك والمصري هرولة وصربعة وكَر وفَر، وشوط في العلالي، وترقيص في الهوا، وإجهاد ترَك بصماته على الجميع. والأكادة على رأي شندي فنان قريتنا أن تونس ومصر وجهًا لوجه في البطولات الأفريقية. ولا بُدَّ من التحرك بسرعة لتعديل مسار الكرة المصرية بالنسبة للنوادي، وللمنتخب أيضًا.

وفي رأي العبد لله ليس هناك مخرج للكورة المصرية إلا بعودة الكابتن محمود الجوهري إلى المنتخب على الأقل لمواجهة المرحلة القادمة وما أصعبها في بطولة أفريقيا وفي تصفيات كأس العالم. ولا بُدَّ من تدخُّل الكابتن صالح سليم لإصلاح ما أفسده الدهر في الأهلي، ولا بُدَّ من وضع حد للمهازل التي تجري في الزمالك. أما الإسماعيلي فحكايته حكاية؛ كل الإمكانات متوفِّرة، وكل الطلبات مُجابة، والمدرب برازيلي ومع ذلك ... البخت لو مال مين يعدله تاني؟! أما المنصورة فهي عين وصابته، فريق سبَح على السطح فترة ثم غطس فجأة وغرق في الأعماق. والأسباب بعضها معلوم وبعضها مجهول، ولكن يمكن لاتحاد الكورة أن يتدخل بسلطاته التي كفلها له القانون لوضع الأمور في نصابها. وعيب جدًّا أن يصل حال الكورة إلى هذا الوضع الذي لا يليق. هزيمة منكَرة في بطولة القارَّات، ثم خروج مبكر من بطولة الأمير فيصل بن فهد. وخروج مبكر للأهلي من بطولة النوادي الأفريقية وبالرغم من ذلك يخيم الهدوء على الساحة الكروية، فلا حس ولا خبر، ولا تحرُّك من أي نوع لضبط الأمور في نوادي الكرة، وفي المنتخب، لا شيء سوى تسريح الكابتن سمير زاهر وجلوس الدهشوري حرب مكانه.

وهو وضع لا يُرضِي أي أحد؛ لأن الكورة لم تَعُد رياضة فقط، ولكنها رياضة وسياسة وتجارة، ونيجيريا أصبح لها وضْع خاص في العالم بسبب منتخبها الذي هزم البرازيل وهزم الأرجنتين بكامل نجومها، وبلدنا تستحق كورة أفضل، وارحمونا يرحمكم الله.

باي باي نتنياهو!

العبد لله يجد نفسه مضطرًّا للاعتذار للسادة القراء لأنني قلتُ في مقال سابق على الصفحة الأخيرة بالمصور: إن نتنياهو عائد إلى رئاسة الوزارة بعد الانتخابات القادمة، ولكني الآن وبعد استقالة موردخاي وتربُّعه على رئاسة حزب الوسط أجد أن اعتذاري واجب لجميع القراء بصفة عامة وللصديق المهندس علي والي بصفة خاصة؛ لأنه ناقشني في هذا الأمر، وأكَّد لي في ثقة مدير عام مخابرات الكون أن نتنياهو سيُجبَر على التصييف بدري وأن دوره السياسي انتهى، وأنه أخذ فرصته فلم يستطع استغلالها، وأثبت أنه حمار سياسي لا يجيد اللعبة، ولا يعرف قواعدها، فالقوة، والقوة وحدها، تعجز دائمًا عن حل المشاكل، وفي الزَّمن القديم عجز الإسكندر الأكبر عن إخضاع العالَم بالقوة، وانتهى نهاية مأساوية حيث لدغته نحلة أو حشرة وقتلَتْه، وفي الزمن الحاضر عجزت أمريكا عن هزيمة فيتنام بالقوة، وانتهى الأمر بها إلى الهروب من أرض المعركة حيث ترك جنودها أحذيتهم ولاذوا بالفرار.

لكن الخواجا نتنياهو أراد أن يثبت للجميع أن كل الذين حاولوا استخدام القوة في الماضي وفشلوا كانوا عَجَزة وقليلي الحيلة، أما هو ... فاسم الله عليه، اسم الله عليه، كفتوة من فتوات الحرافيش. نَبُّوته هو دستوره وقبضة يده هي ميزان العدل، وشعاره ... يا أرض انهدِّي ما عليكِ أدي! لم يحترم نتنياهو أحدًا أو جهة على الإطلاق، أوروبا طظ فيها، وأمريكا طظ فيها، ورئيسه في دولة إسرائيل «خللي يوللي» ... والاتفاقيات يوقعها ولا ينفذها ... وممنوع اتخاذ قرارات انفرادية، ولكن بالنسبة له مسموح ومشروع وقانوني للغاية، وإذا أعلن ياسر عرفات قيام الدولة فسيهدم مشروع السلام من أساسه وسيجتاح بدباباته كل أرض فلسطين، حتى الرئيس الأمريكي صاحب نعمته والذي لحم أكتافه

وأردافه أيضًا من سمنه وعسله، جعله أضأل وأقل شأنًا من رئيس قبيلة الشيروكي التي تَحوَّلَت إلى نوع من أنواع المواصلات الآن، لا كبير عنده إلا نفسه، ولا زعيم إلا هو، ولا قرار إلا قراره، وفلوسي أنا حر في فلوسي، وبفلوسي أنا حر بفلوسي! وبالرغم من توالي الضربات على أم رأسه، وبالرغم من موقف الجميع ضده حتى رئيس دولة إسرائيل نفسه، الذي وصفه بالغرور والكذب، وبالرغم من وقوف وزير خارجيته المعزول ضده ووصفه له بأنه رجل يجيد الخداع ولا يجيد شيئًا آخر، بالرغم من استنكار الجميع لمواقفه إلا أنه لم يرتدع، ولم يتغير ولم يحاول ذلك، ولكن ضربة وزير الدفاع موردخاي جاءت في الوقت المناسب، قبل استقالته بثلاثة أيام حيث صرح كلينتون في واشنطن بأن موردخاي هو الوزير الوحيد في حكومة إسرائيل الحريص على السلام، ولم يسكت نتنياهو فرَدَّ على كلينتون بتصريح هايف اتهم فيه الرئيس الأمريكي بالتدخُّل في شئون إسرائيل الداخلية، ثم هدَّد بأنه أكبر من جميع المؤامرات، وأنه هو الوحيد وكلهم ... ركش.

ولأنه كذاب وحقير، ولأن الضربة أوجعته كثيرًا، فقد اتهم موردخاي بالخيانة، ووصفه بالأرزقي، وقال إنه طلب تصعيده بعد الانتخابات إلى منصب نائب رئيس الوزراء، ثم أعلن عزله من منصبه، ووقف موردخاي وخاطَب نتنياهو علنًا قائلًا: أنت وقِح وكذاب وعارٌ على إسرائيل ولا تصلح نفرًا في قوات حرس الحدود؛ لأنك غير أمين، وغير محترم.

ضربة موردخاي هي المسمار قبل الأخير في نعش نتنياهو، أما المسمار الأخير فسيكون رأي المواطن الإسرائيلي العادي يوم الانتخابات؛ لأن نتنياهو هو زعيم الصياع والأرزقية الذين عَبَروا البحار إلى إسرائيل ليحصلوا على بيت في الضفة الغربية، وعلى إعانة الدولة، مقابل الحفاظ على حالة التوتر في الأرض الفلسطينية، وقتل ما تَيسَّر من الفلسطينيين بين الحين والآخر، إنهم صياع الشوارع الخلفية في بروكلين بنيويورك، ومقاطيع حي السبع بنات في لندن. ونشالين الحي اللاتيني في باريس، والخواجا نتنياهو كان واحدًا من هؤلاء في صباه، وكان كل أمله أن يجد وظيفة ثابتة، ويسكن في بيت له حمام مستقل، ويكون له مُرتَّب يكفيه طول الشهر! ... ولكنه ولأن الله سبحانه وتعالى يرزق أحيانًا من لا حيلة له ليتعجب أصحاب الحيل، فقد صار نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل، وأصبح يعامل في الغرب معاملة رؤساء الدول، تُعزَف له الموسيقى في المطارات، ويتناول طعامه على موائد الملوك والأمراء، ويقال إنه حتى الآن يخطرف في نومه بكلام يكشف عن دهشته الشديدة للبلهنية التي يعيش فيها الآن، وهو الذي كان يتمنَّى على الله — ولا يكتر على الله — أن يضع في جيبه علبة سجاير عشرين كاملة!

على العموم ... لكل شيء إذا ما تم نقصان. وأنت يا خواجا نتنياهو خيبتك وصلت للتمام، وحان الوقت الآن للمغيب ... باي باي خواجا، وعود حميد إلى حواري بروكلين ... حيث الصياعة والتَّسوُّل وخيبة الأمل راكبة جمل!

كلما ذهبتُ إلى شرم الشيخ، وجدتُ نفسي أضحك بجنون لسبب لا يعرفه أحد، أما السبب فيتعلق بمؤلِّف أغاني جهول جدًّا أصابه حزن شديد بعد حرب الأيام الستة، وأراد أن يشترك في مهرجان الأغاني الذي نظمته الإذاعة والتليفزيون والذي تنظمه دائمًا في مثل هذه المناسبات، يعتبره بعض المؤلِّفين والملحِّنِين مَورد رزق لهم، هناك طبعًا مؤلِّفون عباقرة ومُلحنون ممتازون، ولكن هناك طبقة أخرى تَعتبر هذه المناسبات فرصة للرزق، صاحبنا المؤلِّف إياه كان من هذه الطبقة، كتب أغنية عن شرم الشيخ وأسرع بها إلى الإذاعة وكانت الأغنية تقول:

الشرم ده شرمنا وشرم أبونا وأمنا.

وطبعًا لم يخرج من الإذاعة إلا على نقالة ومكَث عدة أيام في مستشفى بولاق العام، المؤلِّف إياه لسوء الحظ مات إلى رحمة الله، لو عاش حتى يومنا هذا، لو شاهد شرم الشيخ الآن فربما كَتب أغنية عبقرية عن شرم الشيخ الجديدة، التي تثبت أن المصريين قادرون على صنع المعجزة إذا توفَّرت لهم الظروف الحسنة والإمكانات اللازمة، ليت جميع المصريين يأتون إلى شرم الشيخ وإلى سيناء كلها؛ ليدركوا مدى الخطيئة الكبرى التي ارتكبناها في الماضي عندما أهملنا سيناء وسكانها وشواطئها الذهبية.

والسؤال الآن: لماذا لا تقوم في سيناء مائة مدينة كمدينة شرم الشيخ؟ التي هي في واقع الأمر أجمل وأحلى مدينة على ظهر الأرض وربما على ظهر الكون؟!

أعياد ولكن فباسكو!

العبد لله يقترح إلغاء الاحتفالات بعيد المحافظات المصرية؛ لأن الممارَسات التي نراها في هذه الاحتفالات لم تَعُد تتَّفِق مع الأوضاع والظروف الجديدة، فهذه الاحتفالات كان مقصودًا بها تأكيد استقلالية هذه المحافظات في بداية نشأة الحكم المحلي. ولأن الظروف كانت مختلفة في تلك الأيام، فقد اختارت كل محافظة يومًا من أيام الكفاح الوطني عيدًا لها.

الجيزة مثلًا اختارت معركة الشوبك ضد الإنجليز، والمنوفية اختارت يوم دنشواي، والمنصورة اختارت يوم هزيمة الجيش الفرنسي وأسْر الملك لويس التاسع وهكذا.

وكان من الواجب بعد أن دخلنا في معركة التنمية والبناء والتوسع في إقامة المشروعات الصناعية والتجارية أن نختار مناسبات مختلفة لإشاعة البهجة في نفوس المواطنين. مثلًا موسم جَني القطن في بعض محافظات الوجه البحري، موسم جَنْي القصب في بعض محافظات الوجه القبلي، موسم حصاد الأرز في دمياط، موسم السمان والخريف في بورسعيد، وإن كانت بورسعيد لها وضع خاص، ولا بأس من الاحتفال بالعدوان الثلاثي الذي انتهى بهزيمة الإنجليز وانسحابهم كالقطط الجربانة، وفشل العدوان في تحقيق أهدافه، والتأكيد على عودة القناة إلى أهلها من المصريين!

المهم أن تختار المحافظات مناسبات أخرى يحتفل فيها الناس بالرقص والغناء، الناس وليس رجال الإدارة المحلية، من السيد المحافظ، إلى السيد السكرتير العام إلى السيد السكرتير بس، إلى السيد مدير النظافة، وهذا المنظر الذي يتكرر كل عام يجعل الناس تتصور أن العيد هو عيد المُحافظ وليس عيد المحافظة.

ذات يوم منذ ثلاثين عامًا حضرتُ عيد إحدى المقاطعات الألمانية، وكانت المناسبة بدء عملية إنتاج النبيذ من محصول العنب. الشعب كله خرج يرقص في حلقات تمتد بلا نهاية، الأطفال والشباب والعجائز والمرضى والمُعاقون، عيد حقيقي أشاع الفرحة والبهجة

في نفوس الجميع. وفي اليوم الأخير ظهر العمدة واقتصر دوره على توزيع الجوائز لأفضل إنتاج عنب، وأفضل أصناف نبيذ، وجائزة خاصة لأفضل مزرعة. ولكن في بلادنا الأمر يختلف. في عيد الجيزة الأخير مثلًا جرى افتتاح مكتبة البحر الأعظم، مع أنه جرى بناؤها وافتتاحها في عهد المُحافظ عمر عبد الآخر ... يعني منذ عشر سنوات. وأضيف سباق النيل الدولي إلى عيد الجيزة الحالي مع أن السباق يقام كل عام ومنذ عشرات السنين. ثم أقيم الماراثون الطويل، وقال فلاسفة الإدارة المحلية إنه ماراثون تجديد البيعة للرئيس حسني مبارك لفترة رابعة. ما علاقة تجديد بيعة حسني مبارك بالماراثون الطويل أو الماراثون القصير؟ وهل يحتاج حسني مبارك إلى ماراثون لكي نوافق على تجديد بيعته؟ إن أعمال حسني مبارك هي التي تدعو الشعب إلى التجديد. وهل محافظة الجيزة هي وكيلة التجديد دون جميع المحافظات الأخرى؟ أم هي مسألة تلقيح جتت وعملية هنكرة من النوع الثقيل؟

العبد لله يرى أن تبتعد الإدارة المحلية عن عملية التجديد للرئيس حسني مبارك؛ لأن الإدارة المحلية جزء من الحكومة، ويجب حصر مسألة التجديد في يد الشعب؛ لأن الشعب هو الذي يريد حسني مبارك رئيسًا له وليس سعادة المحافظ، أو سعادة السكرتير العام، أو سعادة السكرتير فقط، أو سعادة رئيس النظافة. ثم في أيام زمان كانت كل المصالح الاقتصادية مُؤمَّمة وكانت هي التي تقوم بالإنفاق على مثل هذه الاحتفالات، ولكن الوضع اختلف الآن وأصبح القطاع الخاص هو ركيزة الاقتصاد المصري. فهل هي فِردة جديدة؟ أم ضرائب بدون قانون وهو الأمر المحظور بشدة في الوقت الحاضر؟!

وواجبنا الآن أن نعيد النظر في كثير من الممارَسات السائدة وأن نبحث عن آليات جديدة تتفق مع العصر الذي نعيشه الآن. وعلينا أن نعترف بأن ما كان يصلح أيام الاتحاد الاشتراكي لم يَعُد صالحًا الآن، وأن أعياد المحافظات على امتداد مصر ليس بالضرورة تكون مناسبات قتال ومعارك حربية. ويكون أفضل لو انتشرت موسيقات الجيش والشرطة في الميادين الكبرى وفي الحدائق العامة مع حشد فِرَق الفنون الشعبية بالمزمار والربابة والطبل البلدي لإشاعة السعادة في أرجاء المحافظة، بدلًا من نشر إعلانات بالشيء الفلاني في الصحف القومية والصحف المُستقِلَّة والصحف التي لا يقرؤها أحد. وعلى كل حال لا يزال هناك وقت لإصلاح ما يجب إصلاحه وتصويب ما يجب تصويبه.

في عيد محافظة الجيزة المجيد، تحية من القلب للسيد عبد السلام المحجوب محافظ الإسكندرية.

أخونا الدكتور حسين كامل بهاء الدين يستحق جائزة حمل الأثقال العربية بعد أن تَضخَّمَت عريضة اتهامه فحملت عشرة اتهامات على الأقل، فهو السبب في نشر الكراهية ضد طائفة المُعلِّمين، وهو الذي شجَّع القر ونَشَر الحسد على فرسان الدروس الخصوصية، وهو الذي طارَد وطرد فقهاء الجماعات الإرهابية المتطرفة من مَعاهد التعليم، وهو الذي هبط ببرامج التعليم العام إلى الحضيض، وهو السبب في ضعف التعليم الجامعي وضحالة الخريجين، وهو السبب في البطالة المنتشرة في الوقت الحاضر خصوصًا بين شباب الخريجين، وهو الذي صار التعليم الابتدائي بفضله نوعًا من الترفيه وشغل أوقات الفراغ، وعريضة الاتهام التي تنشرها وتوزعها جبهة أعداء حسين بهاء الدين تنقصها عدة اتهامات يعرفها العبد لله وإن غابت عن الكثيرين، فهو المسئول عن مِحنة سكان كوسوفا، وهو الذي كان يتولَّى قيادة قوات الصرب ضد مسلمي البوسنة، وهو أحد السفاحين الذين اشتركوا في مذبحة دير ياسين في حرب فلسطين الأولى، وهو السبب المباشر في خروج قطار كفر الدوار، وبسببه سقط أتوبيس الصعيد من فوق الكوبري المعلق بميدان الجيزة ... وأكاد أقطع أن حسين كامل بهاء الدين هو المسئول عن هبوط الأوراق المالية في البورصة، وهو المسئول أيضًا عن هزيمة الفريق الأوليمبي أمام إريتريا، وهو الذي يقف وراء انسحاب الزمالك أمام الأهلي.

والعبد لله كان في نِيَّته أن يتقدم بقائمة الاتهامات التي في حوزتي إلى المحكمة التي ستحاكم الدكتور حسين كامل بهاء الدين لولا أنني خشيتُ من أن يطول سجنه فتتضاعف المصروفات التي سأتولَّى إنفاقها عليه في سجنه من علب سجاير عشرين، إلى عيش وحلاوة إلى ملابس شتوية وصيفية، إلى شاي وسكر، وعسل وطحينة وخلافه.

أخونا الدكتور حسين كامل بهاء الدين، أعرف أنك مؤمن بالله وبقدرته، ومؤمن أيضًا بأن المكتوب ع الجبين لازم تراه العين، ولكن آدي الله وآدي حِكْمته، وعلى رأي المثل ... الحظ لو مال راح تعمل إيه بشطارتك؟!

وزير الداخلية ... برافو!

اللواء حبيب العادلي رجل أمن منضبط، يجيد العمل في صمت وفي هدوء، لا يحب الفشخرة ولا زفة الإعلام، ولا حفلات التنطيط والتبليط، كما أنه محظوظ وسكته سالكة ودعاء الوالدين يرعاه، ولذلك لم تقع حادثة واحدة في مصر منذ جلوسه على مقعد وزير الداخلية، وهناك أسباب موضوعية لهذا الهدوء الذي نشهده هذه الأيام، على رأسها السياسة التي اتبعها الوزير العادلي بفتح أبواب السجون ومنح الحرية للمئات والألوف الذين تابوا أو أَبْدَوا ندمهم على ما فات، وهي سياسة صح ألف في المائة، والخطوة الثانية التي تُحْسَب للوزير العادلي هو ضَبْط النَّفس والتفكير ألف مرة قبل اعتقال المشتبه فيهم بالحق وبالباطل، والخطوة الثالثة هو احترام الناس في أقسام البوليس، واحترام آدمية المواطنين الذين جرى التحقيق معهم في عمليات لها صلة بالإرهاب.

أما ضربة الحظ الكبيرة التي هبطَتْ عليه من السماء، فهي سقوط عدد من قادة الإرهاب في قبضة الشرعية، وكان للمعلومات التي توصَّلَت إليها أجهزة الأمن من خلال اعترافات هؤلاء القادة الفضل في كشف الكثير من الأسرار والأوكار، وهناك سبب آخَر هو الخط الجديد لفكر الجماعات إياها، فقد اتَّفقَت قيادة الجماعات على تحريم ضرب السُّيَّاح وقَتْل الأفراد، ويبدو أن هناك اتجاهًا جديدًا لنشاط هذه الجماعات، وهو موقف يجب تشجيعه بشدة، لكي تتجه هذه الجماعات إلى نبذ العنف بجميع صوره وممارَسة العمل السياسي وكما ينبغي أن يكون.

شيء آخَر يُذكَر للوزير العادلي أنه أعاد النظر في عملية توزيع المكافآت على ضباط الشرطة، فَشملَت المكافآت عددًا أكبر من الضباط الشباب، وهي عملية تركت أثرًا طيبًا بين رجال الأمن عمومًا، كما نجح الوزير في إعادة الهدوء إلى أجهزة الوزارة المختلفة، فاختفى الصراع بين رجال الأمن الجنائي والأمن السياسي، وأصبحَت الممارَسة الأمنية تَصُب في

قناة واحدة بمساعدة الجميع ولمصلحة أمن مصر، هذه هي الأسباب التي أدَّت إلى تغيير الأوضاع الأمنية إلى ما وصلت إليه الآن، وهو جهد مشكور للوزير العادلي، نسأل الله أن يستمر حتى نحقق المناخ المناسب لمزيد من التنمية، ومزيد من الاستثمار، من أَجْل رفع المستوى العام للمصريين، وخلق فرص عمل جديدة للشباب لكي نصل إلى المجتمع الذي نحلم به والذي يستحقه شعب مصر بكل تأكيد. ولكي نحقق هذا الحلم فهناك مجالات أخرى تستحق اهتمام وزير الداخلية، وعلى رأسها استمرار المعامَلة الحسنة في أقسام الشرطة، ووضع القواعد والأسس التي ينبغي أن تحكم العلاقة بين رجال الشرطة وأفراد الشعب؛ لأن الأساس في أي نهضة هو احترام الناس وحفظ كرامتهم، فلا يلزق مصري على قفاه، ولا يحبس مصري بدون تهمة وبدون أمر من القاضي، ولا يمكن التفكير في أي نهضة أو أي صحوة قبل تحقيق هذا الشرط أيضًا ... تحتاج مصلحة السجون إلى نفضة بعد أن ساءت أحوال السجون إلى درجة لا يمكن تجاهلها ... ومن العجيب أن السجون المصرية شَهدت خلال الأربعين عامًا الماضية نوعًا جديدًا من النزلاء، كلهم كانوا يومًا ما من رموز السُّلطة، رجال من أصحاب النفوذ من مستوى نائب رئيس الجمهورية، ونواب رئيس الوزراء، ورؤساء جهاز المخابرات، وجهاز المباحث العامة، ووزراء حربية، وداخلية، وإعلام، ومسئولين كبار في التنظيمات السياسية، وذات يوم كان العبد لله في السجن مع اثنين من وزراء الحربية، واثنين من وزراء الداخلية، ونائب رئيس جمهورية، ونائب رئيس وزراء، ووزير إعلام، وعضو مجلس رئاسة وغيرهم، ومع ذلك لم يحدث أي تغيير في نظام السجون المصرية، ولا تزال اللوائح التي تنظم العمل بالسجون هي نفسها التي وضعتها الإدارة الإنجليزية عندما أنشأت سُلطات الاحتلال هذه السجون التي هي نسخة من السجون البريطانية بالرغم من اختلاف الظروف والمناخ ... وأكبر مشكلة تعاني منها السجون الآن هي عملية التكدس، وهناك سجن مثل سجن القناطر الخيرية يتسع لحوالي ٨٠٠ سجين، ولكن نزلاءه الآن يصلون إلى أكثر من ألفي مسجون، والشيء نفسه ينطبق على كل السجون تقريبًا.

وأمامي الآن وأنا أكتب هذه السطور عدة خطابات من نزلاء في سجون مصر أمضوا أكثر من عشرين عامًا، وعندما حان وقت الإفراج عنهم، رفضت جهات الأمن الإفراج عنهم بدعوى أنهم خطر على الأمن العام، وأسأل السادة أباطرة الأمن العام. ماذا يَتبقَّى من رجل أمضى عشرين عامًا في زنازين أشبه بالمقابر؟ وكيف يكون الإنسان خطرًا على الأمن العام مع أن الأمن العام نفسه سمح لهذا الرجل الخطر بالخروج من السجن لزيارة أهله

بدون حراسة؟ ومن هو هذا الشخص الذي منحوه سلطة الإفراج عن سجين بعد عشرين عامًا أو استمرار حبسه؟

هل هو من رجال القضاء؟ وكيف يكون من حق ضابط شرطة أن يحكم باستمرار حبس بني آدم أمضى في السجن عشرين عامًا كاملة؟ وهو حكم أقسى ألف مرة من الإعدام، ما أحوجنا الآن إلى تفريغ السجون المصرية من بعض نزلائها، أحداث تحت السن، وشيوخ أصيبوا بجنون الشيخوخة، ونزلاء ارتكبوا جرائم بسيطة، وكان يكفي معاقبتهم بأحكام بسيطة يؤدونها خارج الأسوار، مثل كنس الشوارع أو الخدمة في أقسام الشرطة وغيرها من الأعمال، ولو كان الأمر بيدي لقمتُ بتشكيل لجنة من بعض الرجال المشهود لهم بالكفاءة وحسن التدبير لفحص أحوال نزلاء السجون، والعبد لله واثق من الوصول إلى نتائج باهرة بتحقيق العدالة والإفراج عن النزلاء الذين لا توجد أسباب لسجنهم ولا جدوى من ذلك. كان معنا في سجن القناطر مسجون يطلقون عليه اسم الزعيم، وكان يقضي النهار كله في الحوش يسب المأمور والإدارة والحكومة والناس وكل شيء. كان قد أصيب بالجنون وكانت حالته واضحة لكل ذي عينين، ولا أدري ماذا جرى للنزيل المجنون، لأنني تركته في السجن ولم أعرف ماذا جرى له بعد ذلك؟

أخونا اللواء العادلي وزير الداخلية ... خطابات النزلاء الذين أمضوا عشرين عامًا خلف القضبان عندي إذا أردتَ الاطلاع عليها، مع العلم بأنه غير مسموح بوضع بني آدم في السجن كل هذه المدة، اللهم إلا في سجون نتانياهو ... وبشرط أن يكون المسجون عربيًّا.

ونحن ننتظر منك الكثير ... صدقني، خصوصًا بعد أن نجحتَ ووضعتَ الداخلية على الطريق الصحيح، أو بمعنى أصح وضعتَ الداخلية على الطريق إلى الوضع الصحيح! وأقول لك يا سيادة الوزير: السجن ليس تأديبًا وتهذيبًا وإصلاحًا إذا طالت المدة، ولكنه يَتحوَّل إلى هدم وتدمير وتخريب ليس للمسجون فقط ولكن لأسرته، والعالم كله يتغير الآن، والنظريات التي كانت صالحة للقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر لا تصلح بالتأكيد في القرن القادم، وأغرب شيء يا سيادة الوزير أن المواطن المسجون يحتاج إلى ضعف المبلغ الذي كان يكفيه خارج الأسوار، وهناك وضع سيئ أريد أن أهمس لك به، هو وجود جهاز مباحث داخل السجون نفسها، والعبد لله كان شاهد عيان في بداية حقبة السبعينيات يا سيادة الوزير، وكانت نتيجة وجود هذا الجهاز في السجن هو مضاعفة الرشوة التي يدفعها النزلاء للحصول على طعام أطيب أو نزهة أطول.

السجون يا سيادة الوزير تحتاج إلى نظرة إصلاح وتجديد من الرجل المسئول عن الوزارة، ووجودك على رأسها الآن هو فرصة طيبة لكي نطالبك بإصلاح السجون مرة واحدة وإلى الأبد.

والعبد لله يعتقد أنك صالح جدًّا لأداء هذه المهمة، ليس بالنسبة للسجون فقط ولكن بالنسبة لكل المصالح والإدارات التابعة للوزارة، وليست هذه شهادة العبد لله في حقك، ولكنها شهادة عمنا حسن أبو باشا، واللواء عبد الحليم موسى، واللواء فؤاد علام، واللواء محمد تعلب، واللواء رضا عبد العزيز، واللواء عبد الوهاب الهلالي.

الله معك ... ونحن أيضًا.

الطريق إلى البرلمان

العبد لله سعيد بانتخابات مجلس الشعب التي تُجْرى حاليًّا في مصر وهي ثالث انتخابات عليها القيمة تمَّت خلال العشرين عامًا الأخيرة، أوَّلُها جرت في أيام ممدوح سالم، والثانية جرت أيام حسن أبو باشا، وهذه الانتخابات الأخيرة جرت في أيام حبيب العادلي. النتائج التي ظهرت في الجولة الأولى بعضها أسعدني جدًّا وبعضها أثار حزني وشجني، أنا سعيد جدًّا بنجاح البدري فرغلي نائب بورسعيد الطيب كإنسان، المقاتل بشراسة كنائب بخاصة في أول جولة يثبت أن الدنيا لا تزال بخير، وأن الناس لا تزال تحمل تقديرًا كبيرًا للسلوك المستقيم والعمل الطيب، ونجاح كمال الشاذلي بالرغم من خلافي معه إلا أنه كان يحمل معنًى عميقًا هو أن الفلوس وحدها لا تحقق النجاح في الانتخابات، خصوصًا أن المرشح المنافس في دائرة الباجور كان يتحرَّك في قوافل ذهبية كالقوافل التي كانت تقطع الطريق بين بغداد وصنعاء أيام عز الخليفة هارون الرشيد في زمن الخلافة العباسية. ولقد أثبت الشعب المصري خلال تاريخه الحديث أن الفلوس وحدَها لا تكفي لمد جسور الثقة بين الناخبين وطالبي الحصانة، خصوصًا أن هذه الانتخابات شهد لها الجميع بالنظافة والشرطة التزمت الحياد، وفي الباجور بالذات كانت مثالية كما شهد الزميل حمدي حمادة الصحفي بالوفد. هزني أيضًا نجاح فاروق متولي في السويس وهو نائب قديم ومناضل قديم أيضًا، وكان زميل زنزانة في عام ١٩٧١م، أما نجاح فاروق متولي فكان بسبب التحامه بأهله وناسه في السويس، وحرصه الشديد على أن يعيش حياتهم ويسلك سلوكهم ويعاني مثلهم، فَرِحتُ أيضًا لنجاح الدكتور يوسف والي في الفيوم، وهو لم ينجح لأنه نائب رئيس وزراء وليس لأنه الأمين العام للحزب الحاكم، ولكنه نجح لأنه رجل متواضع ويعيش بشكل عادي وربما أقل، وهو بالرغم من ثرائه ومنصبه السياسي يعيش في مستوى موظف درجة خامسة ولم أجد من رجال السُّلْطة من يدير ظهره للحياة

ويغمض عينيه عن مفاتنها مثل الدكتور أسامة الباز والدكتور يوسف والي، وأسعدني أيضًا صمود الشاب «محمد شردي» نجل صديقي مصطفي شردي يرحمه الله، ونجاحه في دخول انتخابات الإعادة ضد أحد كبار رجال الأعمال وهو «المليونير قوطة» وأرجو أن ينجح في اجتياز عقبة الإعادة، فما أحوجَ مجلسنا النيابي إلى شباب صاعد وواعد مثل شردي!

وأسعدني أيضًا تعثُّر النائب الغول في سوهاج، مع أنه نائب عام مثل مدير عام وسكرتير عام، ولا أعرف ماذا سيكون عليه حال الغول لو فقد حصانته ولم يجد غيرها؟ شعرت بالفرح لنجاح محمود عثمان في الإسماعيلية، ومحمود هو ابن صديقي عثمان أحمد عثمان يرحمه الله وكان بيني وبينه حكايات وروايات، وشعرت بالفرح لنجاح محمود رغم أن المحامية لمياء مبدي كانت مرشحة في الدائرة نفسها، ولمياء بالنسبة للعبد الله في حكم هالة كريمتي لأنها ابنة خالتها، كما أن والدها الأستاذ محمد صبري مبدي كان بمثابة أخ شقيق يرحمه الله، وقد أَشرتُ عليها أن تدخل المعركة الانتخابية في دائرة أخرى؛ لأن أبناء عثمان أقدر على خدمة أهالي الدائرة من غيرهم، ومع أنها استحسنَت اقتراحي ووعدتني خيرًا، إلا أنني فُوجئتُ أثناء سفري في رحلة علاج أنها قرَّرتْ خوض المعركة في مسقط رأسها بالإسماعيلية، ومهما يكن الأمر فإن لمياء شابة والمستقبل أمامها عريض والجايات أكثر من الرايحات.

النبأ الذي كان أكثر إيلامًا للعبد الله في نتائج انتخابات المرحلة الأولى هو نبأ عدم توفيق النائب سامح عاشور، والمحامي سامح عاشور لا تستطيع تصنيفه إلا تحت يافطة النائب الوطني، وطني ليس نسبة للحزب الوطني ولكن نسبة للوطن، وغياب نائب مثل سامح عاشور عن المجلس النيابي القادم هو خسارة للحياة البرلمانية، ولكن ينبغي أن أذكر حقيقة لا يستطيع أحد إنكارها، أن المرحلة الأولى التي تَمَّت بالفعل كانت نظيفة بالتأكيد، لم يحدث فيها أي ضغط أو أي قهر، وقام فيها جهاز الشرطة بدور طنجة، لا ينحاز ولا يميل، ولو دارت الانتخابات في المرحلتين القادمتين على النحو الذي دارت عليه في المرحلة الأولى، فستكون النتيجة مجلسًا نيابيًّا نظيفًا ليس فيه نواب قروض، أو نواب حشيش، أو نواب صياع، أو نواب سُيَّاح، كل همهم هو الطواف حول العالم في رحلات برلمانية، وإذا دارت المعركة الانتخابية إلى النهاية كما نتمنى، فالعبد لله يتصور بأن المجلس القادم سيضم ما بين ستين وثمانين نائبًا معارضًا، فأرجو أن يفوز عدد من الرموز الحزبية؛ مثل: علي سلامة في الجيزة، وزميله أحمد ناصر، وأرجو أن أرى في

صفوف المجلس نماذج مثل خالد محيي الدين، وجلال رجب، وأمينة شفيق، وأرجو أن يحالف التوفيق الدكتور حسام بدراوي مرشح دائرة قصر النيل، والدكتور عبد الأحد جمال الدين.

ويؤمن العبد لله بأن من حق رجال الأعمال أن يكون لهم ممثلون داخل مجلس الشعب، وباعتباري ناخبًا جيزاويًّا قديمًا أتمنى أن ينجح محمد أبو العينين في الجيزة وأن ينجح في تمثيل الجيزة تحت قبة البرلمان، ومن عيب نواب الجيزة من طبقة الفئات أنهم كانوا في الغالب من طبقة المسئولين والوزراء، وكانت أبرز عيوبهم أنهم يختفون بقدرة قادر بعد عملية الانتخابات لا أستثني منهم أحدًا إلا الدكتور أحمد جويلي وزير التموين ونائب الجيزة السابق، وأرجو أن يتكرر ظهور محمد أبو العينين في الجيزة بعد نجاحه بإذن واحد أحد.

ولكن أمنية العبد لله التي أتمنى أن تتحقق هي أن أرى عندنا نوابًا لا يهتمون بمشاكل دوائرهم من كهرباء ورصف طرق وتوظيف بعض العاطلين، فهذه الواجبات تقع على عاتق المجالس المحلية، أما النواب فينبغي أن يكون اهتمامهم بقضايا الوطن الكبرى، وإذا حدَث هذا الذي أتمناه نكون قد بلغنا غاية المُنى ... وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا.

وبعدُ ... فلعل أعظم ظاهرة في هذه المعركة الانتخابية أنها مرَّت في الجولة الأولى بدون سقوط قَتلى، وأرجو أن يبقى الحال على ما هو عليه في الجولات القادمة، ولعل السبب في هذه الظاهرة هو حياد الشرطة، فلا يثير غيظ الناس إلا انحياز الشرطة إلى جانب، ووقوفها إلى جانب مَن لا يستحق ثقة الناس. وعندما تقف الشرطة على الحياد فأبشر بانتخابات حرة نظيفة، تُعبِّر عن نبض الشارع ورغبة الجماهير في اختيار من يمثلهم تحت قبة المجلس.

السادة بتوع الفريكيكو

العبد لله لا يجد مبررًا لكل هذا الوقت الطويل الذي استغرقته حركة المحافظين التي لم ترَ النور بعد، ولم أقتنع بالتصريح الذي أدلى به السيد رئيس الوزراء الدكتور عاطف عبيد وأعلن فيه أن تأخير حركة المحافظين يرجع إلى إعادة صياغة دور المحليات في المرحلة المقبلة، ذلك أن تجربة الحكم المحلي أو الإدارة المحلية، كما يحلو للبعض أن يطلق عليها، عمرها الآن أربعون عامًا بالتمام والكمال، ولا أعرف أي دور للمحليات في كل وقت إلا تنظيم حياة الناس وتيسيرها لتصبح الحياة أجمل وأيسر، ونجح خلال الأربعين عامًا عدد من المحافظين على رأسهم وجيه أباظة في البحيرة وفي طنطا ثم في القاهرة أخيرًا، ونجح شعراوي جمعة أيضًا في السويس، ونجح عبد المنعم عمارة بعد ذلك في الإسماعيلية، وحقَّق عبد السلام المحجوب نجاحًا باهرًا في الإسكندرية، هذه نماذج باهرة من النجاح في مجال الإدارة المحلية، وهناك محافظون كثيرون حقَّقوا درجات مختلفة من النجاح مثل أحمد علي في الغربية، ومحمود الشريف في الشرقية، وفاروق التلاوي في الفيوم، وعبد الرحيم شحاتة في الجيزة ثم في القاهرة، وأيضًا عمر عبد الآخر في الجيزة ثم في القاهرة، وفخر الدين خالد في المنصورة، وصلاح مصباح في أسوان، وهناك محافظون مروا بمحافظاتهم ولم يتركوا أثرًا ولم يضعوا بصمة وينطبق عليهم المثل القائل ... كأنك يا أبو زيد لا رحت ولا جيت.

المحافظ إذن هو حجر الزاوية في الحكم المحلي. إذا كان صالحًا فالناس في خير ومصالح الناس في يدٍ أمينة، أما إذا كان المحافظ من بتوع الفريكيكو فقُل على الدنيا العفاء، ولذلك فعملية اختيار المحافظين هي الخطوة الأهم، ومصر والحمد لله ولادة، والعبد لله شخصيًّا يعرف ألف شخص على الأقل يصلح كل منهم محافظًا يدخل التاريخ من

أوسع الأبواب، فالمهم أن يكون الرجل مستعدًّا للخدمة وسعيدًا بها، ويريد تحقيق الخير لبلده وأهلها.

المسألة لا تحتاج إلى بنود ولا إلى مواد ولا إلى لوائح، المسألة ببساطة: ماذا يريد السيد المحافظ بالضبط؟ والإجابة عن السؤال سترسم ملامح المستقبل لهذه المحافظة وسكانها. عندنا مثل هو سعد زايد محافظ القاهرة الذي أعاد إلى المواطنين ملايين الجنيهات بعملة أيام زمان، وعندما خرج على المعاش لم يكن يملك ثمن بنزين سيارته. وعندنا مثَل آخر هو يوسف صبري أبو طالب، الذي رفض وهو محافظ للقاهرة الموافقة على عرض تقدَّمت به شركة لشراء أرض سوق باب اللوق بعدة عشرات من الملايين، وهي ملك للسيدة الفاضلة حرمه، وقال قولته المشهورة: لا أبيع ولا أشتري أثناء جلوسي على مقعد المحافظ.

وعندنا أمثلة أخرى عن المحافظ الذي لم يسمع عن قرار مجلس الوزراء بحظر بيع أراضي الدولة إلا عن طريق مجلس الوزراء، وهناك المحافظ الذي وزَّع على مندوبي الصحف في محافظته كشفًا بالأخبار التي يقومون بنشرها عن افتتاح مشروعات، وتأسيس شركات، والقيام بجولات أثناء سفره في رحلة إلى الخارج لمدة أسبوعين، متصورًا سيادته أنه يحكم محافظة من محافظات بحر الغزال، وتم نشر الأخبار بينما كان جميع أهل المحافظة يعلمون أن سيادته في رحلة خارج البلاد.

ولكن ... وبالرغم من هذه النماذج المشوهة، فما أكثر الرجال الذين يتطلعون لخدمة بلادهم وأهلهم، المهم هو العثور على هذه النوعية الممتازة من المواطنين، وهي مهمة ليست صعبة؛ لأن مصر ولادة، وتزخر بالمئات والألوف من هذا الصنف الفاخر الذي يصلح للقيادة في أي مجال، ولكن مهم جدًّا الإسراع في إصدار حركة المحافظين؛ لأن التأخير في هذا الأمر أصاب المحافظات بالشلل، وجعل معظمها في حالة اللاسلم واللاحرب، والمطلوب الآن الخروج من هذه الحالة بأقصى سرعة إذا كنا حريصين على عودة حركة الحياة إلى وضعها الطبيعي في شتى المحافظات!

الأخ المستشار إياه والذي اتضح أنه مستشار مزعوم؛ لأن آخر درجة وصل إليها في السلم الوظيفي هي درجة مستشار مساعد، وهي درجة محترمة ولكن صاحبنا يحب الأبهة ويجيد التمسح في الناس اللي فوق، بدليل أنه كتب مقالًا كبيرًا عن أحد الوزراء الذين أصبحوا خارج التشكيل الوزاري الأخير فوصفه بالأسد الهصور، تُرى ما هو رأي السيد المستشار الآن بعد أن خرج الهصور من الوزارة، هل لا يزال «أسدًا هصورًا» أم تحول

الآن بعد خروجه من الوزارة إلى شيء مثل قطتي نميرة واسمها سميرة؟ المهم أن السيد المستشار إياه أراد أن يشتم العبد لله ولكنه أثر السلامة، فاكتفى بسب الشيخ أحمد سليمان السعدني وهو قارئ ممتاز يعتبر من رجال الصف الأول في مدرسة التلاوة، ولكن المسائل في الفن أذواق وأمزجة، ومن الناس من لا يحب الاستماع إلى أم كلثوم ويفضل عليها سعاد مكاوي، السيد المستشار إياه بتاع الأسد الهصور وصف صوت الشيخ السعدني بأحط الأوصاف، ونصح الناس بعدم الاستماع إليه، وسأل الله أن يكون الشيخ السعدني لا علاقة له بالعبد لله أو بالفنان صلاح السعدني.

ويهمني أن أقول للمستشار بتاع الأسد الهصور: إن الشيخ السعدني لجأت إليه الدولة الألمانية في عهد هتلر لتسجيل القرآن الكريم على أسطوانات، واستغلَّت هذه الأسطوانات في محطة إذاعة «كولون» العربية لجذب انتباه المستمعين العرب، وقد لجأت الدولة الألمانية إلى الشيخ السعدني نتيجة نصيحة من بعض علماء الدين الإسلامي الذين كانوا يعيشون في ألمانيا، وعلى رأسهم فضيلة مفتي فلسطين الشيخ أمين الحسيني، وهم الذين رشحوا الشيخ السعدني لهذه المهمة، ولكن جناب المستشار يتصور أنه كاتب ويتوَهَّم أنه ساخر، وهو لا يجرب سخريته إلا في الموتى خصوصًا الذين مر على موتهم سنوات طويلة، أما الوزير الحالي خصوصًا فهو أسد هصور، ولكن لأن حظ المستشار أسود من قرون الخروب فلم يكد مقاله يجف، حتى كان الأسد الهصور قد خرج من الوزارة وتحوَّل إلى أرنب من أرانب عادل إمام، فشمر المستشار وهات يا تشريح في جثة الشيخ السعدني.

عفوًا عمنا الشيخ السعدني، أرجو ألا تتململ في قبرك، فهذا الشخص الذي افترى عليك بعد مرور ربع قرن على وفاتك، هو من النوع الذي لا يخاف ولا يختشي!

أبو الهنود سلمت يداك

هو عذر أقبح من ذنب، هذا البيان الذي أذاعته إسرائيل بعد المعركة التي نشبت بين الفرقة اليهودية الخاصة المُدرَّبة تدريبًا عاليًا على حرب الشوارع، وبين الفدائي العربي أبو قلب ميت المدعو «أبو الهنود»، وكانت نتيجة المعركة سقوط ثلاثة قتلى من عساكر الفرقة الخاصة، ونجاة أبو الهنود من القتل، ومن الأسر، وفراره من قبضة الفرقة المدربة على أعلى مستوى، ولجوءه إلى السُّلْطة الفلسطينية.

أما العذر الذي هو أقبح من الذنب فهو الادعاء اليهودي بأن الجنود الإسرائيليين الثلاثة سقطوا قتلى برصاص زملائهم من الفرقة الخاصة، ولو صح هذا الزَّعم فهو يكشف مدى الخيبة التي هي بالويبة التي أصابت جنود الفرقة الخاصة فأطلقوا النار على بعضهم البعض، وإذا كانت هذه الخيبة قد أصابت الفرقة الخاصة، فماذا يكون الحال مع الفرقة العامَّة؟ والفرقة الخاصة شأنها شأن فرق الصاعقة، تدريب عنيف وممتاز على كل فنون القتال بالذخيرة الحية وبالسلاح الأبيض وبالجودو وبالكاراتيه وبالملاكمة وبالمُصارعة، وإذا كان هذا النوع من الجنود يحتاج إلى طاسة الخضة في معركة مع شخص واحد هو أبو الهنود، فماذا يكون عليه الحال إذا واجهوا في معركة قادمة أبو الهنود وعم الهنود وخال الهنود، وجَد الهنود، إذا كان رجل واحد من طراز أبو الهنود قد بَثَّ الذُّعر في قلوب جنود الفرقة الخاصة فلم يدركوا من شدة الذُّعر في أي اتجاه يطلقون النار، وفي أي جانب يقف العدو، وفي أي جانب يوجد الصديق؟ ومنذ فرار الجنود الإسرائيليين ليلًا من جنوب لبنان تحت ضربات أعضاء حزب الله الأبطال، ومعدن الجيش الإسرائيلي تظهر حقيقته يومًا بعد يوم، إلى أن وقعت معركة الفرقة الخاصة مع البطل أبو الهنود، إنها بُشرة خير بإذن الله، وهي ترجمة أمينة لقول الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ فلا يُغَر بطيب العيش إنسانُ
هي الحياة كما عاهدتها دولٌ من سره زمن ساعته أزمان

وقد وصلت إسرائيل إلى تمام عافيتها في حرب ١٩٦٧م، ثم بدأت في النقصان خلال حرب الاستنزاف، ثم خابت خيبة يني في حرب أكتوبر، لقد ولَّى الوقت الذي كان الزمن مصدر السرور والحبور لإسرائيل، وجاء الزمن الذي سيكون خميرة العكننة لإسرائيل وفِرَقها الخاصة، وللعبد لله أمنية أرجو أن يحققها الرئيس ياسر عرفات، فالبطل أبو الهنود لا يستحق السجن، فهو لم يهاجم أحدًا، ولم يقطع الطريق على أحد. ولكن اليهود هم الذين حاصروه، وهم الذين أطلقوا النار عليه، أما قتلاهم فقد شهدوا هم أنفسهم بأنهم قُتلوا برصاص زملائهم، فلماذا السجن؟ ولماذا العقاب؟ أما أنت يا أبو الهنود فأنت في الحقيقة أبو الرعود، وأبو الحدود، وأبو الحشود، وأبو الجنود، نسأل الله أن يكثر من أمثالك، وسَلِمَت يداك، وألف قبلة على جبينك يا بطل!

وهكذا جاء الدكتور نعمان جمعة عَبْر انتخابات حزب الوفد ليجلس على المقعد نفسه الذي جلس عليه سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وفؤاد سراج الدين، والدكتور نعمان جمعة يستحق الجلوس على مقعد رئيس الوفد، فهو سياسي بارز ويعرف قيمة نفسه ويعرف أيضًا قيمة الآخَرين، كما أن به إنصافًا وتُؤَدة وبإمكانه أن يدخل التاريخ من أوسع الأبواب لو استطاع أن يضع الوفد على الطريق الصحيح، فليس من المعقول أن يظل حزب الوفد حتى الآن مُصرًّا على إنكار ثورة ٢٣ يوليو، مُتشبِّثًا بأنها حركة الجيش، وأحيانًا يصفها بالانقلاب، مُنكرًا أي إنجاز للثورة، فالسدُّ العالي منع الطمي وتسبَّب في تخريب الأرض الزراعية، وحال بين السردين والشواطئ المصرية، وتأميم القناة كان بمثابة طلقة في الظلام؛ لأنها كانت ستعود لمصر بعد عام واحد من التأميم، ومنح حق تقرير المصير لشعب السودان، سمح للسودان بالانفصال عن مصر، وصفقة الأسلحة التشيكية لم تجلب على مصر إلا الحصار والدمار والحرب، والاشتراك في حرب اليمن كانت السبب في خراب مصر واستنزاف الخزينة المصرية ودفن الألوف من شباب مصر في تراب اليمن، وعيب أن يكون هذا هو موقف الوفد من ثورة ٢٣ يوليو، خصوصًا وهو أعظم أحزاب مصر في فترة ما قبل الثورة، وكل ما أنجزته الثورة كان من أحلام الوفد القديم، كان النحاس باشا يسعى بكل قواه لتحجيم هيمنة سراي عابدين، والحد من نفوذ السفارة البريطانية، وحاوَل مصطفى النحاس وضْع نهاية للاحتلال البريطاني وانتهى في أكتوبر عام ١٩٥١م

إلى إلغاء المعاهدة المصرية – البريطانية، وإعلان الحرب الشعبية على جنود الاحتلال في منطقة القناة، وكان النحاس يحلم بتنمية مصر لصالح شعبها، وقد نجح عبد الناصر في تحقيق هذه الأحلام، أي إن الثورة المصرية كانت امتدادًا لحكم الوفد الذي لم يهنأ بحكم مصر إلا فترات قليلة متباعدة بينما تربعت أحزاب الأقلية على دكة الحكم.

صحيح أنه في ظل ثورة ٢٣ يوليو كانت هناك مُعتقَلات، وسجن حربي، ومحاكم عسكرية، ومُطاردة للمعارضين، وكل هذا صحيح ولا يستطيع أحد أن ينكره.

مبروك للدكتور نعمان جمعة رئاسة حزب الوفد، ومبروك لحزب الوفد رئيسه الجديد نعمان جمعة، خليفة سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وفؤاد سراج الدين.

ورطة كوفي عنان

أغرب ما سمعتُ هذا الأسبوع هو الخبر الذي أذاعته جميع وكالات الأنباء عن اختطاف ١١ جنديًّا بريطانيًّا ضمن القوات البريطانية التي تعمل في سيراليون لتدريب الجيش في الدولة الأفريقية على قتال قوات الثُّوار التي يقودها الجنرال سنكوح، ولم أفهم كيف يتم خطف ١١ جنديًّا حضروا إلى سيراليون لتدريب جيشها، مع أن هؤلاء الجنود بالطبع مُسلَّحون بأحدث أسلحة العصر، كما أنهم ليسوا في مهمة تدريب فقط، ولكنهم في مهمة تدريب وتأمين للنظام القائم في سيراليون، فكيف بالله عليكم يتم اختطاف مثل هؤلاء الجنود؟ هل هم أطفال؟ هل هم جماعة من السُّياح جاءوا إلى سيراليون لاصطياد الأفيال فَضلُّوا طريقهم في الغابة؟ ووقعوا لسوء الحظ في طريق طرزان فاختطفهم بمساعدة شيتا، ثم ربطهم في حَبْل وجرَّهم خلفه إلى مكمنه في قلب الغابة ليشوي بعضهم على جمر النار، ويسلق البعض الآخر في البرميل لزوم الشوربة قبل وجبة العشاء.

هل يصدق أحدكم هذا الخبر الذي أذاعته وكالات الأنباء العالمية وكل القنوات الفضائية؟ الأكيد أن الخبر مُفبرَك، وبالرغم من ذلك ورَّطوا سكرتير عام الأمم المتحدة كوفي عنان فأصدر بيانًا ناشد فيه ثُوار سيراليون إطلاق سراح الجنود المختطفين، ولا ينقص الآن إلا استئجار منادٍ يقوم بالطواف على كل المدن السيراليونية يزعق بالصوت الحياني «يا ولاد الحلال ... ١١ عسكري تايه، واللي يردهم سالمين له الأجر والثواب من الله».

وأعتقد وأمري لله أن المسألة فيها ملعوب، ووراء إذاعة هذا الخبر مؤامرة يتم نسج خيوطها الآن في الخفاء، ويبدو لي أن أساليب الاستعمار لم يطرأ عليها أي تغيير بالرغم من العولمة، وشبكة الإنترنت والكمبيوتر، وكلنا نعرف أن الإنجليز زعموا قبل غزو مصر

أن الجيش المصري يقوم بترميم وتجديد الطوابي على امتداد شاطئ الإسكندرية تمهيدًا لقصف الأسطول البريطاني الراسي في البحر! ثم زعموا أن مصريًّا يعرض عددًا من الحمير للإيجار قام بالاعتداء على أحد المالطيين الذين يتمتعون بحمل الجنسية البريطانية، وعلى الفور وبناءً على هذا الزَّعم اجتاحوا مدينة الإسكندرية، ثم قاموا بغزو مصر كلها بعد ذلك.

هذه التماحيك لا تزال هي العلامة المسجلة على ملاعيب الاستعمار ... خصوصًا البريطاني؛ لأنها دولة عتيقة وتحترم التقاليد والعادات القديمة ... ولذلك يتوقع العبد لله أن تكشف الأيام القادمة عن النيات التي تَختفي وراء خبر اختطاف الجنود البريطانيين الأحد عشر الذين خطفتهم النَّزَّاهة في أحراش سيراليون، ولكني كنتُ أتمنى ألا يَزُج الأفريقي الطيب كوفي عنان بنفسه وبالأمم المتحدة في هذا الملعوب المُريب، وهي الغلطة الثانية لأمين عام الأمم المتحدة، وكانت الغلطة الأولى حين أبدى إعجابه الشديد بالمجحوم نتنياهو ووصفه بأنه شاب ولديه أفكار عظيمة، صحيح أنه لم يفصح عن هذه الأفكار العظيمة، ولكني أسأله الآن: هل إبادة الشعب الفلسطيني واحتلال أرضه وتدنيس مُقدَّساته ضمن الأفكار العظيمة؟ أم ماذا؟ يبدو أنه ماذا!

هذه شكوى من العبد لله مرفوعة إلى السيد صفوت الشريف وزير الإعلام، في بداية هذا الأسبوع شاهدتُ برنامجًا دينيًّا على شاشة القناة الفضائية اشترك فيه عدد من المُمثِّلين، وعدد آخَر من الدعاة والوُعَّاظ على رأسهم المرحوم الشيخ إسماعيل العدوي، ولكن الأمر الذي جعلني أهتز غضبًا هو ظهور شخص متهم بالنصب والاحتيال في البرنامج وقضى وقتًا طويلًا يعظ الناس، ويَهدي الضالين، ويُثبِّت إيمان الحائرين.

ولم أفهم كيف حدث هذا مع أن الشخص إياه سبق القبض عليه منذ فترة واتهمته النيابة بالنصب والاحتيال، وثبت من تحقيقات النيابة أن هذا الشخص غير مُؤهَّل لمهنة الوعظ، كما تَضمَّنَت التهم التي وجَّهتْها إليه النيابة أنه كان يسب الخلفاء الراشدين وينسب إليهم أقبح الرذائل، كما اتهمته النيابة بالاحتيال على أرمل وابتزاز أموال كبيرة منها بحجة بناء دار رعاية للأيتام في قريته، ثم ثبت من التحقيق أنه أقام بالمبلغ طابقًا آخَر فوق منزله لزوم قضاء فصل الصيف فيه، وخلال وجود الشيخ المزعوم في الحبس الاحتياطي خاضَت جميع أجهزة الإعلام في موضوع القضية وتفاصيلها، والعبد الله لا يفتري على النَّصَّاب ولا يبالغ، وكل الاتهامات التي ذكرتُها لها أصل في الأوراق، ولا أدري

كيف انتهَت القضية ولكن الشيء المؤكَّد أنه بعد الإفراج عنه مُنع من إلقاء خطبة الجمعة في المسجد الذي كان يمارس فيه هذه المهمة، ولقد تَصوَّرتُ أن أمر هذا المحتال قد انتهى، ولكني فوجئتُ أوائل هذا الأسبوع بالنَّصَّاب يجلس متربعًا على شاشة القناة الفضائية، وهات يا وعظ في مخاليق ربنا، وهات يا شرح في صفة قادر ومقتدر.

ماذا يقول الناس الذين تابعوا قضية النصاب إياه وعرفوا تفاصيلها؟ وهل كانت السلطات تمزح عندما ألقت القبض عليه؟ وهل كانت النيابة تمزح عندما أمرت بحبسه احتياطيًّا وجدَّدتْ حبسه عدة مرات؟ وهل كانت وزارة الأوقاف مُتجنِّية وظالمة عندما منعَت النَّصَّاب من إلقاء خطبة الجمعة في المسجد الكائن بالجيزة، والذي كان يمارس فيه هذا العمل؟

أعرف أن المسئولين عن القناة الفضائية سيقولون إن البرنامج قديم ... وهذا صحيح ولكن لماذا لم يسارع هؤلاء المسئولون بمسح هذا الشريط بعد إلقاء القبض على النَّصَّاب ومنعه من إلقاء خطبة الجمعة؟

والسؤال الآن ... هل السماح بإذاعة هذا البرنامج كان من باب السهو؟ أو كان نتيجة اتفاقات جانبية تَمَّت تحت الترابيزة وبعيدًا عن أنظار المسئولين؟

وأيًّا كان السبب الذي سمح بإذاعة هذا البرنامج، فالأمر يحتاج إلى تحقيق وإلى تفسير، أما إذا كان هناك إصرار على إذاعة هذه الحلقات التي اشترك فيها هذا النَّصَّاب، فليكن عنوانها «الشيطان يعظ».

بينوشيه ... الجريمة والعقاب!

الجنرال بينوشيه صاحب الأوسمة التي تزن أكثر من طن، بالرغم من أنه لم يدخل معركة واحدة ضد أي جيش، والمعركة الوحيدة التي دخلها وانتصر فيها كانت ضد وطنه وشعبه في الانقلاب الذي دبَّره ضد حكومة الرجل الديمقراطي المنتخب من الشعب «الليندي» والمعركة كانت لحساب المخابرات الأمريكية ولصالح أم الدنيا على وزن أم المعارك ستنا وتاج راسنا الولايات المتحدة الأمريكية. وقد حقق فيها الجنرال نصرًا ساحقًا على أعدائه. أسقط النظام الديمقراطي، وقتل من أفراد شعبه ٣ آلاف مواطن مدني بين طالب، وعامل، ومحامٍ، ومهندس، والله وحده يعلم كيف قُتِلوا وما هي الأداة التي استخدمها القتلة في إزهاق أرواحهم؟ كما أن أحدًا لا يعرف أين دُفِنوا، وهل تم دفنهم في قبور جماعية؟ أم أن الجنرال قذف بجثثهم في أعماق المحيط لتحقيق الأمن الغذائي للأسماك؟

الجريمة ظاهرة وواضحة وعلى عينك يا تاجر، ومع أني كنتُ واثقًا منذ اليوم الأول لاحتجازه في لندن بأنه لن يلقى أي عقاب، ولن يدخل السجن ولو لساعات، وكيف يُحاكَم الجنرال والجريمة التي ارتكبها كانت لحساب الولايات المتحدة؟ صاحبة الكرة الأرضية وما عليها ... أستغفر الله! وفي الريف مثلًا ... من يرتكب جريمة لحساب العمدة لا يلحق به أي ضرر، فما بالك بالمجرم الذي يرتكب جريمة لحساب عمدة الدنيا كلها؟ هل كانت الإدارة الأمريكية ستسمح بتوقيع العقاب على الجنرال؟ لقد قامت مسز تاتشر أشهر وأقوى رئيس وزراء بريطاني في الأربعين سنة الأخيرة بزيارة الجنرال في مكان تحديد إقامته، وقالت عند خروجها من عنده ... هذا الرجل كان حليفي في حرب فوكلاند، وقدَّم لنا مساعدات قيمة ولا يمكن أن أنسى موقفه من بريطانيا في تلك الأيام، يعني بينوشيه ليس زعيمًا عاديًّا، وليس رئيس دولة مثل دولة مدغشقر في أفريقيا أو دولة تشيكيا في أوروبا أو دولة بورما في آسيا ولكنه حليف قوي، في الحرب يسد، في السلم يا ميت

حلاوة عليه، وهو قطب له «كرامتين» كرامة مع أمريكا وكرامة مع بريطانيا، مع أمريكا ... أنقذها من حرَج شديد، فهي زعيمة العالم الحر وكعبة العالم الديمقراطي وقضيتها الأولى هي الديمقراطية، وقد أرادت شيلي أن تثبت لأمريكا أنها تمشي على دربها فأجْرَت انتخابات حرة ونزيهة ونظيفة، وإذا بالشعب الشيلي يختار زعيمًا اشتراكيًّا هو الليندي، وهي في نظر أمريكا جريمة لا تُغْتَفر، ولكن ماذا تقول أمريكا؟ وكيف تعترض وقد طبقوا أسلوبها في الديمقراطية، واتبعوا تعاليمها، ونفذوا إرشاداتها؟ وربما لم تشعر أمريكا بهذا الكم من الحرج كما شعرت به يومئذٍ، فهي لا ترضى عن الليندي ولا ترضى به، فيكف تحاربه إذن؟ وكيف تشن عليه حربًا إعلامية بلا هوادة؟ لقد جاء الرجل بالديمقراطية، وبالديمقراطية حكم، ولم تستمر حيرة أمريكا طويلًا، فقد تولَّى الجنرال بينوشيه تغيير الوضع بالطريقة التي يجيدها، قاد طابورًا من الدبابات في شوارع العاصمة، وأطلق عدة أسراب من الطائرات حلَّقَت فوق قصر رئيس الجمهورية المنتخَب ودكَّت قصره بمئات من القنابل المدمرة، وسقط الرجل قتيلًا تحت أنقاض قصره، وأصبح الجنرال هو الحاكم الفرد لشيلي بقوة المَدافع وليس بقوة الناخبين.

ولكن أمريكا لا دخل لها بما حدث وهي بريئة من دم الشعب الشيلي براءة الذئب من دم ابن يعقوب. فما حدث في شيلي هو مسألة داخلية، وأمريكا — أستغفر الله — لا تتدخل في الشئون الداخلية للدول ولكنها تدع الأمور تجري في أَعِنَّتها، ولا تَبيتَنَّ إلا خالية البال.

وحكم الجنرال ١٧ عامًا طويلة فلما سقط الاتحاد السوفييتي استراح الجنرال، وترك السُّلْطة وأصبح عضوًا محترمًا في مجلس الشيوخ، فالموقف الدولي لم يَعُد يحتاج إلى خدماته، ولكنه ظل يرتدي بدلة المارشال وصدره يَتزيَّن بطن أوسمة وطن نياشين، بالإضافة إلى الحصانة، وعهد مكتوب، وموقع من الدولة بأن المذكور أعلاه هو مواطن محترم لم يرتكب جريمة، ولم تمتد يده إلى مال حرام، ومن حقه أن يعيش إلى آخِر يوم في عمره كريمًا وسليمًا، فلا يتعرض له أحد ولا يعترض طريقه أحد، ولا يُسأَل أو يُسْتجوَب أو يُتَّهم، ولم يحصل على التعهد أحد من قبله ولكن حصل عليه من بعده واحد فقط هو الخواجة يلتسين بتاع الاتحاد السوفييتي أو بمعنى أصح قاتل الاتحاد السوفييتي.

هذا هو الجنرال، وهذا هو كَشْف الهيئة تبعه، فهل كان أحد من الناس يَتصوَّر أنه سيُحاكم فعلًا ويجري ترحيله إلى سجن الاستئناف؟ السُّذَّج وحْدَهم هم الذين تَصوَّروا أن الجنرال قد سقط أخيرًا في الفخ وأنه سيشرب من الكأس نفسها التي تجرَّعها ضحاياه،

مع أن ما ذكرناه، وما حصرناه من أفضال للسيد الجنرال هو نصف جهود الرجل لأن أفضاله على بريطانيا تزيد قليلًا على أفضاله للولايات المتحدة؛ لأن يدَ الجنرال الكريمة امتدت لبريطانيا في وقت محنة، عندما نزلَت قوات كولونيلات الأرجنتين على جُزر فوكلاند باعتبارها جزءًا من التراب الأرجنتيني، ولكن المرأة الحديدية تاتشر رئيس وزراء بريطانيا حشَدَت الجيوش، وأعلنت التعبئة في الأساطيل البحرية والجوية وقالت قولتها الشهيرة: «تُقْطع يدي ولا تُقْطع فوكلاند»، وعندما وصلت طلائع جيشها إلى الشاطئ الآخَر من المحيط كانت قد قطعت أكثر من «٥٠٠٠» ميل بلا توقُّف وبلا راحة، ولذلك وصلت مُنهَكة وتعبانة وتعاني من صداع حادٍّ، وكانت هدفًا سهلًا لطائرات الأرجنتين، وفي لحظة من اللحظات تَصوَّرت تاتشر أنها أخطأت الحساب، وأنها أخطأت التَّصرُّف، وفي تلك اللحظة بالذات امتدت يد الجنرال إلى جيش مدام تاتشر بالدَّعم والمُسانَدة والمُساعَدة، وهو بهذا العمل ليس صديقًا فقط لبريطانيا أو حليفًا لها، ولكنه رفيق سلاح، ورفقة السلاح هي أوثق وأقوى رفقة في دنيا البشر.

ويقولون في الأمثال: «يا بخت من كان النقيب خاله»، والنقباء كثيرون، فشيخ الخفراء نقيب، وشيخ البلد نقيب، والعمدة نقيب، والمدير نقيب، والمدير العام نقيب عام، ويا بخت من كان أحد هؤلاء خاله، فما بالك بمن كان خاله هو عم الدنيا الولايات المتحدة وعَمَّة الدنيا بريطانيا العظمى العجوز الحيزبون.

ولكن وبالرغم من ذلك فالعبد لله يرى أن ما حدث للجنرال بينوشيه يكفي وزيادة، فهذا الفرعون الذي قتل الألوف، وعذَّب الألوف، ودفن الألوف أحياء، والذي تصوَّر في لحظة من اللحظات أنه هو الذي يُحيي ويُميت، هذا الرجل عاش في الحبس الإجباري سبعة عشر شهرًا طويلًا، والعقوبات أنواع والمجرمون أيضًا، فإذا كان سيد عجلة بلطجي حي زينهم لا يردعه إلا سجن مدى الحياة، فالجنرال بينوشيه أبو وردة على الخدين وأبو شريط أحمر على الساقين يكفيه تمريغ أنفه في الرغام وإحساسه بأنه لا يستطيع أن يبرح هذا المكان إلا بإذن، وأعتقد أن هذا يكفي وأنه إنذار إلى كل جبَّار عنيد، ولكن هل يستفيد الجبابرة والطغاة؟ ... هذا هو السؤال.

انتبِهوا أيها السادة!

ما هذا الذي يحدث الآن على الطُّرق السريعة في بر مصر؟ سيارة مُسرِعة ضربَت بنتًا في عمر الورد أمام قرية «نما»، فخرج أهالي القرية بربطة المعلم، ولما اكتشفوا أن السائق القاتل هرب، قَطعوا الطريق الزراعي، واستوقفوا جميع أنواع السيارات وأشعلوا النار في بعضها وحطَّموا البعض الآخَر، واعتدوا على رُكَّابها الذين لم يَرتكِبوا أي جريمة. وبعد أيام قليلة تكرَّرت الحادثة أمام قرية «أولاد سيف» بالقرب من بلبيس، ضربت سيارة مسرعة عِدَّة بنات من سكان القرية، فقَتلت فتاتين وجرحت الأخريات، وتكرر السيناريو نفسه … وخرج سكان القرية بربطة المعلم فلما اكتشفوا هروب السائق القاتل، وهروب السائقين الآخَرين الذين كانوا يتسابقون معه على الطريق الزراعي قاموا بقطع الطريق وأشعلوا النار في بعض السيارات وحطَّموا بعضها. ما الذي جعل الناس تفقد شعورها إلى الدرجة التي جعلتهم يقومون بتنفيذ القانون بأنفسهم، وتوقيع العقاب على الجناة بأيديهم؟ وما هي الأسباب الحقيقية وراء هذه الأعمال؟ وما هي الدروس المُستفادة منها؟ وما هي الوسائل الكفيلة بوقف هذه السلسلة من أعمال العنف على الطرق الزراعية في بر مصر؟

الحقيقة أيها السادة أن ما يحدث في الوقت الحاضر على الطُّرُق الزراعية في بر مصر خطير ويستحق أن ندرسه بعناية وباهتمام؛ لأن ما يحدث على الطُّرق المصرية لا يحدث في أي مكان على ظهر الأرض. فالأصل في الطُّرق أنها صنعت للمشاة؛ لأن المشاة وُجِدوا على هذه الأرض قبل اختراع السيارات بملايين السنين. والأصل في الطُّرق السريعة أن السيارات التي تقطعها لا تقابل شيئًا في طريقها، ويتحقق هذا بالأنفاق وبالكباري العلوية. وفي الطرق الشبيهة بأوروبا يستطيع السائق أن ينطلق وهو مغمض العينين؛

لأنه لن يقابل شيئًا يعترض طريقه على الإطلاق. وفي ألمانيا في عهد هتلر كان الإعدام عقوبة من يُضبَط سائرًا على قدميه في «الأوتوبان» وهي عقوبة مناسبة؛ لأن الحادثة التي كان سيتسبب فيها ستقضي على عدد كبير من الأرواح.

ولكن في بلدنا مطلوب من المشاة العابرين للطريق أو السائرين عليه أن يفتحوا أعينهم على الآخِر، وأن ينتظروا حتى يتوقَّف أسطول السيارات، فإذا حدث له مكروه ... فهذا وعد ومكتوب، ولكل أجل كتاب. وعقوبة السائق في كل الأحوال ... هي عقوبة القتل الخطأ، مع أن أغلبهم لم يتعلَّم السواقة بما فيه الكفاية، وبعضهم تخلَّى فجأة عن سواقة العربات الكارو وتفرَّغ لسواقة الأوتومبيل، ولكن في الحوادث لا شيء يهم على رأي إحسان عبد القدوس ... مع أنه في جميع بلاد الله تُعتَبر حوادث القتل بالسيارة جريمة قتل من الدرجة الأولى إذا كان بدون رخصة قيادة، أو إذا كان السائق مخمورًا، أو حتى إذا كان السائق أرعن لا يلتزم بآداب وسلوك الطريق. وهناك قصور حكومي بالصَّهْيَنة عن إنشاء أنفاق أمام القرى التي توجد على الطريق. أنفاق تتسع للماشية وللمشاة، مع أن الدولة وفَّرَت كل أنواع الطُّرق من «كباري» وأنفاق في القاهرة، لدرجة أنها اختصرت المسافة من مصر الجديدة إلى الجيزة في عشر دقائق لا تزيد؛ وجاحد من ينكر إنجازات الحكومة في هذا المجال، ولكن بقدر ما تَوسَّعت الحكومة في الإنشاءات المدنية داخل المدن، بقدر ما قصَّرت في أنحاء الريف، صحيح أنها شقَّت طرقًا جديدة كانت بمثابة الأحلام بالنسبة للفلاحين. ولكنها على طريقة ست البيت التي أفسدت الطبخة علشان شوية ملح، أشاحت وجهها عن إنشاء الأنفاق والكباري العلوية أمام القرى على طول الطرق الرئيسية، حتى إن طريق مصر الإسكندرية الزراعي، صار يعج بقوافل الجاموس والبقر، ساعة الصباح الباكر وفي وقت الغروب. ولكن الأمر الخطير في هذا الموضوع هو اتفاق الناس فجأة بأن يقوموا قومة رجل واحد ليقاتلوا طواحين الهواء، وهات يا حرق في الأوتوبيسات، وتحطيم في السيارات، واعتداء على الركاب الأبرياء الذين لم يكن لهم ناقة ولا جمل فيما حدث، هذه المسألة بالذات تحتاج إلى دراسة من خبراء الاجتماع ومن رجال السياسة ... وحتى لا نُفاجَأ بسلسلة من «الحوادث المؤسِفة» وهو الاسم الحركي الذي أطلقه اللواء ممدوح سالم على مثل هذه الحوادث في بداية عهد الرئيس السادات.

والعبد لله يَلفِت نظر حكومة الدكتور عاطف عبيد إلى ضرورة دراسة هذه الظاهرة قبل استفحالها، وذلك بتكليف وزارة المجتمعات العمرانية الجديدة بإنشاء ما يجب إنشاؤه من أنفاق «وكباري» علوية للمحافظة على أرواح المواطنين، وضرورة توقيع العقوبات

الرادعة على السائقين الذين يتصورون أنهم ملكوا الطريق وما عليه. وبعض هؤلاء السائقين الذين لا ضمير لهم يتسابقون على الطُّرق السريعة كلعبة ظريفة يَتسلَّون بها، حتى لو أدَّى السباق إلى سقوط قتيل أو أكثر على الطريق. ولا بُدَّ من فرض رقابة على الطُّرق السريعة بدوريات راكبة لتنظيم السير وضبط المخالفين من السواقين، وهي مسائل بديهية وإجراءات معمول بها حتى في بلاد أفريقيا السوداء.

ورحمة الله على أرواح الضحايا الذين سقطوا على الطريق، والله يغفر لنا جميعًا ... إنه على كل شيء قدير.

وأقول لكم أخيرًا ... انتبِهوا أيها السادة، فالأمر خطير ويحتاج إلى إجراء سريع!

الدجاجة وشعار جدِّي!

هل هو حلم أم علم؟ ... هل هذا الرجل الجالس في قفصه الزجاجي أمام قضاته المدعو أوجلان ... هل هو نفسه الثائر المقاتل قائد شعبه البطل أوجلان؟ ... الذي أشعل العشرات من أفراد شعبه النار في أنفسهم حزنًا عليه واحتجاجًا على اختطافه؟ ... هل يمكن أن ينهار بطل بهذا الحجم، ويتحول بين يوم وليلة إلى دجاجة وديعة، يطلب الصفح والغفران، ويُحمِّل الآخَرين المسئولية، ويُؤكِّد براءته من كل التُّهم التي نسبوها إليه؟

فاليونان هي التي حَرَّضَته وأَمَدَّته بالصواريخ، واليونان هي التي وقفَت في طريقه وعرقلت مساعيه الطيبة للصلح مع تركيا! حتى حادث مصرع رئيس وزراء السويد الأسبق، لم يَتردَّد أوجلان في اتهام زوجته السابقة وبعض قيادات حزبه الذين انشقوا عليه ... حتى سوريا اتَّهمَها أوجلان بأنها وفَّرَت له المأوى ومعسكرات التدريب، وأجبَرَته على الاستمرار في الثورة ضد تركيا، أما هو ... فكان مغلوبًا على أمره مُسيَّرًا لا مُخيَّرًا، مجرَّد دجاجة لا تهش ولا تنش، ولو كان الود وده والأمر بيده، لهرب من الجميع واندفع بحماس ليحتضن حكومة تركيا ويمطرها بالقبلات! هل يمكن أن ينهار بطل بهذا الحجم إلى هذا الحد؟ وهل يمكن أن يَتحوَّل أسد هصور إلى فرخة بلدي تحت أي ظرف ولأي سبب من الأسباب؟

إن ما نراه الآن بأعيننا في داخل المحكمة التركية هو واقع، ولكنه أغرب من الخيال ... بعض الذين يعرفون حقيقة ما يجري في الكواليس التركية يُؤكِّدون أن قسوة الأجهزة التركية بلا حدود. وأن السجون التركية هي أبشع ما عرف البشر من أصناف السجون، وأن كل ما قيل ويقال عن ممارَسات الشرطة في أنحاء العالم كوم، وما تُمارِسه الشرطة التركية وحدها كوم آخر.

وعلى فرض أن هذا الكلام صحيح ... فهل تكفي هذه الممارَسات لتحويل أسد هصور خلال هذا الوقت القصير إلى دجاجة؟ ثم إن البطل عبد الله أوجلان لا يبدو عليه أثر لأي عملية تعذيب، فلا وجهه منفوخ، ولا رأسه مبطوح، ولا جلده منزوع، ولا يده مشلولة، ولا ساقه مبتورة، فما الذي جرى بالتحديد؟

هل كان عبد الله أوجلان زعيمًا من ورق، ارتدى جِلد الأسد في منفاه وبعيدًا، عن يد السُّلْطة التركية؟ هناك قادة من هذا النوع، إذا خلا بأرض طَلَب الطعن وحْدَه والنِّزالَا، فإذا أطبق القفص عليه ارتَدَّ إلى طبيعته الحقيقية فتحوَّل إلى فأر، وربما إلى صرصار.

وخلال العمر الطويل الذي عِشناه رأينا أبطالًا واجهوا مواقف أصعب مائة مرة من الموقف الذي يواجهه أوجلان الآن ولكنهم لم يَضعُفوا ولم ينهاروا. عقب سقوط ثورة آية الله كاشاني في طهران، وسقوط عدد من قياداتها في قبضة السافاك ... وما أدراك ما السافاك؟ ... وبعد عدة أسابيع من التعذيب الذي لا يقوى على احتماله بشر ... حملوهم على الأكتاف وربطوهم على أعمدة النور، ربطوهم بإحكام وبشدة حتى لا يقعوا على الأرض؛ فقد كانت أرجلهم لا تَقْوَى على حَمْلهم من وحشية ما نالهم من تعذيب، وبالرغم من ذلك لم يفتح أحدُهم فمه بكلمة استرحام، وواجهوا رصاص فرقة الإعدام في هدوء، وفي شجاعة منقطعة النظير.

طبعًا العبد لله لا يعيب على أوجلان، ولا ينتقده، ولا أعرف ماذا كنتُ أفعل بالضبط لو كنتُ مكانه؟ ... ربما فقعت بالصوت الحياتي ليصل صراخي إلى كل مواطن تركي، وربما إلى كل مُواطن بلقاني، ولو ساعدني المولى الكريم فربما وصل صراخي إلى جبال بوليفيا، وإلى وديان جمهورية الدومينكان!

ولكن أوجلان ليس مجرَّد إنسان بسيط وغلبان ... إنه بطل وقائد وثائر وصاحب قضية، ورجل ولا كل الرجال فما الذي حدث للبطل في الأسابيع الأخيرة؟ وهل توصَّل الطب إلى إجراء عملية لتحويل الأبطال إلى فراخ؟ هذا هو السؤال.

ماذا تُخبِّئ الأيام القادمة لنا نحن البشر؟ وهل هو قَرن قادم جديد وسعيد، وعالَم آخَر يختلف عن العالم الذي عشناه وذقنا حلاوته ومراراته؟ أم هي الآخِرة وجهنم الحمراء والنهاية المحتومة لكوكب الأرض ولصنف البني آدم؟

والله يرحمه ويحسن إليه، جدي الشيخ خليل عاش عمره الذي امتد إلى ١٢٠ عامًا يرفع شعارًا لا يحيد عنه، الشعار يُعبِّر عن رأيه في الحياة والأحياء «الدنيا تؤلف ولا تؤلفان» ومعناه ببساطة أن نهاية الحياة تحدُث قبل نهاية الألف الثانية، طبعًا المرحوم

جدي الشيخ خليل كان لا يدرك أن الحياة عمرها مائة مليار عام — كما يقول بعض الخبراء وبعضهم يؤكد — كما نشر أخيرًا — أن الحياة عمرها ١٨ مليار عام، وإن كان بعض العلماء قد اعترضوا عليهم وحدَّدوا عمر الحياة بحوالي ١٢ مليار عام ليس إلا، وأيًّا كان الرأي الصحيح فالألف سنة التي مرَّت على مولد السيد المسيح، والألف الأخرى التي توشك على الانتهاء ... ليست هي كل عمر الدنيا. وبالرغم من إدراك العبد لله لهذه الحقيقة ... إلا أنني بدأتُ النظر من جديد في شعار المرحوم جدي. والسبب هي التطورات الأخيرة التي حدثت على مستوى العالم، على رأس هذه التطورات فشل محادثات السلام في يوغوسلافيا، مما يعني استمرار تورُّط الدول الكبرى في مستنقع البلقان.

وأي خطأ في الحساب على مسرح البلقان قد يُؤدِّي إلى حرب عالمية، وإذا نشبَت مثل هذه الحرب سيكون جدي الشيخ خليل هو أعظم متنبئ في التاريخ، هناك سبب آخر لتشاؤم العبد لله، هو استمرار القصف المتبادَل في كشمير، والخوف أن يتطور القصف بالمدافع إلى قصف بالقنابل النووية، وإذا حدث هذا — لا قدر الله — فستكون القارعة، وما أدراك ما القارعة؟ لأن الأمر لن يقتصر على الهند وباكستان فإذا انتصرت الهند على باكستان فالصين لن تقف مكتوفة اليدين، وإذا انتصرت باكستان على الهند لن تقف الولايات المتحدة متفرجة، وستكون ليلة سودة على البشرية، وقد يرحل جميع البشر قبل بزوغ شمس العام ألفين وواحد، ويصبح جدي الشيخ خليل هو الوحيد الذي اكتشف أسرار الكون قبل أي أحد آخر، ولكن هل صحيح أن العبد لله يؤمن بنبوءة جده الشيخ خليل؟ الواقع أنني غير مؤمن بها، ولكني فقط متشائم وأعتقد أن العالَم بالرغم من كل شيء سيشهد عصرًا جديدًا جميلًا ... أجمل من العصر الذي عشناه، عصر جديد لن يشهد رجالًا من أمثال: بينوشيه، أو نتانياهو، أو باتسيتا، أو بوكاسا. عصر تحتضنه التيارات الديمقراطية، وها هي بشائره تُشرِق على العالم الآن، عهد جديد في إندونيسيا، ونُظُم جديدة في أمريكا الجنوبية، وهدوء نسبي في الجزائر. وانتخابات حرة وفوز ساحق للسود في جنوب أفريقيا، ووصول مشكلة يوغوسلافيا إلى ردهات الأمم المتحدة، ورفع الحصار عن ليبيا، وعقبال العراق، وتحرير الجولان، والانسحاب من القدس الشرقية، ولقد تنبأ الشيخ أحمد يس بانهيار دولة إسرائيل وسقوطها في عام ٢٠٢٧م على وجه التحديد، والعبد لله يوافقه على ذلك ولو تحقَّق ما نتمناه سيكون القرن الحالي هو أعظم قرن تشهده البشرية. قُولوا إن شاء الله!

يا مهلبية ... يا!

للمرة العاشرة على الأقل أُريد أن أقول للسيد صفوت الشريف وزير الإعلام: إن هدفنا الوحيد هو تطوير العمل الإعلامي لكي يصبح في المقدِّمة، وليكون لائقًا بمصر الدولة ومصر الشعب؛ لأنه عيب جدًّا أن يتقهقر إعلامنا بينما يتقدَّم الآخَرون ... وسأضرب لسيادة الوزير صفوت الشريف مثلًا ببرنامج «صباح الخير يا مصر» وهو برنامج مُعلَّب ويشبه الأطعمة المحفوظة، نشرة أخبار في البداية، نَشرَة مرَّت على السيد المدير، والسيد الوكيل، والسيد المراقب، والسيد رئيس الوردية، ثم فقرة زراعية، والنشيد الخالد «عاوزينها تصبح خضرة» ثم فقرة المرور في القاهرة حيث «الكثافات» المرورية، ثم الفقرة الطبية إلى آخر فقرات البرنامج التي أصبحت مثل النُّكت القديمة التي لا تجد من يضحك لها.

وأقول لسيادة الوزير وللسادة الذين معه، الفقرات كلها حلوة وممتازة ولكنها ليست في مكانها الصحيح، خصوصًا وبرنامج صباح الخير يا مصر يُذاع على القناة الفضائية، والفقرة الزراعية تصبح مفيدة جدًّا لو أذيعت في قناة طنطا، أو قناة الصعيد، ولكن ما ذنب المشاهِدين في لندن وروما لمشاهدة برنامج عن زراعة العنب؟ أو معرفة أحسن الطُّرق لزراعة الكوسة؟ ثم ... برنامج المرور في القاهرة، برنامج مفيد ومطلوب ولكن في الإذاعة، ومكانه الوحيد إذاعة القاهرة الكبرى، وفائدته الوحيدة أن يصل إلى سائقي السيارات في الصباح الباكر، ليعرفوا حالة المرور والنقط التي تعاني من «الكثافات»، والنقط الأخرى التي تنعم بالسيولة، أما إذاعته عن طريق التليفزيون فليس له أي معنًى، خصوصًا إذا علمنا أنه يذاع عَبْر القناة الفضائية، وماذا يهم المُشاهد في روما أو باريس؟ إذا كانت هناك كثافات في مِحور شارع الأزهر، وسيولة مرور تحت نفق شُبرا، إن إذاعة مثل هذا البرنامج سيكون في مُتناوَل ست البيت وأرباب المعاشات وبعض الأطفال الذين لم يَصلوا بعدُ إلى

سن الدراسة، والذين لن يُغادروا بيوتهم في هذه الساعة إلا بسبب حادثة، أو كارثة، أو وقوع زلزال من نوع زلزال تركيا.

ثم هذه الفقرة التي تستضيف الدكتور ماهر مهران الذي كان وزيرًا للسكان، ثم تحول بعد ذلك إلى وزارة أصحاب المساكن، الفقرة ممتازة ولكنها تصلح لبرنامج المرأة، أما إذاعتها الصبح بدري فهو عمل غير لائق؛ لأن الحديث في الحلقة يدور ويلف في محيط الحَمْل والوَحَم، والحبل السُّري والمشيمة، والكلام بالتفاصيل حول هذه الأشياء قد يصيب المشاهد بالقرف.

الفقرة الوحيدة التي تناسب برنامج صباح الخير يا مصر هي الفقرة الرياضية ... و... لأن الحلو ما يكملش فقد ظهرت الفتيات في البرنامج في زِي غريب يجعلك تتصور أنه برنامج من وضْع حكومة طالبان، وتعطيك انطباعًا بأن المُشرِفين على هذا البرنامج هم من أعضاء «جماعة الناجون من النار»، مع أن هذا البرنامج يُذاع مثله في جميع تليفزيونات العالَم، في دول أوروبا يذاع البرنامج بواسطة فتيات زلط ملط، وفي بلاد أخرى يظهرن في ملابس رياضية نظيفة ولائقة، ولكن في تليفزيون بلدنا فقط تظهر فتيات الرياضة في ملابس أشبه بالأشولة أو الجونيات باللهجة العراقية.

إن البرنامج كله في حاجة إلى إعادة نظر، وأرجو ألا يَغترَّ المسئولون عن التليفزيون بقصائد المديح التي ينظمها بعض المتعاملين مع البرنامج؛ لأن أغلبها غير صادق وغير حقيقي، والغريب أن قصائد المديح تأتي أحيانًا من رجال محترمين مثل الدكتور ميلاد حنا الذي صرح ذات صباح، ومن خلال فقرات البرنامج قائلًا: «برنامج صباح الخير يا مصر أفضل عشرات المرات من البرنامج الذي حمل الاسم نفسه في تليفزيون لندن وتليفزيون نيويورك»، وهو كلام غير دقيق بالمرة، وخطوة مباركة التي أقدم عليها صفوت الشريف بتقديم وجوه جديدة من بين المذيعين والمذيعات، ولكني أقول للسيد الوزير ... إن تغيير الوجوه الجديدة لا يعني التغيير في الملامح، ولكن يجب أن يشمل التغيير سلوك هذه النماذج من الأجيال الجديدة، ولكنني فُوجئتُ بالمذيع الجديد يرتدي البدلة والكرافتة ويتحدَّث بالطريقة نفسها التي يتحدث بها الآخَرون، كنتُ أتصوَّر أنني سأرى مذيعًا جديدًا يرتدي القميص والبنطلون مع بلوفر صوف مثلًا، وأن تكون أسئلتُه للضيوف أكثر حِدَّة أو أكثر تحدِّيًا، أن تكون أسئلة المذيعة الشابة أقصر وأذكى، ولكن الذي حدث بالفعل أن الفَرق الوحيد كان في السن، البنت أصغر سنًّا والولد أكثر شبابًا، ولكن الأسلوب واحد، والسؤال يندرج تحت يافطة «اللت والعجن» وهناك حاجة أيضًا إلى تغيير شامل

في برامج القناة الفضائية، وسأضرب للوزير نموذجًا لبرنامج واحد اسمه «إبداع» وربما اسمه «لحظة إبداع» ذات مساء في الصيف الماضي انتظرتُ البرنامج لكي أرى كيف يفكر فلاسفة التليفزيون وعباقرته، وجاءت اللحظة ويا داهية دقي، مندوب إعلانات لا يُجيد كتابة سطرين اثنين في أي مجال من مجالات الكتابة، كان مندوب الإعلانات إياه هو المُبدِع الذي اختاره التليفزيون ليقدمه لجمهور المشاهدين على القناة الفضائية، والكارثة الكبرى أن السيد مندوب الإعلانات راح يتكلم ويُثرثِر حول لحظات الإبداع، وكيف أنه يحب سماع الموسيقى لحظة هبوط الوحي عليه، ويُفضِّل الجلوس في حديقة غَنَّاء حيث تغريد الطيور وتفتيح الزهور، وفي النهاية سألَتْه السِّت المذيعة النشيطة، هل ننتظر منك عملًا إبداعيًّا في المستقبل القريب؟ وضحك مندوب الإعلانات النشيط وأجاب في تواضُع: إن شاء الله، فيه فكرة قدامي ولسه أنا باجري وراها، وربما تصوَّر الأستاذ إياه أن الأفكار من صنف الحرامية وأن على المبدِع أن يجري وراها لتسليمها إلى الشرطة! وأقول لسيادة الوزير: هذا البرنامج خطير جدًّا على الأمن القومي؛ لأن مصر فيها خمسة آلاف مبدع على الأقل، من بينهم شُبَّان ظهروا حديثًا، ويحتاج كل منهم إلى من يشجعه ويأخذ بيده، فإذا شاهد برنامجًا من هذا النوع، شعر المبدع الشابُّ بالإحباط وبأنه مهما أبدع، ومهما اجتهد فستكون الأولوية والأفضلية للسيد مندوب الإعلانات، وأسأل من باب الجهل بالأشياء ... كم يدفع مندوب الإعلانات من تحت الترابيزة لكي يظهر في برنامج إبداع؟ رأسه برأس نجيب محفوظ، وأنيس منصور، وأحمد رجب، وعاصم حنفي، وغيرهم من المبدعين! وهل ما أفكر فيه صحيح؟ أم أن الجهل والعمى الحيسي وعدم التقدير وعدم الفهم هو الذي جعل حضرات المسئولين عن برنامج «إبداع» لا يعرفون الفرق بين المبدع ومندوب الإعلانات. إذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كان كله عند بتوع التليفزيون صابون، فَالْطُم على خدك بشقافة وقول معايا وبالصوت الحياني ... يا مهلبية يا ... يا برامج يا!

حواديت شركة بوينج

شركة بوينج الأمريكية شركة عملاقة بإنتاجها وبرأسمالها وبحجم العمالة فيها، ويكفي أن تعلم أن أكثر من ٦٠ في المائة من حجم الأسطول التجاري الجوي الذي يحلق في فضاء الكرة الأرضية هو من إنتاج الشركة العملاقة، لكن ... «يا ميت ندامة على اللي حب ولا طلشي» تصرفات بوينج تجعلها عملاقة من نوع اتحاد شركات الحاج فتحي الريان والحاج السعد، إنها مسئولة عن إنتاج الطائرات فقط، ولكن سقوط الطائرات أو تفجيرها في الجو فليس لها علاقة به، فلا بُدَّ أن يكون وراء هذه الحوادث مؤامرة، أو عمل تخريبي، أو عمل إرهابي، أو أي عمل حد عامله ورابطه على رأس قرموط يسبح في مياه ترعة المريوطية، آخِر تفانين الشركة العملاقة هو موقفها من سقوط الطائرة المصرية في مياه المحيط الأطلنطي، وآخِر تفانين الشركة الأمريكية العملاقة هو الزعم بأن الطائرة سقطت بسبب مشاجرة حامية نشبت بين الطيار ومساعده داخل «قمرة» القيادة، وهناك شواهد كثيرة تُؤكِّد هذا الظن، فما أكثر نشوب المشاجَرات بين سائق الأوتوبيس والكمساري في شوارع القاهرة، وهي مشاجرات تؤدِّي غالبًا إلى سقوط الأوتوبيس في نهر النيل أحيانًا وفي ترعة الإسماعيلية أحيانًا، وزعمَت الشركة العملاقة أيضًا أنه ربما لم تنشب خناقة بين الطيار ومساعده، ولكن الأكيد أن مشاجرة ما نشبَت داخل قمرة القيادة، وربما اقتحم أحد الركاب حُجرة القيادة وانهال ضربًا بأحد الكراسي على نافوخ الكابتن الطيار، وربما كان السبب هو غضب الراكب من الطيار؛ لأنه أمر بمنع التدخين ساعة الإقلاع، وربما بسبب أنه لم ينطق بالكلمات المناسبة لتحية الزبائن الجالسين في الخلف فيقول لهم مرحبًا بهم ... «مسا التماسي يا ورد قاعد على الكراسي» وتهمس الشركة عن طريق وكلائها أن لديها تقريرًا دفعَت للحصول عليه دم قلبها يُثبِت أن مثل هذه المشاجرات منتشرة في أغلب قهاوي مصر، وأن قهوة واحدة شهدَت في عام ١٩٩٨م «٣٠٠ خناقة»

بما يقترب من خناقة واحدة كل يوم تقريبًا، وبالرغم من تكذيب التسجيلات في الصندوق الأسود لمزاعم شركة بوينج، إلا أنها ما زالت تُردِّد مزاعمها وأكاذيبها، تمامًا كما ظل الحاج السعد يُردِّد حتى بعد انكشاف أمره أن شركته العملاقة وحدها هي التي يتوقَّف على نشاطها أمن مصر الغذائي والسياسي والاجتماعي، وإذا كانت مزاعم الحاج السعد مُدبَّرة؛ لأن انكشاف أمره سيؤدي به إلى العودة مرة أخرى إلى عالَم الصياعة والضياع، فما هو عذر شركة بوينج العملاقة التي تبيع طائرات كل عام بالشيء الفلاني، وتكسب كل عام كبشة مليارات؟ الحقيقة أن ما يدعو شركة بوينج إلى الكذب هو السبب نفسه الذي يدعو الحاج السعد، فالمنافسة في سوق الطيران رهيبة وخطيرة ومتوحشة أيضًا، وربما هي أكثر وحشية من المنافسة التي كانت قائمة بين الحاج الريان والحاج سامي علي حسن في سوق الإتجار بالعملة، وهناك منافَسة قاسية داخل أمريكا نفسها من شركات تنتج طائرات مختلفة، ولكن المنافس الرئيسي هو الشركة الأوربية التي تنتج طائرات «إيرباص» وحوادث طائراتها أقل بكثير من حوادث طائرات البوينج، وهي تلقى الاضطهاد في أمريكا بالذات، وقد تمثَّل هذا الاضطهاد في منع طائرة الكونكورد من الهبوط في مطارات الولايات المتحدة بحجة أن صوتها يصيب الناس بالإزعاج. مع أن الطائرة أُنتِجَت خِصِّيصى للسفر إلى الولايات المتحدة عبر الأطلنطي، لسرعتها ولأنها تختصر المسافة إلى نصف المدة التي تستغرقها الطائرات النفاثة العادية، مما اضطر الشركة الأوربية إلى وقف إنتاج هذا النوع من الطائرات، خصوصًا بعد إحجام شركات الطيران عن شراء هذا الطراز بالذات، ولكن لحسن الحظ فإن أعضاء هيئة الخبراء التي تتولَّى التحقيق في مأساة الطائرة المصرية ليسوا موظفين في شركة البوينج، كما أنهم بالتأكيد ليسوا مرتشين من الصنف المؤمن بالحكمة الخالدة ... «يا بخت من نفع واستنفع!»، ولذلك اضطر كبير المحققين إلى أن يصرخ في وجه المسئولين عن شركة بوينج ناصحًا إياهم بالكف عن هذا الهراء الذي يُكرِّرُونه ويعيدونه بالرغم من الأدلة الواضحة التي ظهرت من خلال الصندوق الأسود.

والعبد لله ينصح اللواء الريان رئيس شركة مصر للطيران إذا ثبت أن مأساة الطائرة كانت بسبب خَلل فَنِّي من صُنع الشركة، وإذا ثبتت هذه الحقيقة فالواجب يقتضينا أن نعامل شركة الطيران المُنتجة معاملة شركات السجائر. صحيح أن المدخن يُقبِل على التدخين بمزاجه، وراكب الطائرة يركبها براحته، ولكن المحاكم الأمريكية حكمت لبعض المدخنين الذين أصيبوا بالسرطان بمبالغ على سبيل التعويض تجاوز بعضها المليار دولار.

أقول هذا القول وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن الطائرة المصرية هوت في المحيط بسبب عمل تخريبي نذل وحقير، وستكشف لنا الأيام أن وراء سقوط الطائرة عمل نذل وجبان

ووسخ ... ولكن ... وبالرغم من أنني متأكِّد من هذا الأمر، إلا أنني أقول بأننا مسئولون أيضًا، مسئولون بتراخينا وإهمالنا وعدم انضباطنا وعدم أخذ الحيطة والحذر، بالرغم من معرفتنا بأن عدوَّنا كلب وخنزير ولا يتورع عن القيام بأي عمل.

رضوان الله على شهدائنا، وغفر الله لنا جميعًا!

المركزية والشاويش عطية!

يقولون إن المخابرات المركزية الأمريكية تسمع دبة النملة في أحراش بوليفيا، وتعرف ماذا أكل الصرصار في مُستنقَعات الهند، ولكن يبدو أن الحقيقة تخالف هذا الزعم، وأنها مخابرات غلبانة ونظرها على قدها، والدليل على ذلك هو موقف الإدارة الأمريكية المنحاز لإسرائيل في مسألة القدس، ألا تعلم المخابرات الأمريكية أن القدس المحتلة هي بقعة مُقدَّسة لدى المسلمين؟ ليس المسلمين العرب فقط، ولكن عند جميع المسلمين في شتَّى بقاع الأرض ... والمسلمون عددهم اليوم مليار مسلم ومنهم واحد فقط أجبر المخابرات المركزية على أن تلطم الخدود، وتشق الجيوب كما كان يفعل النسوان في أيام الجاهلية. هذا المسلم اسمه ابن لادن، والمسلمون يختلفون حوله إلى ثلاث جبهات، جبهة تتبنَّى وجهة النَّظر الأمريكية، وجبهة على الحياد، وجبهة ثالثة تؤيده وتدعو له بالتوفيق، ولكن الضغوط الأمريكية التي تهدف إلى إجبار الفلسطينيين على التنازل عن القدس لمصلحة إسرائيل لو كُتِب لها النجاح، سيجعل مائة مليون مسلم إرهابيًّا بالمفهوم الأمريكي، فَشَر ابن لادن، لن ينعم المسلمون بالنوم والقُدس يرفرف عليها علم دولة إسرائيل، وتستطيع الإدارة الأمريكية أن تبقى بعيدًا عن هذه المشكلة، وأن تدع إسرائيل تعالجها بنفسها لكي تكون المعركة محصورة بين المسلمين وإسرائيل، وقد تَصوَّرتُ أن الرئيس كلينتون يعرف هذه الحقيقة وأنه سيغسل يده من مسألة القدس، إلا أن ما انكشف من خفايا كامب ديفيد يُؤكِّد أن كلينتون كان أكثر حماسًا من باراك في إقناع عرفات بالتنازل عن القدس، ليس هذا فقط، ولكن الرئيس أكد موقفه هذا في حديثه التليفزيوني الذي أذيع في إسرائيل، حين أعلن على الملأ أنه يفكر في نقل السفارة الأمريكية إلى القدس قبل نهاية هذا العام، ثم أعقبته السيدة الأولى هيلاري المرشحة في انتخابات الكونجرس عن دائرة نيويورك

اليهودية حين أعلنَت في تصريح لها بأنها من أنصار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس قبل نهاية العام.

عجايب! ... على رأي جدي الشيخ خليل ... إيه الحكاية؟

هل تتصور الإدارة الأمريكية أن القدس هي مُخيَّم من مخيَّمات الهنود الحمر تسكنها قبائل الزعيم «الثور الجالس» وأنها مسألة هيئة، يتولَّى الجيش الأمريكي إبادة سكان المخيَّم، ويتولى بعد ذلك طرد «الثور الجالس» وأتباعه إلى مستنقعات كندا؟

لقد حشرت الإدارة الأمريكية نفسها في مشكلة ستكون لها آثار بعيدة في السنوات القادمة، على رأس هذه الآثار إحراج حلفاء أمريكا في المنطقة العربية، وعلى امتداد العالم الإسلامي، وسيدفع هذا الموقف الأمريكي جميع الذين يقفون موقف الحياد بين العرب والمسلمين إلى تأييد مَن تصفهم الإدارة الأمريكية بالإرهابيين؛ لأنه في حالة فصل القدس وتسليمها للدولة اليهودية سيتمنَّى كل مسلم أن تَسنَح له ولو فرصة واحدة ليتحول فيها إلى إرهابي لينتقم من هؤلاء الذين حرموا المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى، إن هذا الموقف الأمريكي في كامب ديفيد نفَخ الروح في جثة اليمين الإسرائيلي، إلى الدرجة التي تمكَّن فيها شخص مجهول يدعى قصاب من هزيمة شمعون بيريز مرشح حزب العمل لمنصب رئيس إسرائيل، كما عاد الجنرال شارون وانهمك في نصب كمائنه لحكومة باراك تمهيدًا للقفز على منصب رئيس الوزراء وهو الأُمِّي سياسيًّا؛ لكي يلقي على العرب دروسه الرفيعة وتعاليمه الغالية كما فعل أول أمس، حين أعلن أن القدس الموحَّدة هي العاصمة الأبدية لإسرائيل، وأن على العرب أن يُلقِّنوا أبناءهم هذه الحقيقة في المدارس، إن نجاح الليكودي المتطرف قصاب برئاسة إسرائيل تعني أن إسرائيل تستعد وتتأهَّب لمرحلة جديدة من الصراع الدامي مع العرب، وليس أمام العرب الآن إلا تصفية الخلافات ولَم الشمل وتوثيق العلاقات مع إيران، ومع روسيا، ومع باكستان باعتبارها صاحبة مصلحة في موضوع القدس، وعلى لجنة القدس برئاسة الملك محمد السادس أن تجتمع فورًا بعد أن كشفت أمريكا عن نِيَّاتها بشأن القدس، وعلى المؤتمر الإسلامي أن يدعو إلى عقد قمة عاجلة لبحث موضوع القدس.

ولكن أخطر ما كشفَت عنه قمة كامب ديفيد هو الموقف الحقيقي للإدارة الأمريكية، والمفروض أن أمريكا هي الوسيط المحايد، وهي الشريك الكامل في عملية السلام، ثم جاء مؤتمر كامب ديفيد لينفي هذه الحقيقة، وليزيح اللثام عن الوجه الأمريكي الحقيقي، فإذا بأمريكا هي الشريك الكامل لإسرائيل، والخصم للفلسطينيين والعرب والمسلمين أيضًا، يا

له من خطر شنيع ترتكبه الإدارة الأمريكية بنقل سفارتها إلى القدس العربية المحتلة! وبعد ذلك يزعمون أن المخابرات المركزية تسمع دبة النملة في بوليفيا وتعرف ماذا أكل الصرصار في مستنقعات الهند، العبد لله يعتقد بعد الموقف الأمريكي من قضية القدس أن المسئول عن شبكة المخابرات المركزية هو الشاويش عطية.

أول أغسطس هو ذكرى غزو العراق للكويت، وهو خطأ فادح ارتكبه حزب البعث العراقي ضد دولة عربية مُسالِمة لم تتأخَّر في أي وقت عن المشاركة في المعارك العربية الكبرى، ويحار العقل أمام أسئلة كثيرة حول هذه المناسبة، لماذا وقع الغزو؟ وما هو الهدف بالضبط؟ وهل كان حزب البعث العراقي يُجهِّز جيش العراق بكل أنواع الأسلحة من أجل غزو الكويت؟ وهل الكويت هي العدو الحقيقي لأمة العرب التي هي في شعارات حزب البعث العراقي أمة واحدة ذات رسالة خالدة؟

إنه خطأ فادح بدون شك، ولكن مرَّت عشر سنوات على ارتكابه، والشعب العراقي مُحاصَر ومَعزول عن أُمَّته وعن العالم كله، وأعتقد أن عشر سنوات هي مدة أطول من اللازم، خصوصًا أن الذي يتحمَّل العقوبة ويدفع الثمن هو الشعب العراقي الذي لم يكن له ذَنْب فيما حدث، وأعتقد أن من واجبنا كعرب أن نرفع المعاناة الآن عن أطفال العراق ونساء العراق وشيوخ العراق، ويكفي ما عانَوه خلال عشر سنوات كاملة، متى يفهم العرب أن القدس في طريقها إلى الضياع بينما نحن نشترك في عزل العراق ومقاطعته؟ ويا شعب العراق ... قلبي معك، والشعب العربي معك، والله معك ... معك أنت وليس مع حزب البعث العراقي.

عفوًا ... حضرة المحافظ!

كانت تُهَم الخيانة والعمالة تُصدَّر في الماضي من بعض صياع السياسة ودراويش اليسار، وكانوا يتسرَّعون بإلقاء هذه التُّهم ضد مَن يخالفهم الرأي أو يسخر من دعاواهم، ولكن هذه التُّهم فقدَت معناها بسبب سوء استعمالها، ولكن لأن كل شيء أصابه التغيير في هذا الزمان، فقد انقلب الحال، فأصبح الذين يُوجِّهون مثل هذه الاتهامات مسئولين كبارًا، المفروض أن كلامهم يوزن بميزان الذَّهب وليس بميزان الدَّبْش والزلط، وأصل الحكاية أن جريدة «الأخبار» الغراء نشرت في عددها الصادر يوم الأحد الماضي بتاريخ ٢٥/٦/٢٠٠٠م وعلى الصفحة الثانية تحقيقًا صحفيًّا استغرق الصفحة كلها عن مشروع فوسفات أبو طرطور ... وتضمَّن التحقيق الصحفي آراء عدد من أعضاء مجلس الشورى وبعض العلماء وبعض رجال الأعمال، وكل منهم أدلى برأيه في المشروع، وقد تقدَّمهم جميعًا السيد المهندس الدكتور مصطفى الرفاعي وزير الصناعة ... وقد حرص العبد لله على قراءة آراء العلماء ومنهم الدكتور رجائي زغلول الأستاذ بهيئة الطاقة الذرية، وجاء على لسانه أن المشروع ناجح جدًّا ويمكن بعد تشغيله استرداد ما أنفقَته الدولة خلال عشر سنوات فقط إذا تم الاكتفاء باستخراج المواد الصناعية النادرة من الفوسفات، ويكفي أن تعلم — هكذا قال الدكتور — أن ٣٠٠ ألف طن من ركاز الفوسفات يمكن أن نفصل منها ١٢ طنًّا من اليورانيوم تصلح كوقود نووي لمفاعل قوته ٥٠ ميجا ينتج الكهرباء لمدة عام، أما الدكتور أحمد أمين مدير معهد التبين للدراسات المعدنية فقد كشَف عن حقيقة نيَّات روسيا التي أنشأت المشروع والتي كانت تهدف إلى الحصول على ٨٥ في المائة من الإنتاج مقابل تقديم المُعدَّات بسبب وجود المواد النادرة في الفوسفات المصري، ويكفي وجود اليورانيوم أو مادة «اللانثنايت» التي يُباع الكيلو الواحد منها بألف وخمسمائة دولار، لفت نظر العبد لله ما جاء على لسان السيد محمد رجب زعيم الأغلبية بمجلس

الشورى قال: لن أحكم على المشروع بشكله النهائي إلا بعد الانتهاء من دراسة دولية محايِدة تؤكد أن المشروع يسير على الطريق الصحيح، ولكني أنوه — السيد محمد رجب هو الذي ينوه — أن إسرائيل تضغط في الساحة الدولية لكي يفشل المشروع بسبب ما عُرِف عن وجود اليورانيوم في فوسفات أبو طرطور.

وكل هذه الآراء لها حُجِّيَّتها ولها احترامها، ولا حَجْر على رأي، ولا اعتراض على اجتهاد، ولكن ساءني جدًّا ما جاء على لسان مسئول هو السيد اللواء سلمي سليم محافظ الوادي الجديد، فماذا قال سيادة المحافظ؟ انتقد بشدة كل الذين طالبوا بوقف نزيف الخسائر التي تكبَّدَتها الدولة في أبو طرطور، وهذا حقه بكل تأكيد لا أناقشه فيه ولا اعتراض عليه، ولكنه فجأة انتابه حماس شديد وأعلن أن أي «وطني» يَهاب أن يطالب بفك صامولة واحدة في المشروع رغم ما تَعرَّض له من خسائر، وأضاف ... مصر لديها العلماء، ورجال الأعمال الوطنيون القادرون على تنظيم المشروع واستعداله، ولا بُدَّ من مواصلة المشروع، وإيجاد بديل لاستكمال التمويل اللازم للتوجه الجديد، وسنواجه المشكلات بعلم وجدية «وبوطنية» لأن هناك «جهات أجنبية» لا تريد للمشروع أن يكبر أو يُسْتَكمل، وأسأل السيد المحافظ سلمي سليم ... ما هي هذه الجهات الأجنبية التي لا تريد للمشروع أن يكبر أو يستكمل؟ والإجابة عن هذا السؤال تهم العبد لله كثيرًا؛ لأن العبد الله كان أحد الذين تَصدَّوا لهذا المشروع الفاشل الذي كلَّف خزانة مصر غاليًا. وقمتُ بحملة عاصفة ضد المشروع، وضد الذين أنْفَقوا أو بدَّدوا المليارات على المشروع، وعلى خط سكة حديد لا يحقق سوى ٢٠٠ جنيه إيرادًا شهريًّا، ولما كان العبد لله هو رأس الحربة ضد مشروع أبو طرطور، فالعبد لله حسب نظرية سيادتك من عملاء الجهات الأجنبية إياها، وأعترف لك يا سعادة المحافظ أنني على علاقة بالموساد، وبالمخابرات البريطانية، وبـ "C.I.A" الأمريكية، فأؤكد لك يا سيدي المحافظ الوطني، أنني لم أسمع من أي جهة أجنبية أنهم يَتربصون بمشروع أبو طرطور، وإذا كان هناك تربُّص من هذه الجهات، فهو بالتأكيد محاوَلة من جانبها لكي نمضي قُدمًا في المشروع إياه، ننفق عليه من خزانة الدولة حتى يَتحوَّل المشروع إلى جرح يظل يَنزِف إلى ما لا نهاية، وأقول لك يا سيدي المحافظ، العبد لله يعلم أنك رجل وطني، ومشهود لك بالانضباط ورجاحة العقل، ولكنَّنِي أؤكد لك يا سيادة المحافظ أنَّني وكل الذين عارضوا مشروع أبو طرطور لا يَقِلُّون وطنيةً عن سيادتك، وهذه الوطنية هي التي دعتنا إلى مُعارَضة هذا المشروع الغبي الذي كان السبب في إهدار ٦ مليارات جنيه ونصف المليار، حار ونار في جِتَت الذين بدَّدوها وهَبَروا جانبًا منها علمه عند ربي.

ويبقى بعد ذلك أن سيادتك محافظ في محافظة نائية ومشكلاتها كثيرة، وأسأل الله أن يوفقك في تنمية المحافظة وحَل مشكلاتها، ولكن ليس عن طريق محاولة إحياء مشروع أبو طرطور، ثم إنك يا سيدي لستَ مفتي الديار الوطنية، وليس من مسئولياتك توزيع تُهَم الخيانة والعمالة على الآخَرين، وهي تُهَم فقَدَت معناها لسوء الاستعمال.

الحكم الذي صدر ضد نواب القروض بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، هو وسام على صدر نظام حسني مبارك، وهو شاهِد على أنه لا يوجد أحد في مصر فوق القانون، والدليل على ذلك أن أحد النواب المحكومين كان وزيرًا، كما أنه كان من الضباط الأحرار، وأرجو أن يكون هذا الحكم درسًا مفيدًا للسادة المحترمين من أعضاء مجلسي الشعب والشوري؛ لأن هذا الحكم يعني أنه لا عاصم اليوم من أمر ربي إلا لمن سلك طريقَي الاستقامة والطهارة، وأن الحصانة لا تمنع وقوع البلاوي، وعشمي أن يكون هذا الحُكم هو الشعار الذي يرفعه الجميع فوق الرءوس، وأن نهتف جميعًا من تحته: من هنا نبدأ.

والجنسية ... إرهابي!

صحيح ... بَطَّلوا ده واسمعوا ده ... بعد أن صدَّعوا أدمغتنا بالإنترنت، والسموات المفتوحة، وثورة المعلومات فجأة ألْغَوا مرحلة من مراحل سباق داكار - القاهرة؛ لأن مجموعة من الإرهابيين العرب رصدَتْهم الأقمار الصناعية وأجهزة طائرات التجسس، وأكَّدَت المعلومات الوثيقة التي جاءت عَبْر آخِر صيحة في أجهزة التجسس، أن الإرهابيين يتجولون في شمال النيجر بِحُرِّية بَالغة، ويستخدمون في تَنقُّلهم سيارات حديثة وقوية، وأن الهدف من العملية الإرهابية التي جاءوا إلى النيجر من أَجْلِها هو خطف أو قتل الأبطال المشتركين في سباق داكار - القاهرة، وطبعا لأن أجهزة التجسس الحديث لا تكذب، وأنباء الأقمار الصناعية لا تخر الميه، فقد اتخذت جميع الإجراءات لحماية نجوم سباق داكار - القاهرة، وتَقرَّر إلغاء مرحلة النيجر من السباق، وحطت الطائرات الضخمة على أرض مطار النيجر حمَلَت سيارات المتسابقين، وسيارات الحكام وأمتعتهم وفنادقهم المتنقلة، وحطت الطائرات بكل شيء على أرض مطار ليبيا حيث تقرر استئناف السباق في مرحلته الأخيرة من حدود ليبيا إلى مدينة القاهرة.

والحق أقول: إن الإنجاز الطيب الرائع الذي قامت به بعض الدول الكبرى في إفشال المخطط الإرهابي نال إعجاب الكثيرين، فهذا العمل هو مثَل طيب للنظام العالمي الجديد وأجهزته الفعالة، ومن يدري؟ لولا طائرات التجسس، ولولا الأقمار الصناعية لنجح الإرهابيون في تنفيذ مؤامرتهم الدنيئة ولخسر العالم عشرات من أبطال سباق السيارات الدولي، ولكن الله سَلَّم، وبعد أيام قليلة استأنف المتسابقون سباقهم ووصلوا جميعًا إلى خط النهاية بجوار الأهرام.

وفي القاهرة أقامَوا الأفراح والليالي المِلاح، ووزعوا الجوائز والشيكات، ووضَعوا الدَّرَجات، وانفض المولد على خير، ولكن لم تكد تمضي أيام قليلة حتى أعلن بأن أخبار أجهزة التجسس اتضح أنها فشنك، وأن الأقمار الصناعية أصابتها الشيخوخة، وأن الإرهابيين الذين رصدتهم هذه الأجهزة في شمال النيجر وحذَّرَت من ممارَساتهم وأفعالهم الإجرامية ما هم في الحقيقة إلا مجموعة من السُّيَّاح العرب يقومون بالصيد في شمال النيجر، وهي منطقة مشهورة بوجود الكثير من الحيوانات البرية.

غريبة ... ليس في المسألة إرهاب ولا إرهابيين، ولكن ما سجَّلَته الأقمار الصناعية وأجهزة التجسس لم يكن إلا نوعًا من أنواع الرياضات، ربما أقدم رياضة عرفها تاريخ الإنسان، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو كيف أخطأت هذه الأجهزة الحديثة التي تكلَّفَت المليارات؟ وهل هناك احتمال أن تقع في خطأ آخَر قاتِل فتُنذِر الإدارة الأمريكية بأن الصواريخ الروسية انطلقَت وفي طريقها الآن إلى الأراضي الأمريكية، أو تفعل العكس فتُنذِر الأجهزة الروسية بأن أمريكا فتحَت أبواب جهنم، وأطلقت جميع أسلحتها النووية، وهدفها إبادة روسيا وشَطْبها من على الخريطة؟ وهو سؤال وجيه ولكن العبد لله يستبعد وقوع مثل هذا الخطأ القاتل، أما الخطأ الذي وقعَت فيه الأجهزة في عملية النيجر، فهو خطأ وارد ومنطقي ومعقول، فهؤلاء العلماء الذين صنعوا هذه الأجهزة عندهم حساسية شديدة من العرب ووجود أي عربي في أي مكان معناه وجود إرهابي في الجوار، وقصة الطيار الأمريكي الذي هبط بطائرته اضطراريًّا ولم يكن هناك أي داعٍ لهذا العمل إلا وجود بعض الركاب العرب على ظهر الطائرة.

طيب ... ركاب عرَب وفهمنا ... هل قاموا بتهديد أحد؟! هل صوَّبوا فوهة المسدس إلى رأس الطيار؟ ... لا لم يحدث شيء من هذا ولكن كونهم مُجرَّد عرب هو دليل كافٍ على أنهم إرهابيون، وأجهزة التجسس معذورة بكل تأكيد فَهُم ليسوا عربًا فقط، ولكنهم يرتدون الزِّي العربي أيضًا علامة التحدي وعدم المبالاة، وليس ببعيد أن يأتي يوم تُكتَب فيه في خانة الجنسية صفة إرهابي بدل عربي، وتصبح أسماء الدول في الواقع وفي نظر الغرب الجمهورية الإرهابية المتحدة، الجمهورية الإرهابية، الإرهابية على وزن الجماهيرية فالغرب المُسلَّح من رأسه إلى ساسه على رأي ستي هدية يشعر بالذُّعر من أي عربي لدرجة أن زعيمة العالم الغربي تعيش حالة من الرعب الدائم، وتعتبر كل عربي هو قنبلة موقوتة على وشك الانفجار ... وأبلغ دليل على الرعب القاتل الذي تعيش فيه هو ما حدث منذ أيام عندما ألقت القبض على مواطن عربي من شمال أفريقيا قادم من كندا ووضعوه

في السجن تمهيدًا لمحاكمته، وقالت في بيان رسمي: إنه سيقدم للمحاكمة بتهمة الإرهاب وكشريك لعربي آخَر أُلْقِي القبض عليه في فترة أعياد الميلاد وكان على وشك القيام بعملية إرهابية داخل الولايات المتحدة، ولكن الشيء المضحك حقًّا أن البيان الأمريكي اعترف بكل صدق أنه لم يثبت أن هذا العربي الذي ألقي القبض عليه عند الحدود الكندية على علاقة من أي نوع بالعربي الآخَر الذي ألقوا القبض عليه في فترة أعياد الميلاد ... الله ... طيب ما دام ثبت لديكم أنه لا علاقة له بالمتهم الأول فلماذا القبض والاعتقال والمحاكمة؟ ولكن الحذر واجب طبعًا فهناك تهمة مشتركة بينهما وهي أن كليهما عربي، والعربي للعربي كالبنيان المرصوص، كما أنه في فترة العولمة والخَصْخَصة وآليات السوق تَبرُز الجنسية العربية كتهمة مُستقِلَّة لا تحتاج إلى أدلة أو براهين فأنت عربي ... إذن فأنت إرهابي ... وعلى جميع الجهات الرسمية والشعبية أن تعامله بما يليق.

وا عروبتاه ... ولكن لا سميع ولا مجيب!

أثبت الولد العجوز عادل إمام أن الدهن في العتاقي، وليس معنى الدهن في العتاقي أن أكل البدارة سيِّئ الطعم، أو أن الكتاكيت الشمورت مُرَّة المذاق، ولكن معناه أن عادل إمام موجود بقوة لأن وجوده ضروري، وفي الفن الخبرة لها دور، وعادل إمام خبرته بلا حدود، ورؤيته السياسية مطلوبة خصوصًا في عالمنا الجديد، وأنت لا تستطيع أن تضحك الناس عدة سنين طويلة بهز الكرش أو تلعيب الحواجب، ولكن أضمن لك أن تظل مُضحِكًا على طول الخط إذا تَصدَّيت بالكوميديا لكل مَتاعب الناس وسلَّطتَ الأضواء على كل الأسباب التي تكون حياتهم بالسواد؛ لأن الكوميديا الحقيقية تنبع من مأساة حقيقية، وهذا الشرط ينطبق على مسرحية عادل إمام الأخيرة بودي جارد ... والعبد لله أشفق على عادل إمام عندما قرأتُ في الصحف أخبار اعتزامه القيام بدور البودي جارد، وتذكَّرْت على الفور الدور نفسه في الفيلم الأمريكي الذي يحمل الاسم نفسه، فكيف سيقوم عادل إمام بأداء دور البودي جارد كما جاء في الفيلم الأمريكي وهو نفسه محتاج إلى بودي جارد، ولكني بعد مشاهدة المسرحية اكتشفتُ أنهم عالَجوا الموضوع بطريقة مصرية ممتازة فهو ليس بودي جارد طولًا وعرضًا وعضلات ووسامة وخبرة بلا حدود في ضرب المسدسات والكلاشنكوفات، ولكنه بودي جارد غلاسة، وقلة دم، وقلة أصل، ورذالة بلا حدود، ثم بودي جارد عادل إمام تصدَّت لحرامية البنوك وهي قضية الساعة الآن في مصر هؤلاء الذين انتحلوا صفة المستثمرين ومارَسوا الاستثمار بفلوس غيرهم، وليتهم

استثمروها بالشكل السليم، ولكنهم استثمروها بشكل يحقق مصلحتهم الخاصة، أما مصالح الوطن، ومصالح الشعب، ومصالح الفقراء، ومصالح أصحاب الدخل المحدود إلى آخِر هذه الأكليشيهات التي سئمناها ومللناها فهي لا تعني شيئًا عند السادة المستثمرين الجدد، وقد نجح عادل إمام في معالجة هذه القضية، وجاءت مسرحيته بمثابة صرخة احتجاج في وجه كل الحرامية.

والبنت رغدة قامَت بدور حرَم الاستثماري الحرامي بشكل يدعو للإعجاب فهي تختلف مع الحرامي وتتمرَّد عليه، وقد تذهب في تَمرُّدها إلى حد الخيانة، ولكن عندما تصل المسألة إلى حد ضياع المستثمر وضياع الثروة فهي تقف بحزم إلى جانبه، ولمع إلى جانب عادل إمام ورغدة الممثل الممتاز عزت أبو عوف في دور المستثمر الحرامي، كما لمع أيضًا سعيد عبد الغني في دور الصديق الصدوق للمستثمر الحرامي، كما أعجبتني المرأة الحيزبون الظريفة التي لا أعرف اسمها ولم أرها قبل ذلك في أي عمل فني، أما الولد رامي بن عادل إمام فقد بَرْهَن على أحقِّيَّته وجدارته، واستطاع أن يكتب شهادة ميلاده كمخرج واعد وفنان.

هذا اللاجئ الصياني!

يبدو أن تغييرًا كاملًا وعميقًا سيشمل أشياء كثيرة في القرن الجديد، ففي القرن الماضي كنا نعرف اللاجئ السياسي، وهو الرجل المشتغل بالسياسة الذي يَلقى عنتًا واضطهادًا في بلاده، فيضطر إلى الهجرة ويلجأ إلى بلد آخَر، ويطلب حق اللجوء السياسي ولكن ها هو القرن الجديد يُقدِّم لنا صنفًا جديدًا من اللاجئين، ومن حُسن الحظ أن يكون طليعة هذا الصنف من اللاجئين مصريًّا من صلب مصري وأقصد به الطيار الذي طلب اللجوء إلى بريطانيا وعندما سألتُ السيدة الفاضلة حرمه عن سبب لجوئه، أجابت بأنه كان دائم الشكوى من الصيانة في شركة مصر للطيران ... هو إذن يستحق لقب ... لاجئ صياني، وهي صفة يبدو أنها ستنافس اللاجئ السياسي في قادم الأعوام، وبالقطع سيكون هناك لاجئ إداري يعني موظف زعلان من إدارته، ولاجئ علاوتي، يعني موظف لم يحصل على علاوته، وأتساءل في دهشة، الأخ الطيار إياه زعلان ومحتج من الصيانة، طيب لماذا لم تتقدم بشكواك إلى وزارة النقل، فإذا لم تنصفك فيمكنك التقدم بشكواك إلى مجلس الوزراء، فإذا لم يستمع أحد إلى شكواك فيمكنك رفع دعوى حسبة ضد شركة مصر للطيران باعتبارك صاحب مصلحة؟ ولكن يبدو أن أحلام الأخ الطيار أبعد من مسألة تحسين الصيانة، ويبدو أن الخطوة القادمة بعد اللاجئ الصياني يجري التفكير في إنشاء حزب الصيانة على وزن حزب العدالة، وبالتأكيد ستوافق عليه لجنة الأحزاب وتسمح له بإصدار جريدة يومية اسمها «المصونة».

وإذا كان ما أقوله ضربًا من الهزل، فهل يدلني أحدكم على الهدف من وراء لجوء الأخ الطيار إلى بريطانيا؟

وما هي الجهة المستهدفة من وراء هذه الحركات القرعة؟ من أول الشائعات التي تردَّدتْ في أجهزة الإعلام عن سبب سقوط الطائرة المصرية فوق سواحل أمريكا، إلى

الصورة التي نُشِرت في الصحف الأجنبية، صورة فتاة ألمانية عارية كما ولدتها أمها ترقص على متن طائرة مصرية.

وأخيرًا حكاية اللاجئ الصياني.

وأكرر السؤال مرة أخرى، ما هي الجهة المستهدفة من وراء هذا «العك» الأزلي؟ هل هي مصر؟ أم هي شركة مصر للطيران؟

إذا كانت مصر هي المستهدَفة فلا بأس، فمصر في رباط إلى يوم القيامة. والشجر المثمر هو الشجر الذي يقذفه الأولاد بالطوب ... أما إذا كان المستهدَف هو شركة مصر للطيران، فالعبد لله يعتقد أن وراء هذه الحملة المشبوهة جماعة من المستثمرين إياهم الخالق الناطق كالمستثمرين أبطال مشروع الحديد في أسوان الذين كشفهم الرئيس حسني مبارك في كلمته القصيرة الرائعة أمام جموع المفكرين الذين اجتمع بهم في معرض الكتاب، هؤلاء المستثمرون الذين كانوا يخططون لاقتراض ٨٠٠ مليون جنيه من أحد البنوك المصرية للمساهَمة في المشروع ثم السداد من دخل المشروع وهي نظرية اقتصادية قديمة اسمها «من دقنه وافتله»، فالثابت والأكيد أن هناك محاولات كثيرة بدأت منذ فترة طويلة لتصفية الشركة الوطنية، وتوزيع التركة على عدد من شركات القطاع الخاص التي تنتحل وظيفة الطيران، ويقول البعض إن هذه الشركات صادقة في دعواها، وإن الهدف من السيطرة على خطوط الطيران هو الحصول على ما خف حمله وغلى ثمنه وهات يا طيران!

ولدينا نماذج على مثل هذه الشركات.

فقد نشأت شركة طيران أهلية منذ أكثر من عشر سنوات وسيَّرَت خطوطًا غير منتظمة بين عدد من الدول الأوربية والعربية والقاهرة، وكان هدفها في الواقع تهريب الماس من بعض البلدان الأفريقية.

وهناك شركة أخرى كان مجال نشاطها الطيران التجاري وقد سقطَت لها طائرة في إحدى العواصم الأفريقية، وكشف الحادث عن مأساة؛ لأن الطائرة كانت تنقل حمولة كبيرة من الأسماك من منطقة البحيرات العظمى في فترة الحرب الأهلية بين رواندا وبوروندي، أو على الأصح بين الهوتو والتوتسي، وفي الوقت نفسه الذي انتشرت فيه آلاف الجثث على سطح البحيرات والأنهار هناك، مما دفع بأغلب الدول إلى تحريم استعمال هذه الأسماك للاستخدام الآدمي، وحمولة الطائرة التي سقطت كانت من هذه الأسماك الممنوعة دوليًّا، والطائرة نفسها كانت في طريقها من أفريقيا إلى بلجيكا ليس من أجل بيع

السمك في أسواق أوروبا، ولكن للقيام بعملية نصب على المسئولين عن السوق المصري، فوصولها قادمة من بلجيكا يجعل السمك أوربيًّا وليس أفريقيًّا ولا يجوز الحظر عليه أو منعه من الاستهلاك الآدمي.

مثل هذه الشركات طبعًا ستكون السبب في تعريض سمعة مصر للاهتزاز، ووضع سمعة الطيران المصري في الحضيض؛ لأن الطيران «بيزنس» من النوع الثقيل جدًّا، ولو قارنَّاه بالملاكمة، مثلًا فالطيران كبزنس رأسه برأس تايسون، وهوليفيلد، وهولمز، ولويس بطل العالم الحالي، ولا يجوز السماح لشركات من وزن الذبابة أو وزن الريشة بالملاكمة مع أبطال الوزن الثقيل، ولكن إذا لم تكن هناك شركات عملاقة بحق وحقيق ... شركات يحسب رأس مالها بالمليارات ... فأفضل لمصر أن تحتفظ بشركتها الوطنية مع السماح لبعض الشركات الجادَّة بالعمل إلى جانبها في مجال الشارتر، أو بعض الخطوط الفرعية هنا أو هناك.

والعبد لله كان يتناقش مع الصحفي المصري الدولي عمرو عبد السميع مدير مكتب الأهرام في لندن حول هذا الموضوع بالذات، وسألته السؤال نفسه، من المستهدَف من وراء هذه الخرابيط التي تقع بين الحين والآخر؟ هل هي مصر؟! أم شركة مصر للطيران؟!

وأجابني عمرو ... يبدو أنهما الاثنان معًا ... ولو صحَّت نظرية عمرو فهي مسألة مُريبة وغريبة وينبغي أن نواجهها بكل حزم ... ولكن المؤسف حقًّا أن بعض هذه الخرابيط مصدرها بعض المصريين الذين شربوا من مائها، وأكلوا من زرعها، وتنفسوا من هوائها ... ويا مصر ... من أراد بك سوءًا كبَّه الله على وجهه ... أمين يا رب العالمين.

العبد لله من المؤمنين بالعروبة والقومية والوحدة من الخليج إلى المحيط، ولكن بعض الأقزام يحاولون إخراجنا من جلدنا، وهؤلاء الأقزام ينتهزون مناسبات هايفة وصغيرة لإجبارنا على الكفر بعروبتنا ووحدتنا وقوميتنا.

والمناسبة الأخيرة كانت مباراة مصر وتونس، ولاعب كرة عربي شاب لا يزال جالسًا أمام عدسات إحدى القنوات الفضائية العربية، وقال في لغة الواثق والخبير: إن نتيجة المباراة محسومة وإن الفريق المصري سيصبح لقمة سائغة في فم الفريق التونسي، هل شاهدتُم المباراة؟ الحقيقة كما شاهدناها لم يكن هناك أي مباراة لا من الجانب المصري ولا من الجانب التونسي ... وتفنن التوانسة في النوم على الأرض، ولولا العيب لنزل اللعيبة التوانسة ببطاطين شغل المحلة، كما نزلوا «ضرب» في اللعيبة المصريين بمناسبة وبغير مناسبة، والهدف الذي أحرزوه كان نتيجة لضربة جزاء تختلف فيها الآراء.

أين هي اللقمة السائغة التي ذكرها اللاعب التونسي المعتزل إياه؟ يا ناس حرام عليكم لا تجعلونا نكفر بالعروبة وبالقومية وبالوحدة، أغرب شيء أن الأخ إياه قال بعد المباراة، لقد انكشفَت مصر على حقيقتها، ما هي حقيقة مصر يا شاطر ... التي انكشفت لسيادتك؟

ماذا أقول للكابتن إياه؟ روح إلهي يشفي الكلاب ويضرك!

السفينة والكابتن سلامة

الخبر بسيط وعجيب وغريب في الوقت نفسه، سفينة عَبَرت قناة السويس، وعندما طالبوها بدفع الرسوم ادَّعَت الفقر، وزعمت أنها فقيرة وغلبانة وصاحبة عيال، وكانت النتيجة أنهم حجَزُوها في ميناء بورسعيد لحين ميسرة وتسديد الرسوم المطلوبة، ومرَّت عدة أشهر والسفينة مركونة في الميناء، ولاحظ أحد العباقرة — وما أكثرهم في الموانئ — أن الميناء لم يعد يحتمل استضافة هذه السفينة الشحاتة، فأمر بركنها في الغاطس بعيدًا عن حرم الميناء نفسه، ويبدو أن السيد العبقري إياه كان يعمل مدرسًا في الزمن القديم، وبدلًا من «تذنيب» الطالب المخطئ ووجهه للحائط عند حجرة الناظر، كان يصر على تنفيذ العقوبة في الحوش، وبالفعل تحرَّكَت السفينة من حرم الميناء إلى الغاطس وبقيت هناك عدة أشهر، ولكن ذات صباح في الأسبوع الماضي لاحظ بعض العاملين في الميناء اختفاء السفينة من الغاطس، وهنا ضربوا أخماسًا في أسداس، وحدَث هرَج ومرَج على رأي مترجم روايات أرسين لوبين، وفكَّر بعضهم في استدعاء أحد الدجَّالين لمعرفة مصير السفينة عن طريق فتح المندل، وهل غرقت في قاع البحر؟ أم اختطفها الجن وذهب بها إلى وادي شنكح؟ ولم يُفصِح الخبر المنشور في الجرائد اليومية عن المصير الذي انتهت إليه السفينة.

هذا الخبر البسيط هو أغرب وأعجب خبر على امتداد القرن العشرين، وأعتقد أنه لم يحدث مثله في أي مكان ولا في أي زمان، وأتساءل الآن ... هل توجد حراسة من أي نوع في منطقة الميناء وحتى الغاطس؟ أم أن المراقبة موجودة على رصيف الميناء فقط، وأنها محصورة في مراقبة عمليات التهريب البسيطة من جانب البمبوطية، والباعة السريحة، وصغار الموظفين للحيلولة دون تهريب خرطوشة سجاير أو زجاجة ويسكي أو أي شيء من هذه الأشياء التي تهدد مصالح الدولة العليا؟!

الذي حدَث بالفعل كما أتخيله، أن العيال المسئولين عن السفينة عيال أولاد حرام ونصابين على المستوى الدولي، لاحظوا يومًا بعد يوم أن الجو سداح مداح والخطوة بيني وبين حبيبي براح، وأنه لا مراقبة، ولا رقابة ولا حد واخد باله من أي حاجة فشَمَّعوا الفتلة وهات يا فكيك هربًا من دفع الرسوم والغرامة والتي تصل إلى ثلث مليون دولار، والسؤال الآن ... هل بلغَت الغفلة هذا الحد؟ وهل وصل الإهمال إلى هذه الدرجة؟ وهل التَّسيُّب صار شعار بعض الأجهزة وبعض الإدارات الحكومية؟ ولكن السؤال الأهم ... هل هرب النصابون بسفينتهم في أمان الله دون مساعدة من أحد؟ وإذا كان هناك أي مساعدة من أي نوع ... فما هي قيمة الفلوس التي دفعت للسادة الذين ساعدوا في تسهيل المهمة؟ ألف دولار، خمسة آلاف دولار، عشرة آلاف دولار، ثم هل حدث تحقيق في هذا الأمر؟ أم أن هذا الذي جرى كان بأمر السماء وبإذنها وما هو مكتوب على الجبين لا زم تراه العين؟!

الحق أقول: إن ما حدث في ميناء بورسعيد يصلح ليكون فصلًا في رواية لمحمد هنيدي باعتبار أن مثل هذه «الفصولات» يمكن حدوثها في هذا المجال فقط، خصوصًا أن حادثًا أبسط من الحادث الأخير وقع منذ عام وبعض عام، عندما وُضِعت سفينة تركية تحت الحراسة أثناء عبورها قناة السويس، والسماح لها بالإبحار بعد دفع الغرامة، ولكن عارفين إيه هيه الحراسة؟ وضعوا شاويش على ما أظن على ظهر السفينة وسمحوا لها بعبور القناة والتوقف في غاطس بورسعيد، ولكن السفينة ساقت الهبالة على الشيطنة وواصلت رحلتها إلى أوروبا، ثم قامت بإنزال الشاويش والمُحضر عند أول ميناء، وسلامو عليكو عليكم السلام، واتْفَضَّل شاي لا أنا عندي قضية، على رأي عمر الجيزاوي يرحمه الله.

كان يجب أن نتعلم الدرس من حادث السفينة التركية، ولكننا لم نتعلم شيئًا، ولم نستفد شيئًا، وأصبح الجميع يَستغِلُّون سذاجتنا ويهربون منا بعد أن يَسقُونا حاجة أصفَرا، وأحيانًا حاجة أحمَرا!

ماذا أقول؟ لا شيء ... فكل شيء واضح وظاهر وعلى عينك يا تاجر، وأغلب الظن أن مثل هذه الحوادث ستتكرر حتى بعد حادث السفينة الرومانية التي فرَّت من أيدينا في الأسبوع الماضي، وأنها مُجرَّد حلقة من حلقات السادة الهابرين الهاربين، وآخرهم الست علية العيوطي التي هربت بالهبرة كدبرة، وانضَمَّت إلى أسطول الهاربين من أمثال توفيق عبد الحي، والمرأة الفولاذية، وعشرات آخرين، بينما نحن نائمون في العسل نحلم أحلامًا سعيدة، أسأل الله أن يديم علينا الصحة والعافية والعمر الطويل!

أخيرًا ... بشرونا بنبأ العبقري الذي اختاره اتحاد الدهشوري حرب لإنقاذ الكرة المصرية، والعبقري إياه هو الكابتن أنور سلامة، وقد وقع الاختيار عليه بعد استبعاد عباقرة آخَرين على رأسهم الكابتن طولان أبو نضارة طلياني، والكابتن فاروق السيد، ومع الأسف لا علم لي باسمه الثلاثي، واسمحوا للعبد لله أن يقول لكم بمنتهى الصراحة: إن تعيين أنور سلامة مكان محمود الجوهري هو نكتة ظريفة، وأنه أشبه بتعيين الشيخ محمد مدرس اللغة العربية في مدرسة حسن نصار بالجيزة، أستاذًا بجامعة القاهرة، ومعروف للجميع أن أنور سلامة ليس له سابقة فضل في الكرة، لم يلمع لاعبًا ولم يلمع مدربًا، وأن شأنه كشأن علي برعي، وسعد برعي، وعبده برعي إلى آخر الكباتن من عائلة برعي الشهيرة، وهو عمل أشبه بإقصاء المارشال روميل وتعيين الشاويش حمدان على رأس جيوش المحور قبل معركة العلمين، وهل أنور سلامة هو الذي سيجيب الديب من ديله؟ ويحافظ على كأس أفريقيا ويعد الفريق للصعود إلى كأس أفريقيا، ويُعِد الفريق للصعود إلى كأس العالم؟ وهل كنتم جادِّين عندما أطحتم بالجوهري ووعدتم الجماهير بالاستعانة بمدرب عالمي؟ وهل كنتم تقصدون بكلمة عالمي نسبة إلى العالَم؟ أم نسبة لشهادة العالَمية التي حصل عليها أنور سلامة من كلية الكرة بجامعة الأزهر؟ وهل كان الهدف من حل اتحاد الكرة وعزل الكابتن الجوهري هو امتصاص غضب الجماهير، أما الكرة والمنتخب الوطني فهي أمور متروك مستقبلها لمشيئة السماء العالية يا نهر البنفسج، على رأي العم زكريا الحجاوي.

ولقد قلنا قبل ذلك: إن المدرب الوحيد في مصر الذي يصلح لسد الفراغ الذي أحدثه عزل الجوهري هو المدرب محسن صالح، وسبق أن جرَّبْناه من قبل، وأثبت أنه جدير بالقيام بهذه المهمة، ولو استمر في مكانه منذ ذلك الوقت لكان لدينا الآن منتخب وطني نُباهي به الأمم في تصفيات كأس العالم، ولكن سوء حظه وحظ الكرة المصرية جَعَله يقع في تناقُض مع الكابتن حسام حسن المُعيَّن كابتن للمنتخب المصري بفرمان من الباب العالي العثمانلي، وهو فرمان لا يمكن نقضه أو تجاوزه بأي حال من الأحوال، وكانت النتيجة أنهم أطاحوا به من المنتخب مع أن النتائج التي حققها كانت تشهد له وتشفع له في البقاء على رأس المنتخب.

وأسأل اللواء حرب الدهشوري واتحاده الكوميدي الذي يبدو أنه سينافس ليس هنيدي ولا علاء ولي الدين، ولكن يبدو أن في نيته منافسة عادل إمام نفسه، أسأل اللواء حرب هل أنور سلامة هو آخِر كلمة عندكم؟ وهل بأنور سلامة تطمع بالاحتفاظ بكأس

أفريقيا والوصول إلى ملاعب كأس العالم؟ إذا كانت هذه هي كلمتكم الأخيرة، وإذا كان أنور سلامة هو المنقذ في رأيكم للوصول بالمنتخب إلى العالمية وبالكرة إلى بر الأمان، فأنتم في الحقيقة لا تصلحون للجلوس على مقاعدكم في اتحاد الجبلاية، ولا تستحقون حتى الجلوس على مقعد في الاستاد للفرجة والمشاهدة، أنور سلامة يا راجل ... لتدريب فريق إيه؟ جمهورية شبين، اتحاد بني سويف، أوليمبي بلبيس ... إيه ... المنتخب الوطني؟! تف من بقك يا راجل وقول كلام تاني.

و... يا عيني على اللي حب ولا طالشي!

شيخ حارة مصر!

في مثل هذه الأيام منذ ١٦ عامًا رحل عن دنيانا الزعيم البطل جمال عبد الناصر، مات في الثانية والخمسين من عمره، في الوقت الذي عاش فيه المعلم قطب ٨٢ عامًا مع أنه كان ينام على الرصيف في مواجهة كازينو الحمام بالجيزة، وكان يكتفي في طعامه بما يجود به الكرماء، عاش عبد الناصر لمصر ومات من أَجْلها، وخلال حياته التي مرَّت كالحلم كان أشهى طعام لديه هو الجبنة البيضاء، وأفخر رحلاته الترفيهية إلى برج العرب، وأحلى سهراته في السينما الملحقة بمنزله، وبعد موته بسنوات طويلة شن بعض الأراذل من المصريين حملة شعواء ضد البطل فاتهمه أحدهم بأنه حرامي، واتهمه أحدهم بالإتجار في العملة الصعبة!

العجيب أن هؤلاء السادة الأشاوس عاشوا في عهد عبد الناصر يَمْشُون على العجين ما يلخبطوهش، وبعضهم أرسل للرجل برقيات التأييد وعرائض النفاق والمديح، وبعض الذين هاجموا البطل كتبوا ونشروا عقب وفاته مباشرة قصائد المدح في مناقبه، سألتُ أحدهم مرة: لماذا مدحتَ عبد الناصر في حياته؟ ولماذا هاجمتَه بعد ذلك؟ أجابني الأشوس إياه: لأنني كنت خائفًا وهو حي، ومن حق الخائف أن يحمي نفسه من باب «التقية».

سألتُ أحد الأطباء النفسانيين فأجاب: لا بُدَّ من دراسة كل حالة على حدة؛ لأن الناس تختلف والأسباب أيضًا، ولم أتَّفِق مع الأستاذ الطبيب في الرأي، ربما لأنني أعرف السبب الحقيقي في مثل هذا التصرف، فهؤلاء السادة الأشاوس الذين قبضوا بأيديهم على سكاكينهم وهات يا تشريح في جثة عبد الناصر بعد أن مات وشبع موت في قبره، إنما يفعلون ذلك جميعًا لسبب واحد ... هو قلة الأصل.

شباب هذه الأيام قد لا يعرف شيئًا عن نظام شيخ الحارة الذي كان معمولًا به في مصر حتى نهاية الخمسينيات، وشيخ الحارة كان واحدًا من الرعية، ولكنه يتمتَّع بسمعة طيبة بين الناس، ويحظى أيضًا بالاحترام في دوائر الشرطة، وكانت المدن المصرية مُقسَّمة إلى حارات، وكل حارة لها شيخ، الجيزة — مثلًا — كان لها أربع حارات، وكانت حارة رابعة هي أشهر الحارات، وهي الحارة التي أنجبَت خالدة الذكر المرحومة «سكسكة» أشهر فتوات الجيزة فترة طويلة من الزمان، ولا يزال الأحياء من ضباط الشرطة العظام يتذكرون المرحومة «سكسكة» ويذكرون ما قامت به من أعمال أغرب من الخيال، اللواء الوزير السابق حسن أبو باشا عرف المرحومة «سكسكة» عندما عمل في قسم الجيزة في بداية عمله بالشرطة برتبة ملازم، واللواء هجرسي كان بينه وبين «سكسكة» حوادث وحكايات عندما كان مأمورًا لقسم الجيزة، وأيضًا اللواء جمال شكري الذي عمل مأمورًا للجيزة في الخمسينيات، وإذا كانت حارة رابعة هي أشهر حارات الجيزة، فإن أشهر شيخ حارات الجيزة كان الحاج عوف شيخ حارة أول، ولقد تَشرَّفتُ بمعرفة الحاج عوف في آخر أيام حياته، واكتشفتُ أنه يعرف كل أسرار الجيزة وأدركتُ لحظتها أنه ليس كل إنسان يصلح للمنصب، ولكن يصلح له مَن كان مثل الحاج عوف يعرف أسرار المنازل وأسرار الناس! وكنتُ أظن أن هذا الطراز من الناس قد أصبح نادر الوجود الآن، غير أنني اكتشفتُ أن هناك من بين أصدقائي من يصلح لهذا المنصب، ليس شيخًا للحارة على مستوى النظام القديم، ولكن شيخ حارة لمصر كلها ومن مرسى مطروح إلى أسوان! الأول هو اللواء الوزير السابق عبد الحليم موسى، وهو زعيم شعبي بكل معنى الكلمة، ويصلح رئيسًا لحزب شعبي جماهيري من مستوى رفيع، أسأله أحيانًا عن شخص في المنصورة أو دمنهور أو دمياط أو أسيوط. ويأتيني الجواب على الفور، مَن أبوه؟ ومن أمه؟ ومن خالته؟ ومن زوج عمته؟ ومتى وكيف مات جده؟ وعن أي عُمر يرحمه الله؟! وعندما ترك منصبه كمحافظ أسيوط وجاء إلى القاهرة ليتولَّى منصب وزير الداخلية، ترك وراءه على الأقل عدة ألوف من أهالي المحافظة يمكنك أن تصفهم بأنهم أصدقاء شخصيون، رجال سياسة وموظَّفُون، وعُمَد، وأعيان، وخفر، وفلاحون، وناس على باب الكريم، ذات مرة أمعن النظر في صورة قديمة الْتُقِطَت للعبد لله في حفل أقيم في أسيوط عام ١٩٧٠م، وكان يحضر الحفل المرحوم شعراوي جمعة وعدد من لواءات الشرطة منهم اللواء رأفت البسطويسي، واللواء مصطفى الكسار، واللواء حسن طلعت، وبعد فترة سألني قائلًا: أنت تعرف الجدع ده؟ وتصوَّرت أنه يقصد أحد اللواءات، ولكني اكتشفتُ أنه يقصد شخصًا

كان يقف خلف الصفوف يرتدي جلبابًا صوفيًّا وكوفية ويحمل بندقية على كتفه، كنتُ قد نسيتُ الرجل ولكني عدتُ فتذكَّرْته، فقد كان من ضمن الذين حصلوا على مكافآت مالية في هذا الحفل بسبب أدائهم المتميز في خدمة الأمن، وانطلق اللواء عبد الحليم موسى يقول ... إنه خفير نظامي في مركز درنكة بأسيوط وهو ابن الرجل الشهير المعروف باسم «الخط» وإذا كان والده كان سببًا في إصابة جهاز الأمن بصداع خطير ودائم، فإن ابن الخط خفير نظامي ممتاز هو شجاع ومقاتل شديد المِراس وأدَّى للأمن خدمات كثيرة، سألتُ اللواء عبد الحليم موسى ... هل تعرفه؟ قال بالطبع ... وقابلتُه في المحافظة عدة مرات، ومنحته مكافآت مالية وشهادات تقدير، وأحمل له تقديرًا كبيرًا واحترامًا شديدًا كرجل يحترم كلمته ويؤدِّي وظيفته بإخلاص شديد.

شيخ حارة مصر الثاني هو المستشار عبد الحميد يونس، إنه يعرف أصل وفصل ٨٠ في المائة على الأقل من أهل مصر. كتَب أخيرًا فصلًا مدهشًا عن شخص ينتحل صفة «المستشار» مع أنه لم يصل خلال حياته الوظيفية إلا لدرجة مساعد مستشار، ولقد نشأ في مدينة ريفية ووالده كان يعمل بقالًا في المدينة، وكان له قريب يشغل منصبًا كبيرًا في الحكومة، وخلال الحرب العالمية الأخيرة زار قريبَه ليتوسط من أَجْل حصول والده البقال على كمية المواد التموينية المخصصة للمدينة، ولما كان طلب «المستشار» غير عادل؛ لأن تحقيقه يعني حرمان كل البقالين في المدينة إياها من حصص التموين، ولذلك رفض الباشا المسئول الاستجابة لطلب المستشار إياه، وكان لا يزال طالبًا في ذلك الوقت، وعلى الفور قام الطالب الذي أصبح «مستشارًا» فيما بعد بشن حملة شعواء على الوزير قريبه، وجاءت الحملة على صورة مقالات كان ينشرها في جريدة «الكتلة» لسان حال حزب الكتلة الذي كان يرأسه مكرم عبيد باشا وكان «الباشا» مكرم عبيد يقدم هذه المقالات بعبارة من سطر واحد «وشهد شاهد من أهلها» باعتبار أن كاتب المقال من عائلة الوزير الوفدي الذي كان من أشرف السياسيين الذين عرفتهم مصر. وأتَحرَّق شوقًا الآن لمقابلة شيخ حارة مصر الثاني المستشار عبد الحميد يونس لأسأله عن هذا الشخص الذي ينتحل صفة مستشار مع أنه لم يكن مستشارًا في أي وقت، والذي أدَّت به قلة الأصل إلى شن حملة ظالمة ضد الوزير؛ لأنه رفض منح أخيه البقال كل كميات التموين المخصصة للمدينة الريفية.

ولا أدري لماذا تذكرتُ الرئيس الراحل عبد الناصر بعد أن قرأت مقال المستشار عبد الحميد يونس، ربما هي قلة الأصل التي تربط بين «المستشار» إياه وهؤلاء الذين

شنوا حملات عنترية ضد عبد الناصر بعد موته، ولكن التاريخ لا يرحم هؤلاء الناس ولا يحترمهم؛ لأنهم غالبًا جبناء وعديمو الأصل.

ليتَ المستشار عبد الحميد يونس — بمناسبة ذكرى رحيل عبد الناصر — يُقدِّم لنا كتابًا يكشف فيه عن أصل وفصل هؤلاء الجبناء الذين هاجموا عبد الناصر بعد أن مات وشبع موتًا في قبره، لعل مثل هذا الكتاب يكون عبرة لهؤلاء الذين نَصَّبوا أنفسهم فتوات على مقابر البساتين، والخفير، والنخال، والإمام الشافعي!

حكاية أبو طرطور!

هل تذكرون أبو طرطور؟ وأبو طرطور الذي أقصده ليس هو العسكري العثمانلي الذي كان يُغطِّي رأسه بطرطور طويل، وكان ابن البلد المصري يصيح في وجهه محتجًّا ومتحدِّيًا ... أنت فاهم إني راح أخاف من طرطورك؟ ولا أقصد به الأراجوز الذي كان يطوف بحواري العاصمة منذ نصف قرن يتأبط عصاه الطويلة الغليظة يضرب بها الست نجية وأفراد عائلتها جميعًا ويتركهم صرعى بلا حراك. ولكن أبو طرطور الذي أقصده هو مشروع الفوسفات الذي أَطلق عليه البعض وصْف المشروع القومي، ثم اتضح في النهاية أنه لا قومي ولا وطني، ولكن هذا الاكتشاف جاء متأخرًا وبعد أن بَدَّدْنا على المشروع ثلاثة آلاف مليون جنيه، استوردنا بالجزء الأكبر منها آلات ومعدات وسيارات للمشروع، وأنفقنا الباقي على إنشاء خط سكة حديد لنقل إنتاج مناجم الفوسفات من أبو طرطور إلى موانئ التصدير على البحر.

وبالرغم من أن الهدف من إنشاء خط السكة الحديد كان لنقل كميات الفوسفات من المنجم إلى البحر، إلا أن العباقرة الذين أسَّسوا المشروع، أنشئوا عِدَّة محطات للركاب على طول الخط، محطات للركاب في صحراء طولها شهر وعرضها شهر، ألوف الكيلو مترات ليس بها أثر لجن أو لإنس ... حتى الوحوش الضارية ليست لها وجود في هذه البِيد التي دونها بِيد، وعندما ترك الوزير المتحمس للمشروع منصبه الوزاري وحل محله وزير آخر قام بتشكيل لجنة قومية أيضًا، درست المشروع وقتلته بحثًا، ثم قَررَت في النهاية وقْف العمل في المشروع؛ لأن عَيِّنة الفوسفات المستخرَجة من المنجم ليست من النوعية الممتازة، وأنها ليست أجود من التراب العادي، وأن ثمنها في الأسواق يقل كثيرًا عن تكاليف إنتاجه.

وجاء في تقرير اللجنة أن وقف العمل في المشروع هو وقف للنزيف المستمر الذي بلغ ثلاثة مليارات جنيه، الذي يعلم الله وحده الأوجه التي صُرِفت فيها، والعمولات التي

حصل عليها البعض من ورائها، واكتشفَت اللجنة أيضًا أن الأصل في المشروع كان نتيجة اتفاقية بين الاتحاد السوفييتي أيام عِزِّه والحكومة المصرية، يقوم الاتحاد السوفييتي بمقتضاها بإنشاء المشروع وتأمين نفقاته، ثم شراء إنتاجه كله تخليصًا للدين، وبعد ذلك يعود المشروع كله للحكومة المصرية.

بهذه الاتفاقية السوفييتية كان المشروع استثماريًّا بحق وحقيق، ولكن بعد سقوط الاتحاد السوفييتي كان يجب التوقُّف على الفور، ولكن الوزير الأسبق قرَّر المُضِي في المشروع والإنفاق عليه من الخزانة المصرية.

بعد اكتشاف هذه الحقائق قرَّرَت وزارة الصناعة وقْف العمل في المشروع، وعلى الله العوض ومنه العوض، واعتقدنا أن صفحة أبو طرطور قد طُوِيَت إلى الأبد، غير أننا فوجِئْنا في الشهور الأخيرة بتصريحات كثيرة تخرج من وزارة الصناعة في عهد وزيرها الجديد دكتور مصطفى الرفاعي كلها تدور وتلف حول إحياء مشروع أبو طرطور ... تاني؟! ... آخر هذه التصريحات نشرته «أخبار اليوم» يوم السبت الماضي تحت عنوان «دراسة جدوى متكاملة لإعادة الحياة إلى مشروع أبو طرطور»، وهل يمكن إعادة الحياة إلى ميت؟ هل عاد زمن المعجزات؟ وكيف تعود الحياة إلى ميت أعلن الأطباء وفاته؟ وجاء في تفاصيل الخبر المنشور على صفحات «أخبار اليوم» عن دعوة الشركات ورجال الأعمال للمساهمة في إعادة الحياة لهذا المشروع القومي — خد بالك من حكاية القومي دي — والذي يتكلف حوالي ستة آلاف مليون جنيه ... عجايب ... على رأي جدي الشيخ خليل، إحنا ناقصين خسائر؟! وحتى على فرض أن المبالغ التي سيجري إنفاقها هي أموال القطاع الخاص وأموال المستثمرين العرب والأجانب، فهي أيضًا يجب الحرص عليها كالمال العام تمامًا، وتَضمَّن الخبر المنشور على صفحات «أخبار اليوم» أيضًا تصريحًا لوزير الصناعة الحالي، بأنه تم تشكيل لجنة من الخبراء في جميع المجالات لدراسته وتقييم المشروع؛ تمهيدًا لطرحه للمشارَكة من القطاع الخاص والشركات العالمية التي تقدَّمَت للمشاركة بعد تحليل عيِّنات من الفوسفات وثبتت جودته.

يا مثبت العقل يا ربنا، لجنة جديدة من الخبراء، طيب واللجنة التي تَشكَّلَت من قبل وحكَمتْ بأن الفوسفات المُستخرَج من أبو طرطور من النوعية الرديئة، هل كانت مُشَكَّلة من غير الخبراء، وربما كانوا خبراء في الكورة، وفي الفنون المسرحية، وفي الأدب الشعبي، هل المسألة هزار أم هي جد؟ ثم ... أليس الوزير الذي حكَمَت لجنة من الخبراء في عهده بأن نوعية الفوسفات سيئة وأن المشروع على بعضه خاسر ... خاسر ... خاسر

... يا ولدي، علي رأي عبد الحليم حافظ، ألم يكن من وزراء حكومة الحزب الوطني؟ أم كان وزيرًا في حكومة حزب الأحرار؟

والعبد لله يريد أن يسمع جوابًا شافيًا من وزير الصناعة الحالي، خصوصًا والوزير مصطفى الرفاعي مهندس قدير وكان إلى عهد قريب يدير شركة من أكبر شركات البترول في مصر، وهناك سؤال ينتظر جوابًا من الوزير الرفاعي ... هل اللجنة التي أصدرت قرارها السابق بإعدام مشروع أبو طرطور، هل كانت لجنة من المهندسين؟ أم كانت لجنة من الأطباء البيطريين؟ وما هو العقاب الذي ينتظرهم بعد أن ضيعوا على مصر فرصة الاستفادة بخيرات أبو طرطور الذي كان سيحل مشكلات كثيرة في بر مصر؟ وإذا كان أعضاء اللجنة القديمة، كلهم مهندسون وخبراء ومتخصصون أيضًا، فلماذا تشكل لجنة جديدة؟ ولماذا نكلف بعض الهيئات بوضع دراسة جدوى جديدة؟ هل نحن غاويين خسائر؟ هل فلوسنا كثيرة ونبحث عن أوجه لإنفاقها؟ مرة على المدرب جيلي الفرنساوي ومساعده والمترجِم الذي يلازمه والمحامية الفرنساوية الحلوة التي جاءت معه إلى مصر وتولَّت تحرير العقد ولهفت ٢٥ ألف دولار حار ونار في جوفها، ومرة على إعادة الحياة إلى مشروع أبو طرطور الذي مات وشبع موتًا وهل يعود الموتى إلى الحياة؟ ومتى حدث هذا؟ وأين حدث؟ وفي أي عصر؟!

دبرني يا سيادة الوزير، دبرني يرحمك الله!

برادة ... ونجيب محفوظ!

من هو الذي حاول اغتيال البطل أحمد برادة؟ وما الجهة التي تقف وراء اغتياله؟ لقد شاهدت سيدة فاضلة على شاشة قناة الجزيرة الفضائية، وأغلب الظن أنها والدة البطل برادة تقول بمنتهى الهدوء وفي غاية الثقة: إن البطل برادة محبوب من جميع الناس، وأن محاولة اغتياله تشبه محاولة اغتيال نجيب محفوظ!

ما علاقة البطل الرياضي أحمد برادة بالعبقري الخالد نجيب محفوظ؟ ولماذا خلط الأوراق في هذا الحادث بالذات؟ وما الذي كانت تقصده السيدة الوالدة على وجه التحديد؟

هل تقصد اتهام جماعات الإرهاب بأنها تقف وراء محاولة اغتيال أحمد برادة؟ وإذا كان هذا هو القصد فأي التنظيمات الإرهابية التي قامت بمحاولة القتل؟ هل هو تنظيم الناجون من النفس؟ أم جماعة المستديرة المجنونة؟ إن أحمد برادة عزيز علينا جميعًا، ولكن الإرهاب لا علاقة له بمحاولة اغتياله. ولا أحد له مصلحة في اغتيال أحمد برادة إلا بطل العالم في الإسكواش والذي يهدد أحمدُ برادة الصاعدُ عرشَه الذي يجلس عليه! إن الإرهابيين كانوا وراء اغتيال نجيب محفوظ؛ لأن بعض أصحاب العقول الصلعاء كانوا يَتصوَّرون أن رواية «أولاد حارتنا» كانت كفرًا خالصًا يستحق كاتبها الموت. فما الذي فعله البطل أحمد برادة ليكون هدفًا مجهولًا وراء حادث الاعتداء على أحمد برادة، وعلى عاتق أجهزة الأمن العثور على الفاعل وبأقصى سرعة، أما حشر الإرهاب في الموضوع فهو أمر مضحك للغاية؛ لأن الإرهاب في حالة كُمُون في الوقت الحاضر، حتى حادث الاعتداء على الرئيس حسني مبارك في بورسعيد كان حادثًا فرديًّا ولم يكن له علاقة بالإرهاب. ولكن هل يدافع العبد لله عن الإرهاب؟

بالطبع لا، ولكنني أدافع عن الأصول، وإلا اختلطَت الأشياء، وعقد البعض مقارنة بين العبد لله ومحمد علي كلاي في الملاكمة، وربما انشغل البعض بتحديد الفروق بين أحمد

عدوية ومحمد عبد الوهاب، وهي حالة تؤدِّي حتمًا إلى فوضى في المفاهيم وخلل في القيم؛ لأنه إذا جرى تشبيه ما جرى لأحمد برادة بما جرى لنجيب محفوظ، يصبح واردًا تشبيه العبد لله بمحمد علي كلاي، وتشبيه أفعال الحاج فتحي الريان بإنجازات طلعت باشا حرب، وخطورة هذا الأمر أنه إذا فقد شعب من الشعوب القياس المضبوط فإنه بالتأكيد ستضطرب خطواته وسيفقد اتجاهه وسيضيع من قدمه الطريق، على رأي الشاعر كامل الشناوي.

ولأننا نحب أحمد برادة جميعًا، لذلك يجب أن نبعده عن أي مقارَنات من هذا النوع، والعبد لله يرجو أن يُوفَّق الأمن المصري في الكشف عن هذا المعتوه الذي حاوَل قتل بطل رياضي ليس بينه وبين الناس إلا كل خير، وهي مهمة وطنية بكل تأكيد؛ لأن مجرَّد الاشارة بأن الحادث الذي تعرض له الكابتن أحمد برادة هو عمل إرهابي، سيكون سببًا في مشاكل كثيرة ما أغنانا عنها، خصوصًا أنها مسألة لا أساس لها في واقع الأمر.

الشجاعة والكرم من صفات العرب القدماء، فهل ورث عرب اليوم هذه الصفات؟ أم أن عرب اليوم لا صلة لهم بعرب الأمس؟ وأصل المسألة أن جماعة من اليابانيين كلهم شباب وكلهم متحمسون، استفزهم صلف إسرائيل وعدوانها المتكرر على العرب فاستقلوا طائرة وهبطوا في مطار تل أبيب، وعندما أصبَحوا داخل المطار، فتحوا حقائبهم وأخرجوا منها مدافع رشاشة ومسحوا صالة المطار بطلقات الرصاص، وقَتلوا عددًا من الإسرائيليين قبل أن يستسلموا لرجال الأمن، وبرغم ارتفاع عدد القتلى والجرحى، صدر ضدهم حكم بالسجن، وبعد فترة من الزمن وفي إحدى المرات التي تبادَلَت فيها إسرائيل بعض السجناء ببعض الجثث مع جيرانها العرب، قامت الحكومة الإسرائيلية بتسليم السجناء اليابانيين ببعض جثث الإسرائيليين، وكان الفدائيون اليابانيون من نصيب لبنان. ولا أذكر بالضبط ما حدَث لهؤلاء اليابانيين في بيروت، وإن كنتُ أعتقد أنهم حُشِروا في أحد السجون، لماذا؟ لا أعرف وكل ما أعرفه أنهم لم يهبطوا في مطار بيروت، ولم يفتحوا مدافعهم الرشاشة في صدور رجال الأمن والمواطنين اللبنانيين، ولكنهم فعلوا ذلك كله في مطار إسرائيل ومع مواطنين إسرائيليين.

المهم أنه تقرر الإفراج عنهم من السجون اللبنانية في الأسبوع الماضي، ولكن الأمر الغريب أنهم أفرجوا عنهم إلى المطار، ومن المطار إلى الأردن، وفي مطار عَمَّان رفضَت السلطات الأردنية دخولهم أراضيها، وقامت بوضعهم على طائرة رسمية روسية نقلتهم

إلى موسكو، ومن موسكو حُشِروا في طائرة أخرى حطَّتْ بهم في طوكيو، وفي مطار طوكيو أخذوهم إلى السجن الياباني تمهيدًا لمحاكمتهم باعتبارهم أعضاء في تنظيم إرهابي ياباني شهير، وإذا كان من حق الحكومة اليابانية سجنهم ومحاكمتهم فهل هو أيضًا حق الحكومات العربية، وإذا كان هؤلاء اليابانيون قد ارتكبوا جرائم إرهابية فقد كانت جرائم لمصلحة العرب وليست ضدهم، فهل يكون السجن والتسليم جزاء من يساعد العرب أو يُقدِّم معروفًا لهم، أم أن العرب هم من جنس الغز، وآخر خدمة الغز علقة كما هو معروف. وهل فقد العرب النخوة والمروءة ورد الجميل، وهل تَساوَى عند العرب من يخدمهم ومن يعتدى عليهم؟

ومن قبل قامت السلطات السودانية في أيام سيطرة الترابي بتسليم كارلوس، الذي ارتكب كل «جرائمه» من أجل قضية عربية وفي سبيلها سلمته سلطات الترابي للمخابرات الفرنسية، لتحشره في السجن إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولًا، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ إنها قاعدة إسلامية عربية ولكنها صارت في هذا الزمان — وهل جزاء الإحسان إلا الإساءة؟ — لقد عرفت الآن لماذا لم تَقتل إسرائيل هؤلاء اليابانيين، ولماذا سلَّمَتْهم، لقد كانت تعرف مصيرهم المحتوم على يد العرب.

بينما هي ستبقى أمام العالم واحة العدل والعفو عند المقدرة، فأمجاد يا عرب أمجاد.

السودان إلى أين؟!

كنت أود أن أنشر على حضراتكم نص الخطاب الذي أرسلَه للعبد لله كبير المصارف العربية ابن حارتنا العبقري محمود عبد العزيز رئيس البنك الأهلي، ورئيس اتحاد البنوك العربية، ولكن التطورات التي حدثت على الساحة العربية هذا الأسبوع اضطرتني إلى تأجيل نشره للأسبوع القادم.

أما التطورات التي أقصدها فهي التي حدثت في السودان، بإعلان الأحكام العرفية، وإبطال العمل ببعض مواد الدستور في محاولة من رئيس الدولة للقضاء على ازدواجية القرار في قمة السلطة.

والحق أقول: إن ما حدث كان متوقَّعًا منذ فترة، وأزعم الآن أن هذه الازدواجية في السُّلْطة عاشت أكثر مما يجب، فنحن العرب لا نجيد اللعب كفريق، ولكننا نعشق اللعب الفردي، ونحب تسجيل الأهداف بأنفسنا.

وأذكر أنني شاهدتُ برنامجًا تليفزيونيًّا على شاشة إحدى القنوات الفضائية العربية، سأل المذيع الرئيس البشير سؤالًا مباشرًا ... مَن الذي يحكم السودان؟ ... ورد البشير قائلًا ... نحن الذين نحكم السودان.

وقال المذيع معلقًا، ولكننا وجَّهنَا السؤال نفسه إلى الدكتور الترابي فأجاب بأنه هو الذي يحكم السودان.

وغضب الرئيس البشير قائلًا ... الترابي يقول على كيفه، ولكن نحن الذين نحكم السودان. لقد كشف هذا الحوار الخاطف، أن في النَّفْس أشياء وأشياء، رغم ما كان يبدو على السطح من حب ومودَّة وسَمْن على عسل، وأخيرًا حانت اللحظة وانفجر بركان الغضب، الترابي شرَع في تقليص سُلطات رئيس الدولة، فسارع البشير بحل المجلس النيابي، وهو القرار الذي يعني إقصاء الترابي عن السلطة وانفراد البشير بحكم السودان.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن ... لمن الغلبة اليوم؟ ومن الذي سيتمكن من فرض إرادته ويجلس على قمة هرم السُّلْطة في الخرطوم؟ هل هو البشير؟ أم هو الترابي؟

الحق أقول: إن الترابي ليس لقمة سائغة والوصف نفسه نستطيع أن نطلقه على البشير، فالترابي استطاع أن يكون على قمة السُّلْطة في عهود سابقة، واستطاع أن يجذب النميري من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وأنصاره من السودانيين لا حصر لهم، بالإضافة إلى أنه سياسي قديم ويجيد المواجهة ويجيد المراوغة. أما الرئيس البشير فقد نجح في تمهيد الأرض قبل الدخول في المعركة، وتمكن بجدارة من وضْع حد للخلافات مع الدول المُجاوِرة، كما عقد عدة اجتماعات مع كبار زعماء المعارَضة، وصارت علاقاته وثيقة بمصر وليبيا في الفترة الأخيرة، كما أنه رجل يجيد التنظيم وقائد مُدرَّب على القيادة، ولذلك فالعبد لله يخشى على السودان من نتائج صراع السُّلْطة بين الرجلين؛ لأن صراع السُّلْطة هو أشرس وأعنف صراع على ظهر الأرض. والسودان بدأ يُشفى من أمراضه، ودخل في دور النقاهة، وينتظر الكثيرون له أن يتمكن قريبًا من الوقوف على قدميه، ومعركة شرسة من هذا النوع بين البشير والترابي ستترك آثارها على جسد السودان مهما كانت نتيجتها، وأخشى أن ينتهز الخواجا «جارانج» الفرصة فينشط أثناء انشغال الدولة السودانية في هذا الصراع.

أما بالنسبة للعبد لله فأعتقد أن الغلبة ستكون في النهاية للبشير؛ فهو يحكم قبضته على الجيش، كما أنه يتمتع بشعبية واسعة بين طبقات الشعب السوداني، هؤلاء الذين نعموا بالأمن بعد فترة طويلة من الفوضى وعدم الانضباط في أواخر أيام حكومة النميري، واستمرَّت في عهد حكومة الصادق المهدي، وهؤلاء الذين تَوفَّرت لديهم في عهد البشير كل المواد الغذائية، بعد أن كان اللحم والخضراوات والخبز والفاكهة من الصيد الحرام في العصور السابقة لحكم البشير. وكان بنزين السيارات هو الحلم البعيد المنال في فترات سابقة، وصار متوفرًا الآن في عهد البشير، ويستطيع البشير أن يحسم المعركة لصالحه فورًا إذا نجح في خفض الأسعار التي يشكو منها الناس، وإضافة زيادات ينتظرها الجميع على رواتب الموظَّفين.

وكل ما أرجوه الآن، أن يكون الخلاف بين القُطبين هو بمثابة سحابة صيف، أو حسم الأمر لصالح الشرعية وللحرية ولسيادة القانون، فالحكومات تزول والقادة إلى زوال، ولكن يبقى السودان ويبقى شعب السودان إلى يوم الدين.

سنكوح وأبو طرطور

سمعتُ التعليق نفسه في أكثر من مناسبة وفي أماكن مختلفة مصحوبًا بدهشة كبيرة ... لحرب بين بلدين متجاورتين يتضوَّر أهلهما جوعًا ويموت الأطفال على الجانبين في سن الرضاع.

كيف يزحف الجنود من الناحيتين بينما صِور بعضهم تُظهِر بوضوح أن العيون زائغة، والخدود غائرة والجلد ينبئ بأن صاحبه يعاني من جفاف؟

ومع أن التعليق نفسه تكرَّر في أكثر من مناسبة وأكثر من مكان، إلا أن العبد لله لم يجد سببًا للدهشة، فما يجري بين إثيوبيا وإريتريا هو شيء طبيعي للغاية؛ لأنه لا يثير الخناق والشجار بين الناس إلا الفقر ووقف الحال، هذا هو الوضع الطبيعي سواء بين الأفراد أو بين الدول.

وهل شاهد أحدكم خناقة بين سكان عمارة في المهندسين أو في جاردن سيتي؟ لا يتشاجر إلا سكان بولاق الدكرور وطابق الديابة. الناس تتشاجر من يأسها وبؤسها، أما الناس المرتاحة فلا يعرف الشجار طريقه إليهم، والدليل على ذلك أننا لم نسمع عن معركة نَشبَت بين سويسرا وفرنسا، أو بين هولندا وألمانيا. صحيح أن الحرب نشبَت بضراوة بين ألمانيا وجيرانها في أوروبا. ولكنها كانت حرب طمع وليست حرب جوع. والطمع كان من جانب الدول الأوربية التي استولَت على قارَّتَي آسيا وأفريقيا، وحرمَت ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وعندما تستأثر جهة بكل شيء وتحرم الأخرى من كل شيء فلا بُدَّ من نشوب الحرب في محاولة لتغيير الواقع المؤلم.

ونظرة واحدة على خريطة العالم قبل الحرب العالمية الثانية ستجد أن القسمة التي تَمَّت بعد الحرب العالمية الأولى هي قسمة ضيزى، وستجد أن دولًا كبلجيكا كان لها مستعمَرات تحتوي على خيرات كثيرة، وهولندا بلد الوَرد واللبن الحليب كان لها

مستعمَرات شتى، أما ألمانيا فليس لها مستعمَرات وليس من حقها أن تطالب بنصيبها. في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تحصل على نصيب الأسد، ولكن إذا كان من حق بريطانيا التكويش على مستعمَرات غنية باعتبارها سيدة البحار، باعتبار ما كان، فكيف يكون لبلجيكا مستعمَرة كالكونغو الديمقراطية بمناجمها الغنية وأحجارها الكريمة الغالية؟ ... وكيف يكون للغلبانة البرتغال مستعمرات في أنجولا وموزمبيق؟ ... بينما خرجت ألمانيا من المولد «ببابا أوبح» إنه الموقف نفسه بين قبيلة الهوتو وقبيلة التوتسي. قبيلة صاحبة مال وسُلطة وقبيلة أخرى صاحبة عَيا. ولكنَّ هناك سؤالًا: وهل الموقف في سيراليون هو الموقف نفسه بين إثيوبيا وإريتريا؟ والجواب لا. الموقف مختلف تمامًا، فالصراع بين ثوَّار سيراليون بقيادة الجنرال سنكوح والحكومة المنتخَبة هو صراع على مناجم الماس في سيراليون. وعندما هدأ الصراع في الماضي القريب تولَّى سنكوح وزارة المناجم، ويبدو أنه اعتبرها غنيمة له ولقبيلته ورجال جيشه؛ وباع محصول الماس كله لجهات أخرى غير زبائنه التقليديين. ولذلك فالثورة الجديدة في سيراليون اشتعلَت بفعل أصابع أجنبية. ويبدو دَوْر بريطانيا واضحًا في الأزمة الحالية؛ لأن القوات البريطانية الخاصة كانت أسرع قوة أجنبية تصل إلى سيراليون، وقيل إنها ذهبت لتساعد في ترحيل الرعايا الأجانب، ولكنها مع ذلك اشترَكت في قتال الثوار، وفي اعتقال سنكوح، ولا أعرف هل اسم قائد الثوار سنكوح أم هو اسم الدلع؟ ولا أدري لماذا هو سنكوح؟ مع أنه استطاع أن يجعل من نفسه مركز قوة وتمكَّن من فَرْض الصلح على الحكومة في فترة سابقة. ولا أدري هل هو السنكوح الوحيد في سيراليون؟ أم هناك سناكيح غيره في صفوف الثوار وفي صفوف الحكومة؟

وبعدُ ... فإن ما يدور هذه الأيام بين إثيوبيا وإريتريا هو أمْر طبيعي للغاية. ولو الشعب شبعان وجيوبه مليانة، لو أن الشعب هنا وهناك مبسوط وفرحان، وآمن في يومه، وغير قَلِق على غده، لما تحرَّكَت دبابة ولا انطلقَت رصاصة ولا عَبَر جندي واحد حدود الدولة الأخرى.

أذكر أنني ذات يوم بعيد حاولتُ التدخل لإطفاء نار خناقة حامية قامت بين أسرتين في الحي الشعبي بالإسماعيلية. ولكن عم أحمد المنجد — وكان دكانه يقع بالقرب من المنزل الذي دبَّت فيه الخناقة — أشار على العبد لله بعدم التدخل، وسألته: ليه يا عم أحمد؟ فأجاب: يا بني سيبهم يتخانقوا شوية، الخناق لهم دوا، أنت مش عارف أن الحال واقف اليومين دول والعيشة ضنك والإنجليز محاصرين الحتة كلها؟ سيبهم يتخانقوا لحد ما يزهقوا وتهدأ أعصابهم وهمه هيسكتوا لوحدهم. وأعتقد أن الحرب ستتوقف في القرن

الأفريقي بعد فترة من الحرب، عندما تهدأ الأعصاب وتروق الأدمغة على الجانبين. هكذا شاء الحظ أن يكون الخناق دواء لبعض الأفراد ولبعض الدول، وقاكم الله شر الفَلَس ووقف الحال والجوع الشديد!

كتبتُ منذ فترة قصيرة عن مشروع أبو طرطور، وحذَّرْت من محاولة توريط الحكومة في عملية إحيائه بعد أن أهدَرْنا فيه ما يزيد على ٦ مليارات جنيه وانتهى المشروع إلى بوار. وردَّ على العبد لله السيد وزير الصناعة مؤكِّدًا أنه لا توريط هناك للحكومة ولا يحزنون، وأنه اكتشف إمكانات هائلة للمشروع يمكنها تحقيق أرباح طائلة، وتحدَّث عن دراسات جدوى للمشروع قامَت وتقوم بها هيئات أجنبية معتمَدة ومعترف بها. ثم فوجِئتُ برحلة قام بها الوزير إلى مشروع أبو طرطور مصطحبًا معه مجموعة من أعضاء مجلس الشعب ورجل أعمال مصري يعمل في مجالات لا علاقة لها بالمناجم. وظهر من تصريحات الوزير أنه ماضٍ في طريق إحياء المشروع، وأنه متحمِّس بطريقة تفوق حماس الذين أسسوه.

والآن ... أسمح لنفسي بمخاطبة الدكتور عاطف عبيد رئيس الوزراء، وأقول له ... إن إنفاق أي فلوس من خزانة الدولة على مشروع أبو طرطور الفاشل سيكون بمثابة جريمة في حق الشعب المصري ... إن كل الدراسات، وكل تقارير الخبراء تُثبتُ أنه مشروع فاشل، وأنه حتى في حالة النجاح في استخراج الفوسفات فإن تكاليف استخراجه وغسيله ستحرمه من المنافسة في الأسواق؛ لأن ثمنه سيكون ضعف ثمن البضاعة المنافِسة.

وأسأل سؤالًا وأرجو أن أجد عليه جوابًا: لماذا الإصرار على استخراج الفوسفات من أبو طرطور؟ إن اليابان لا تملك أي مواد أولية من أي نوع، ومع ذلك أقامت نهضة صناعية تُنافِس أمريكا وبريطانيا وفرنسا. ونحن أنفقْنا على المشروع الفاشل ٦ مليارات ونصف المليار جنيه تقريبًا، لو كنا اشترينا بها فوسفات من الخارج فبالتأكيد كان سيكفينا نصف قرن تقريبًا.

وأقول لرئيس الوزراء ... الأمر يحتاج إلى قرار منكم بوقف مُحاولة إحياء أبو طرطور؛ لأنه حرام علينا إهدار أموال الخزانة في إحياء مَيِّت مات وشبع موتًا من زمان.

مُرتَّب الخواجا والأبطال

يا ناس فضوها سيرة عشان خاطر حبيبي النبي، وبلاش فشخرة كدابة، وعنطزة فارغة، وتعالوا بنا إلى سلوك الطريق الذي يتفق مع مصالحنا ومصالح شعبنا الطيب. أقول قولي هذا بمناسبة ما ترامى إلى سمعي من أنباء تؤكد أنهم يبحثون في الوقت الحاضر إلى استقدام مدرب إيطالي للمنتخب المصري براتب قدره ٢٠٠ ألف جنيه شهريًّا، ٢٠٠ ألف جنيه شهريًّا يا خواجا!

العبد لله يعتقد أن مرتَّبات أعضاء مجلس الوزراء وعلى رأسهم الدكتور كمال الجنزوري لا تصل إلى هذه القيمة. ومثل هذا المبلغ لألف شاب عاطل شهريًّا يحل مشاكلهم وتجعل منهم مواطنين صالحين بأمر ربي. راتب الخواجا المدرب الإيطالي لو رصدناه كل شهر لقرية من قرى مصر لحوَّلْنا هذه القرى إلى مكان صالح للحياة، لو منحنا هذا المبلغ كل شهر لمستشفى الغلابة في الريف والأحياء الشعبية لتحوَّل مستشفى البدرشين إلى البدرشين كلينك!

ولكن قد يصرخ واحد من إياهم ... ولماذا لا ندفع هذا المبلغ للمدرب الخواجا؟ وهل الحياة فقط عاطلين ومستشفيات فقيرة وقرى مهملة؟

وأقول لهؤلاء ... عندكم حق. والعبد لله مستعد أن يوافق على رفع راتب المدرب الخواجا إلى ٣٠٠ ألف جنيه بشرط أن يوقع على تَعهُّد بأن منتخبنا سيفوز في النهاية بكأس العالم. ولكن إذا كان جهد الخواجا المدرب سيتوقف عند حد الدخول في ثلاث مباريات أو أربع ثم العودة إلى القاهرة وقفاه يقمر عيش ... فماذا يجبرنا على دفع هذا المبلغ؟ ولماذا لا نستفيد منه في أغراض أخرى؟ ومعنى هذا أن المدرب الخواجا أبو ٢٠٠ ألف جنيه لن يفعل أكثر مما فعل محمود الجوهري، مع فارق بسيط أن الجوهري فعل الشيء نفسه وكان يتقاضى أيامها راتبًا لا يزيد على ١٠ آلاف جنيه، وربما أقل من ذلك.

ثم ما هي قيمة المدرب مع فقر القماشة الموجودة؟ وما دمنا لن نكسب كأس العالم ولن نصعد إلى المربع الذهبي في أية كأس عالم. فلماذا لا نوفِّر فلوسنا ونستعين بأي مدرب، ولدينا منهم الكثير والحمد لله من أول حسن شحاتة، إلى حسن مجاهد، إلى حسن يا خولي الملاعب يا حسن؟

صدقوني إذا قلتُ لكم إن دفع راتب لأي إنسان قدره ٢٠٠ ألف جنيه شهريًّا هو حرام، إلا إذا كان الراتب لعالم ذَرَّة أو مخترع طائرة حربية، أو قائد جيش عبقري في قامة روميل أو مونتجمري. أما مدرب كرة ... فاسمح لي، إلا إذا جاء إلى القاهرة ومعه فريق البرازيل، أو فريق إيطاليا، أو فريق الأرجنتين، وبشرط أن تكون مرتبات الكباتن ضمن راتب المدرب! ويا بتوع اتحاد الكرة ... هل تريدون حلًّا واقعيًّا للخروج من ورطتكم التي تواجهونَها الآن؟ أعيدوا الدكتور محمود الجوهري إلى منصبه كمدير فني للمنتخب المصري، وليكن ذلك اليوم أو غدًا لكي يستعد لكأس الأمم الأفريقية، وأيضًا لتصفيات كأس العالم، ودَعْكُم من هذه الأحلام أو الأوهام؛ لأنكم لن تخرقوا الأرض ولن تبلغوا الجبال طولًا ... وزمان يا جماعة الخير جاء أحد الدكاترة من أمريكا وذهب إلى قرية العطف بالمنوفية وألقى محاضرة على الفلاحين في كيفية الرعاية الواجبة للجاموسة لكي يتضاعف إنتاجها من اللبن. وشدَّد على ضرورة معاملة الجاموسة برفق مع الحرص على إسماعها بعض القطع الموسيقية، وأن تتم عملية الحلب بالأجهزة الحديثة، على أن ترتدي الفلاحة أو الفلاح ملابس معقمة أثناء عملية الحلب. وبعد أن صفق له الفلاحون طويلًا سألوا الدكتور القادم من أمريكا، وإن شاء الله هتسلمونا الجاموسة يوم إيه؟ وأقول لكم كما قال الفلاحون للدكتور المحاضر: مش تجيبوا فريق الأول قبل ما تجيبوا مدرب! وقديمًا قالوا ... كل من أراد شرًّا بمصر كبه الله على وجهه. أرجو أن يكبكم الله على وجوهكم، يا حضرات السادة في المجلس الأعلى للشباب والرياضة وفي اتحاد الكرة!

يا ميت حلاوة يا جدعان على العيال الأصوليين الأبطال الذين يحاربون الجيش الروسي في الجمهورية الإسلامية كازاخستان. انظروا إلى صورة المقاتل خَطَّاب، والمقاتل شامل، إنهما أبطال بالفعل وهما الخالق الناطق الحجم نفسه والكسم نفسه للبطل قطز، والبطل الظاهر بيبرس، والبطل عز الدين أيبك التركماني، والبطل السلطان برقوق. هؤلاء الأبطال الذين هزموا الصليبيين في المنصورة، وأسَروا ملك فرنسا، وهم الذين أبادوا صنف التتار وكسروا شوكتهم في عين جالوت، وهؤلاء المقاتلون الجدد خَطَّاب وشامل هم الذين مَرَّغوا

رأس روسيا في التراب في معركة الشيشان، وها هم يعودون من جديد لكسر روسيا في داغستان. هؤلاء هم الأبطال بينما الأبطال عندنا هم الذين كتبوا مقالات ضد مواطن يمثل موقع المسئولية في مجال الزراعة. البطولة في قاموسنا هي أن تشرع قلمك وطاخ طوخ ثم تدخل السجن فتصبح بطلًا ... يا بختك ... بينما البطولة هناك أن تشرع سلاحك وهات يا حرب شرسة ضد جيش كان إلى عهد قريب من أقوى جيوش العالم. الغريب أن الدولة الروسية التي كانت بالأمس قوة أعظم تعلن بين الحين والآخر أن قواتها الباسلة أبادَت الثوار، وقتلَت منهم الآلاف. ثم يتضح للجميع أنها مجرَّد أوهام وأحلام، وأن روسيا تنام عارية أغلب الليالي فيما يبدو.

وأقول لكم بصراحة ... إذا كان للعالم الإسلامي مستقبل مشرق مرموق فسيكون على يد هؤلاء الأبطال. لقد جدَّدوا شباب الإسلام من قبل، وسيُجدِّدون شبابه في المستقبل، إنهم نوع فاخر من المسلمين ونوع نادر أيضًا ... وصلى الله عليه أشرف خلق الله، قال وهو الصادق الأمين: «يأتي يوم على أمتي يُصبِحون فيه كغثاء السيل، تتناوشهم الأمم كما يتناوش الأَكَلَة قصعتها. قيل أَوَ مِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل إنكم يومئذ لكثير، ولكن يُلقِي الله في قلوبكم بالوَهَن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الآخرة». ولكن هؤلاء المقاتلين الأبطال حقًّا لا كذبًا أثبتوا من خلال معاركهم أنهم يحبون الدنيا ويحبون الآخرة أيضًا ... ولا فرق إذا دخلوا معركة فإما النصر وإما الشهادة، وكلتا النهايتين مذاقهما حلو. هؤلاء ليس في قلوبهم وَهن، ولكن الوَهن في قلوب أعدائهم.

البقية الباقية من جيش الرسول في صدر الإسلام، المجد لهم والنصر في ركابهم بإذن الله.

هنـــداوي